نبيل هادي

١٧ ساعة تاريخية عند باب المندب

ثورة اليمن الديمقراطية من يونيو ٦٧ الى يونيو ٧٨

دار الفارابي

نبيل هادي ١٧ ساعة تاريخية عند باب المندب

مؤلف هذا الكتاب
لم يكن الشاهد الوحيد،
كان هناك شاهد كبير أيضاً!
إنه تاريخ اليمن
شعباً وحضارة وثورة.



الثمن: ١٤ ل.ل.

نبيل هادي

١٧ ساعة تاريخية عند باب المندب

ثورة اليمن الديمقراطية من يونيو ٦٧ الى يونيو ٧٨

دار الفارابي

دار الفارابي بيروت ص.ب. ٣١٨١

الاهـــداء

الى شهداء يونيو وأبطال اكتوبر .

الى الواقفين بوجـه

حزيـران النكسة .

ماذا يحصل قبل وصول هذه الكلمات الى القارئ ؟!

الاحد في ٢٥ يونيو (حزيران) ١٩٧٨م ، ١٨ رجب ١٣٩٨هـ . اجواء غير طبيعية تسيطر على مقر رئاسة مجلس الوزراء ، في الجهة الشمالية الغربية من جزيرة عدن التي تحيط بها المياه من معظم جوانبها . رئاسة الوزراء ليست بعيدة عن مقر القصر الجمهوري . لكن القصر لا تصل اليه الا بعد استئذان الحرس الكثيف والمرور في طريق متعرجة تنتشر حولها بعض التلال والجنائن وكلها محكمة الحراسة .

كنا نتبادل أطراف الحديث في مقر رئاسة الوزارة مع مجموعة من الاصدقاء بينهم عدد من اعضاء اللجنة المركزية للجبهة القومية التي تحكم البلاد منذ الاستقلال في العام ١٩٦٧ .

كان الرفاق يحاولون اظهار بعض الابتسامات لكن وجوههم سيطرت عليها مسحة من القلق والكآبة . ماذا في الامر ؟ وهل البلاد قادمة على هزة داخلية ، أم ان تحركا خارجيا يجري التخطيط له في هذه الايام الحرجة ؟

لا .. لا شيء .. يبتسم احد الحاضرين ويحاول أن يلملم بعضا من شواغله المؤرقة ويقول : كل ما في الامر ان هناك من يحاول استغلال مقتل الغشمي .

كان رئيس اليمن الشمالية قد قتل قبل ثلاثة ايام . وحساسية العلاقة بين الشمال والجنوب تدفع الى كثير من

التخوف . وكانت اذاعة صنعاء قد اعلنت ، فور مصرع الرئيس الذي استلم الحكم بعد اغتيال الرئيس الحمدي قبلها بعدة اشهر ، ان المقدم الغشمي اودت به عبوة ناسفة حملها مندوب من رئيس مجلس الرئاسة في اليمن الجنوبي .

دعوة للاستنفار ضد الحكم « الارهابي والماركسي والملحد » في الجنوب . المملكة العربية السعودية تحرك السنتها وسفاراتها . مقر الجامعة العربية في القاهرة يزخر بحيوية لم يشهدها في اي فترة من تاريخه . يقظة مدهشة شملت جميع « العربان » الذين كانوا في غفوة شديدة لدى الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة والمذابح المقترفة ضد الشعبين اللبناني والفلسطيني والجرائم الايرانية ضد شعب عمان ، والذين كانوا نائمين لدى توقيع المعاهدات المعروفة والزيارات المخجلة الى القدس المحتلة .

كلهم اصيبوا بنوبة من الصحو مفاجئة وكأن يدا سحرية قد مرت فوق جفونهم لتلفحها بروح محيية .

طبول الحرب تقرع ضد اليمن الديمقراطية . واشنطن ولندن ، وربما باريس ، على اهبة الاستعداد . السلاطين الصغار والكبار في المنطقة العربية يتاهبون لتادية دورهم . القبور المحنطة تنبش من جديد وتطلق منها التصريحات الملأى بالغيرة القصوى على تضامن العرب ، والحرص على انقاذ هذا التضامن من المشاغبين والواقفين بوجه مبادرات انور السادات .

على الحدود بين اليمن الديمقراطية واليمن الشمالية تحركات غير عادية . وكأنما هناك في الشطر الشمالي من دبّر مسبقا هذه الحشود والتحركات ، حتى اتاه خبر اغتيال الغشمي بمثابة ضوء اخضر أو اشارة للتنفيذ .

والحدود بين الجنوب والشمال ليست محصنة . وهي غير قائمة على اساس فواصل جغرافية او طبيعية . والحدود اصلا مصطنعة . والقبائل والعائلات التي تعيش في مناطق قريبة من الحدود تتنقل بشكل طبيعي ودون ان تعرف او دون ان تنتبه كثيرا لوجود هذه الحدود . وهناك ، بالتالي ، امكانية كبيرة لايجاد بلبلة في هذه المناطق . ثم هناك الحدود مع المملكة العربية

السعودية ، وهذه حدود « فالتة » أو « سائبة » وقد استغلت السعودية اكثر من مرة ظروف الارض عند منطقة الربع الخالي فأرسلت المرتزقة والاسلحة الى حدود المحافظتين الخامسة والرابعة للقيام بأعمال التخريب ضد اليمن الديمقراطية . وثوار اليمن الجنوبي كثيرا ما صادروا مثل هذه الاسلحة . وفي مدينة كريتر على مقربة من عدن يقوم متحف لتاريخ الثورة تشغل معظم قاعاته هذه الاسلحة المصادرة من المرتزقة .

وعلى الحدود تقوم السعودية بحشد قوات منذ فترة طويلة . وهي استغلت مقتل الرئيس الحمدي ، في العام ١٩٧٧ لتعلن عن تدابير ضد اليمن الديمقراطي . مع ان الدلائل كلها كانت آنذاك تشير الى الاصابع السعودية في مقتله . فكيف لا تستغل جريمة مثل قتل الرئيس احمد الغشمي في وقت تتجه اصابع الاتهام ضد رئيس اليمن الديمقراطي بالذات ؟

والمعروف ان قاعدة عسكرية اميركية ضخمة تقع على مسافة قريبة من الحدود مع اليمن الديمقراطي في اراضي السعودية . ومعروفة ايضا ، الافكار والمشاريع التي خطط لها دائما التحالف الصهيوني – الاميركي للسيطرة على المواقع الاستراتيجية وابرزها على الاطلاق جزيرة بريم التابعة لليمن الديمقراطية والواقعة عند النقطة الحرجة من باب المندب الذي يربط البحر الاحمر بالمحيط الهندي من جهة وبالقارة الافريقية من جهة ثانية .

كانت الساعة قد قاربت السابعة مساء عندما كنا في مقر رئاسة مجلس الوزراء . حراسة عادية ، مع بعض اليقظة بالنظر الى التهديدات التي اطلقها حكام اليمن الشمالي فاعتبروا محاربة اليمن الديمقراطي جهادا مقدسا . حولنا ، في الغرفة المتواضعة ، مجموعة من الصحف ومجموعة من نشرات الرصد لاذاعات صنعاء والرياض وطهران ومسقط والقاهرة ، وتل ابيب بالطبع . بعد نصف ساعة يحين موعد الاجتماع الذي ستبحث فيه اللجنة المركزية للتنظيم السياسي الموحد – الجبهة القومية في القضايا المتعلقة بالشمال . وعلى رغم الاطمئنان الى معلومات الرفاق بشأن القوى الرجعية الواقفة وراء مقتل الغشمي ، الا ان الرواية التي

سمعتها منهم حول مـدى مسؤولية اليمن الديمقراطي عن العملية ، لـم تكن مقنعة تماما . كان باديـا على وجوههم أن الامور هي أخطر من قضية قتل رئيس لبلد شقيق او بالاحرى للشطر الاخر مـن الوطن . واخطر بكثير مـن الحشود السعودية والشمالية ومـن تهديدات السلطان قـابوس وخطابات الرئيس انور السادات .

هل ان شيئا ما هو غير طبيعي في الجنوب بالذات ؟ واجتماع اللجنة المركزية الذي ينعقد بعـد لحظات ، هل يكتفي بـاصدار بيان آخر يعلن عـدم المسؤولية عما حصل في الشمال ؟

المسألة كانت ، على مـا يبدو ، معقدة . والظروف المحيطة بقصر رئـاسة الجمهورية فضلا عن رئـاسة الوزراء تدل على أن وراء تكتم الرفـاق الغازاً ليس من اللائق لضيف من خارج البلد ان يتدخل في تفاصيلها .

وفي الثانية والربع ليلا ، أفقنا في فندق « ٢٦ سبتمبر » على طلقـات من الرصاص .

نحن في بيروت اصبحنا معتادين على الرصاص . حتى انه من الصعب علينا أن ننام الا بعد ان نستمع الى عشرات من القذائف والصواريخ والرشقات المتوسطة والخفيفة .

ولكـن ، هنا في بلـد متماسك داخليا ومنظّم ، فلا أحـد يحمل سلاحا الا حيثما تقتضي ضرورة الدفـاع عن الوطن والثورة . وبرنـامج التنظيم السياسي الموحـد ـ الجبهة القومية وضع شعار الدفـاع عن الوطن والثورة بصفته المبدأ الاول الـذي عليه قـام التحالف التقدمي في عـام ١٩٧٥ والذي قـام على أساسه الحزب الطليعي في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٨ . لكن مهمات الدفـاع عن الوطن والثورة لا تعني حمل السلاح مـن غير سبب ، او اطـلاق العيارات النارية على سبيل التسلية . الشعب كله اجمالا مسلح ، ولكـن ضمن برنـامج وطني شـامل وضمن مقتضيات التجنيـد والتعبئة والخطة الدفـاعية .

اذن ، مـا الذي يحصل ، وماذا يعني ذلك ؟ من نسأل ؟

الرشقات تتكرر . ونحن في الفندق حـائرون . وكذلـك الجمهور القليل الذي تكـونت منه الباحة الصغيرة عند مـدخل

الفندق . ثـم ، اصوات مدفعية ، ورشاشات متوسطة . . وحوالي الخامسة والنصف صباحا تسمع اصوات طائرات حربية .

ويتضح فورا ، الاتجـاه الذي تدور فيه المعـارك . فالقصف الجوي هدفه منطقة القصر الجمهوري . لكن التساؤل بقي قـائما حول مـا اذا كانت هنالك تدخلات خارجية .

وتتتالى الرشقات . ودوي المدافع . طائرات الـ « ميغ ـ ٢١ » التابعة لسلاح الجو اليمني تتولى قصف منطقة القصر الجمهوري المرة تلو المرة . تنزل مرة من جهة المرفـأ ، الى الشمال ، ومـرة تظهر من بين التلال الغربية الجنوبية . واستمرت الامـور على هذا النحو حتى الخامسة والنصف مساء وعندها تصاعدت من منطقة القصر السنة من النار وغطى الدخـان مجموع البقعة التي كنا ، قبل لحظات ، نسميها مرفأ عدن . والشمس التي كانت تحاول الاقتراب من المغيب غابت هي والافق ولم يعـد هنالك في الاجواء الا اصوات « طيور البحر » التي كانت تخاف كلما نزلت الطائرات الى الارتفاع الذي يسمح لها بتوجيه صواريخها ورشاشاتها الى منطقة القتال . وتحـاول الطيور الهرب فلا يعود لها مكان في الافق الذي استحال حجبا رمـادية .

ووسط هذه الاجواء الحالكة كانت قـد بقيت لنا ، من المطعم الزجاجي الدائري في الطابق الثامن من فندق « ٢٦ سبتمبر » ، فسحة قليلة قليلة هي المسافة بيننا وبين أولى السفن الجـائمة عند قدمي الفندق . ومن هـذه الفسحة كنا نرى عند سطوح الابنية شبابـا يحملون أسلحة ولا يفعلون اي شـيء سوى الوقـوف او الجلوس بأقصى درجة من اليقظة . امـام أعينهم حقل للنظر محدود ولكنه فعـال . وعلى الطرقـات تسير بعض السيارات العسكرية في مهمات سريعة ثـم تختفي .

ثم عرفنا ان هؤلاء الشباب هم من الميليشيا الشعبية . وعرفنا ايضا ان كل واحـد منهم كانت له مهمة . وعـادت بنا الذاكرة الى ايـام الحرب التحريرية عندما استطاعت الجبهة القومية ، رغـم ظروف الحصار العسكري والاعـلامي والعربي ، أن توزع المهمات على النحو الذي يعطي النتيجة المطلوبة في الوقت المطلوب .

وعندما تتوقف أصوات المدافع تقفز الى الذهن التساؤلات والمخاوف . فهل ان هذا الميناء الذي كان محط انظار العالم منذ العصور القديمة ، يشهد مجابهة اخرى مع غزاة آخرين يكملون ، وفي النصف الثاني من القرن العشرين ، تقاليد الغزو الروماني والفارسي والبرتغالي ثم البريطاني لهذه البقعة الجميلة الرابضة عند الشاطىء الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، والفاتحة قلبها للاحرار والشرفاء والثوار ، والغالقة اسوارها بوجه المستعمرين والاشرار واعداء التاريخ ؟!

وشيئا فشيئا ، بدات اشعة الشمس الذابلة تتراءى من البعيد ، مستئذنة السنة الضباب واجراءات الوقاية . ويبدو ، من جديد ، برج المراقبة في مرفا عدن ، والى جانبه بارجتان حربيتان كانتا واقفتين في انتظار اي طارىء . ثم بدات الطبيعة المكفهرة تخلع عنها الثياب الداكنة ، ويتعالى صوت المذيع :

« هنا اذاعة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية من عدن ، اصدرت اللجنة المركزية للتنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية البيان الهام التالي ... »

ويتحلق الحاضرون حول اجهزة الترانزيستور . وتاتي كلمات المذيع واضحة :

« لقد اجتمعت اللجنة المركزية للتنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية اجتماعا استثنائيا مساء يوم الخامس والعشرين من يونيو الجاري لمناقشة وتدارس الاوضاع والتطورات التي حدثت في شمال الوطن . وقد رفض سالم ربيع علي ان يحضر هذا الاجتماع الاستثنائي ، رغم كل الجهود التي بذلها المكتب السياسي لاقناعه (...) واكتفى بارسال استقالته الى اللجنة المركزية عندما شعر بأن اللجنة المركزية سوف تحاسبه على ممارساته وتصرفاته الفردية (...)

« يا جماهير شعبنا المناضلة ،

« ان اللجنة المركزية بعد ان ناقشت واقرت الاستقالة وتجريده من كافة مناصبه الحزبية والرسمية واقرت عددا من الاجراءات المترتبة عليها ، فوجئت بقيام سالم ربيع علي بمحاولة

انقلابية بدأها بقصف مقر اجتماع اللجنة المركزية والاماكن التي بجانبها ، مما حتّم على اللجنة المركزية ـ وهي التي توجه البندقية دائما ـ ان تصدر تعليماتها للمؤسسات العسكرية لحسم الموقف فورا (...) » .

وبعد أن يحيي البيان دور الوحدة القائمة بين المؤسسات العسكرية والجماهير ، فهو يدعو الشعب الى اليقظة ويعلن الحرص على تجنب اي اقتتال بين ابناء شطري اليمن .

بعض الناس فوجئوا كليا بما حدث . بعضهم الاخر كان يتوقع ان تسير الامور في مجرى آخر . لكن العارفين بخفايا ما كان يجري في هذه الجمهورية الفتية التي ورثت عن الاستعمار مجموعة معقدة من المشاكل الداخلية والخارجية ، كان يشعر بأن الصراع الصامت في داخل التنظيم السياسي الموحد وفي داخل السلطة ، سوف ينفجر يوما ما . ولكن ، ربما ، ليس على هذا النحو الدموي . الى أن جاء اغتيال الرئيس الغشمي ليعطي هذه الازمة الداخلية مقاييس جديدة وانعكاسات خطرة .. لم يعد الامر مجرد اتجاه سياسي أو اجتماعي أو نهج معين يمثله رئيس مجلس الرئاسة سالم ربيع علي في اجراءاته الداخلية ، وانما اصبحت الامور على النحو الذي يضع البلاد على شفير الهاوية . فالمبادرة الى قتل الغشمي كان من شأنها ان تتسبب في الاقتتال الاهلي بين جنوب اليمن وشمالها . وكان المستعمرون الجدد في واشنطن وسواها يستعدون لفرك أيديهم من الفرح كلما اقترب موعد الاقتتال الموعود . تماما كما فعلوا في سنة ١٩٦٨ ، بعد الاستقلال السياسي بأشهر قليلة ، عندما شجعوا على الاقتتال ضمن الجبهة القومية التي قادت الكفاح المسلح بين عامي ١٩٦٣ ـ ١٩٦٧ ، وكما فعلوا قبيل الاستقلال عندما شجعوا على الحرب الاهلية بين « جبهة تحرير الجنوب اليمني المحتل » وبين الجبهة القومية ، وفعلوا كل ما يلزم لاطالة هذه الحرب الاهلية محاولين منع الشعب اليمني من تحقيق استقلاله الحقيقي بقيادة القوى الثورية الاكثر تقدما .. الى أن أثبتت الحياة نفسها خطا هذه التوقعات .

ما هي حقيقة ما حصل في تلك الليلة ، ليلة ٢٥ ـ ٢٦

يونيو (حزيران) ١٩٧٨ ؟ ولماذا الرشاشات والمدافع من جديد ، فضلا عن الطائرات ؟ وكيف اصبحت مهمة بناء الحزب الطليعي تمر في فوهة البنادق ؟ والشباب المسلح الذي يحب السلام ويعمل بكل قواه حتى يتحدى صعوبات الطبيعة الشظفة فضلاً عن الفقر والجوع والتشتت والتقاليد البالية ، لماذا اضطر مرة اخرى الى حمل السلاح في معركة داخلية لحسم الصراع بشأن السلطة بالذات ؟

نتزل الى اماكن المعارك ، ولا سيما في منطقة القصر الجمهوري، ويرافقنا قادة من الجيش والشرطة الشعبية والميليشيا ، كما يرافقنا سائق سالم ربيع علي بالذات ، ونكتشف قصة هي من الغرابة الى درجة تجعل فيها الاسطورة متداخلة مع الواقع في كل شيء .

والاسطورة رافقت اليمنيين منذ العصور السحيقة في القدم . منذ أن كان البحث عن العطور واشجار اللبان والمرّ يتداخل ، في قصصه السحرية ، مع اغاني ورقصات البحارة والصيادين عندما يقدمون القرابين الى اله البحر او اله الخصب حتى تأتيهم الغلال وفيرة .

والاسطورة تنتشر امامنا في جولتنا التي شملت جميع مناطق هذه الجمهورية الفتية الواقفة وحدها تقريبا في مواجهة الرياح العاتية ، كما شملت مراحل من الثورة وتاريخها ، والصراعات التي رافقت هذه الثورة بالارتباط مع مجمل الصراع الذي هزّ العالم العربي وانظمته وتياراته واجياله الجديدة .

ونسارع ، منذ الان ، الى القول ان هذا الكتاب لن يكون في وسعه معالجة جميع القضايا السابقة للثورة والمرافقة لها والنابعة منها فضلا عن الواقع الحالي والانجازات والصعوبات وآفاق المستقبل . فثورة غنية ومتشعبة الجذور ومتداخلة مع قضايا الخليج العربي والوطن العربي كله ، هي اغنى من أن يستوعبها كتاب او عدة كتب .

وهذه ، على كل حال ، من الحقائق التي استخلصناها من رحلتنا الشائقة عبر جبل ردفان والضالع وجبل الفحمان ويافع

والعوالق وبيحان وحضرموت وسواها من قلاع الثورة . وهي أيضا الحقيقة التي توصلنا اليها من بين الحقائق الكثيرة التي اتيح لنا الاطلاع عليها في جلسات طويلة مع قادة ومناضلي التنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية ، ولا سيما مع الرفيق الامين العام عبدالفتاح اسماعيل والرفيق علي ناصر محمد ، رئيس مجلس الوزراء الذي تسلّم ايضا مسؤولية رئاسة مجلس الرئاسة بعد فشل محاولة سالم ربيع الانقلابية ، وكذلك مع اعضاء اللجنة المركزية والوزراء الذين اتيحت لنا فرصة التداول المطول معهم رغم انهماكهم في شؤون البلاد المعقدة وابرزها المهمات المطروحة للتنفيذ في عام ١٩٧٨ ، وفي مقدمتها بناء الحزب الطليعي والاعداد لحملة من المبادرات والاحتفالات في ذكرى الثورة في اوكتوبر (تشرين الاول) . واضيفت الى هذه المهمات ، بالطبع ، تفاعلات وآثار المحاولة الانقلابية التي صادف وقوعها اثناء وجودنا في اليمن الديمقراطية ، فكانت الشغل الشاغل لمناضلي التنظيم السياسي الموحد والمنظمات الجماهيرية وجميع الشباب والمواطنين الذين يتحسسون دورهم الصعب والمجيد في هذه المرحلة .

ولعل العودة الى صفحات الثورة ، والى مواقعها واشخاصها ورموزها وقصصها وأخطائها وانتصاراتها ، هي مدخل طبيعي الى ما تعيشه اليوم هذه الارض التي كان يطلق عليها عبارة « اليمن السعيد » مع أن ابناءها كانوا يدركون ان السعادة لا تكون الا ببناء صرح المستقبل حجرا حجرا وتحرير الارض والانسان من عشرات الكوابيس التي لا تزال تشدهما الى الوراء .

وكنا نعرف ، منذ البداية ، بأن الكتابة عن اليمن الديمقراطية في زمن الاعاصير التي تهز منطقة الخليج هي من اصعب ما يعانيه الباحث . ولقد سمعنا كثيرا من الاصدقاء يشدنا الى التريث في الكتابة ريثما تنجلي الامور ويتضح مدى وحجم الصراع بين اليمن الديمقراطية وجيرانها واعدائها . لكن فكرة التريث كانت عقيمة ومنافية لمنطق الحياة . وهدف هذا الكتاب بالذات هو ان يكون مكتوبا من قلب المعركة . وان يكون مرآة متواضعة للحياة المتجددة والمتفاعلة في هذا البلد الذي تشهد أرضه البركانية ذات

اللون الدخاني حمما من البراكين المعاصرة ، بالمعنى السياسي والاجتماعي ، عدا كونه بلد البركان الذي هز مضاجع المستعمرين في سنوات الثورة الاربع ومـا زال اليوم يهز مضاجع المستعمرين الجـدد .

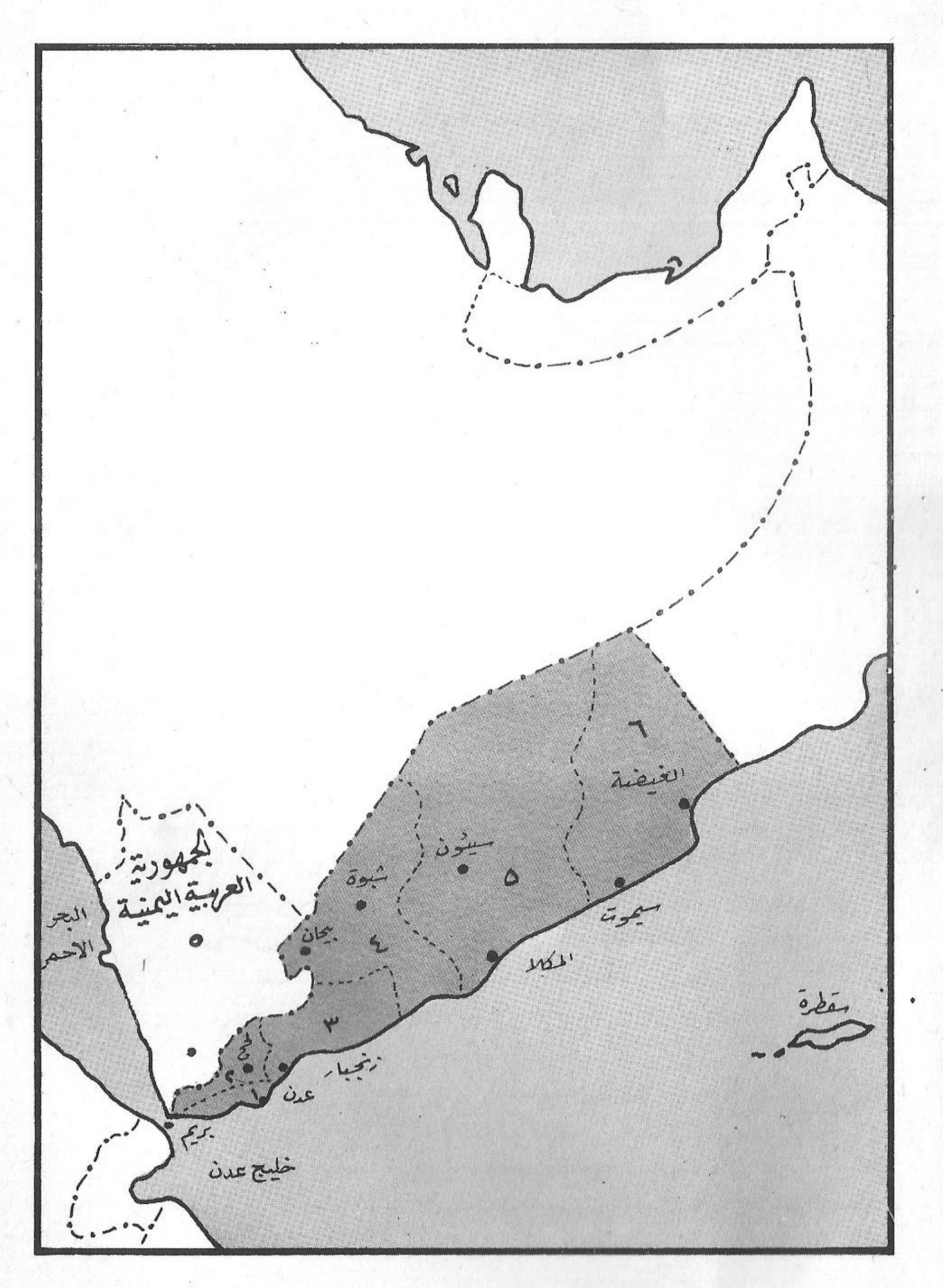
وهل ان الكتابة عن البركان ومن ارض البركان يمكن ان تتوخى السكينة والاستقرار ؟

قبل ان نفتح الصفحات وقبل أن ندخل الى عوالم اليمن في تاريخها وجبالها ورياحها وبنادق ثوارها ومنجزات شعبها ، نفتح قوسين لنقول أن هذا الكتاب قـد لا يصل الى القارىء الا بعـد أن تكون أعاصير جديدة قـد هزت هذه البقعة المتوترة مـن الامة العربية . وقـد يضطر شباب اليمن الشجعان ، قبل وصول هذا الكتاب الى القارىء ، الى تسجيل صفحات بطولية من النوع الذي قـد يحتاج الى صفحات وصفحات من الكتب لتسجيلها . والرفاق الذين اسهموا بالمذكرات والمناقشات التي احتواها هذا الكتاب كان لبعضهم شرف الاستشهاد قبل انجـاز الكتاب . وقد يكون لرفاق آخرين هذا الشرف أيضا . لكن الصفحات تبقى ، وتتعزز . ودماء شهداء اليمن ، كل اليمن ، لا تمحوها أية تشويهات وأية اعتداءات على التاريخ وعلى الجغرافية .

ففي بلـد استطاع رجـاله في العصور القـديمة ان يقيموا ناطحات سحاب بواسطة الطين والتراب فوق ارض وعرة ، وفي بلد استطاع أبناؤه ان يستوردوا السيارات من بلاد السند والهند منذ مطلع القرن الحالي فنقلوها مـن مدينة عـدن الى أعالي حضرموت على ظهور الجمال بعـد تفكيكها قطعة قطعة ثـم أعادوا تركيبها ، وفي بلـد يتولى فيه الصيادون الصغار التعامل يوميا مع سمـك القرش ووحوش البحر ، وفي بلد عجزت فيه اسلحة الجو والبحر والبر البريطانية عن مطـاردة الثوار وأسلحتهـم البسيطة الى ان اعترف قـادة الامبراطورية البريطانية وقادة اليمين العربي بالعجز الكامل عن احباط ثورته ، في هذا البلد الذي تحول فيه الطفل ، حافي القدمين ، الى قنبلة متحركة ضد الظلم والطغيان والاستعمار ، في بلد من هذا النوع لا مكان للخوف على المصير .

وعندما غادرنـا أرض اليمن وشعبها الطيب كان الكثيرون من « أسياد » الامة العربية خائفين من هذا البركان التحرري . وكان أحرار العالم وشرفاؤه خائفين عليه . امـا نحن ، فبعد الاطلاع على عوامل حياته ومشقاته وتجاربه ، فمن حقنا أن نصارح القارىء العربي بأننا عدنـا بروح عالية وبقلب مطمئن ، ونحن على ثقة بـأن أوكتوبر اليمني الذي يحمل هذه السنة اعـلان الحزب الطليعي من طراز جديد ، سوف يحمل في كل سنة قصصا مجيدة تضاف الى اوسمة هذا الشعب .

اذن ، نفتح الصفحات ونبدا الحكاية .



جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

ثورة اليمن الواحد
لا تعترف بالحدود

« اليوم ... دورته دورتان
توحدُنا خطوطُ التواصل
تلاشت خطوطُ التقاطع
لن يصبح الوجهُ وجهين
فالنهرُ يَجمع ينبوعه
يوحّدُ ...
افضل ما في البشر »
(ذو يزن)

نفتح بعض كتب الجغرافيا ونقرأ :

جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية التي كان اسمها جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية لدى فوزها بالاستقلال في عام ١٩٦٧ ، هي دولة تحدّها من الشمال الجمهورية العربية اليمنية والمملكة العربية السعودية ، ومن الجنوب بحر العرب وخليج عدن، ومن الشرق سلطنة « مسقط وعمان » ، ومن الغرب البحر الاحمر الذي يفصلها عن القارة الافريقية . وتبلغ مساحة اليمن الديمقراطية والجزر التابعة لها ١٣٠ الف ميل مربع .

ولكن ، الحقيقة التاريخية للشعب اليمني ترفض هذا التحديد . والتاريخ ، في هذه الارض المتحررة شبرا شبرا من ١٢٨ سنة من الاستعمار والتجزئة والتخلف ، يرفض الحدود المصطنعة بين **دولتين** يمنيتين . وصفحاته ، المشرقة منها والمؤلمة ، ملأى بالدلالات على **هذه الوحدة** .

نفتح احدى **الصفحات** . نقرا سطورها من بين الجراح . ماذا نرى ؟ ماذا **نسمع** ؟ ماذا نستنتج ؟ .

تأسست جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٧ من مستعمرة عدن التي احتلها أسطول انكليزي آتيا من بومباي سنة ١٨٣٩ ، ومن أربع وعشرين ولاية كانت بريطانيا قد اقامت مع حكامها من مشايخ وسلاطين وزعماء قبائل « معاهدات حماية » ، ثم معاهدات « استشارة » بين سنتي ١٩٣٧ و ١٩٥٢ ،وبما يكفل للامبراطورية البريطانية تحويلهم الى ادوات مساعدة لها في حماية ميناء عدن وطرق التجارة الى البحر الاحمر وشرقي افريقيا .

وقد سعى المستشارون الانكليز خلال عشرات السنين الى ابقاء هذه الولايات و « حكامها » الشكليين في تشتت وتناثر ونزاعات قبلية ، الا ان الاستعمار امام مصاعبه الجديدة وازاء قيام حركات التحرر وبزوغ القومية العربية ووضوح أهدافها ، بدل طريقة سيطرته على « جنوب اليمن » ، او « الجنوب العربي » كما كان يقال ، فاتجه الى محاولة تجميع هذه الوحدات السياسية ، باقامة « اتحاد امارات الجنوب العربي » عام ١٩٥٩ ، ثم « اتحاد الجنوب العربي » تمهيدا لدمج مستعمرة عدن أيضا في عام ١٩٦٢ « وقد قوبلت هذه الخطوة هي الاخرى بمعارضة شديدة من القوى الوطنية ، وتمت الموافقة على الدمج بصعوبة قبل قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ في الشمال اليمني ، ولو تأخرت اجراءات الموافقة اياما معدودة لما تمكنت بريطانيا من دمج عدن بالاتحاد » ، على حد تعبير الدكتور احمد عطية المصري في كتابه عن تجربة اليمن الديمقراطية . وكان الهدف من هذا الاتحاد الذي قام بزعامة قبلية وتقليدية « الابقاء على وجود بريطانيا في اليمن الجنوبي وفي عدن بوجه خاص لمواجهة أعبائها والتزاماتها العسكرية على الصعيد العالمي وللدفاع عن مصادر البترول العربي والدفاع عن حلفائها في الجزيرة العربية . وكان عليها من أجل ضمان استمرار وجودها أن تعدل من شكل هذا الوجود ، فتعمل على توحيد المنطقة من أجل منحها الاستقلال الذي تتصوره ... وأن تحاول ان تجعل الاتحاد يقف على قدميه اقتصاديا بسرعة »(١) .. « فالنظم البالية الموجودة ستكون خطرا على

وجودها ما لم تسرع باجراء تحسينات عليها مع الابقاء على جوهرها لمواجهة الوعي المتزايد في المنطقة »(٢) .

ولعل الاستعمار البريطاني لم يكن يعرف انه بازالة الحواجز السياسية والجمركية والقبلية بين الولايات والامارات (وهي الحواجز التي كان يغذيها في السابق ويشجع على ترسيخها) فانما يسهم في حفر قبره بيده . فالثوار الوطنيون المناضلون ضد الاحتلال الانكليزي المباشر لعدن والاحتلال غير المباشر للاقاليم والوحدات السياسية الاخرى ، اخذوا يجدون المزيد من السهولة في الاتصال في ما بينهم . والموج التحرري لم يعد يرتطم بقيود « جغرافية » على نفس القدر من الشراسة . وان تكن القيود الاخرى ، وأبرزها القمع والسجون والحصار فضلا عن تواطؤ الائمة الحاكمين في اليمن الشمالي ، قد ازدادت حدة فاتخذ الصراع وضوحا لم يتخذه من قبل .

الوضوح كان قاطعا وموجة الوعي كانت سريعة الى درجة انه لو تأخرت اجراءات الموافقة على « الاتحاد » المشبوه أياما معدودة لما تمكنت بريطانيا من دمج عدن بالاتحاد . ولكن ثورة ٢٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٢ في اليمن الشمالية قد أعطت « العم سام » ما يكفي من الدروس للاقلاع عن هذه الخطوة .

اذن ، التغيير الحاسم بدأ من الشمال . وكانت قد سبقته انتفاضات متتالية ، تتفاوت في الاهمية ، في الشمال والجنوب معا . والمقاتلون الذين التقيناهم في المناطق التي انطلقت منها ثورة الجنوب في ١٤ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٣ كانوا كلهم يؤكدون لنا ، من خلال وقائع الكفاح المسلح ، انهم لا يفرقون بين جنوب وشمال ، وأن « الحدود » بين « الدولتين » الحاضرتين ليست الا حدودا مصطنعة شأنها شأن الحواجز والمراكز الجمركية التي

(1) Johnston C., «The View from Steamer Point», Collins, London 1964, pp. 161-162.

(٢) انظر كتاب الدكتور احمد عطية المصري « تجربة اليمن الديمقراطية ، ١٩٥٠ – ١٩٧٢ » ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص٨٨ – ٨٩ .

كانت تقوم ضمن مناطق الجنوب بين ولاية سلطان معين وامارة شيخ أو امير معين .. وهو ما سوف نرى نماذج مدهشة منه لدى الخوض في غمار معارك هؤلاء الشجعان الذين اعادوا الى نفوسنا ، في ردفان والضالع ودثينة والفضلي والحوشبي وحضرموت وغيرها ، بعضا من الثقة في أن الامة العربية سوف تجد طريقها الى الوحدة ، طالما أن هناك ثوارا يخفق في قلوبهم وفي بنادقهم نبض الانتصار على الحواجز وعلى الضعف والتجزئة .

وقصة اليمنيين مع الوحدة تكاد تختصر قصة اليمن وتاريخها . وقليلة هي الشعوب التي حافظت على هذه الدرجة العالية من المناعة تجاه مشاريع التجزئة .

هذا يبرز في كل نقاش مع الرفاق المسؤولين في التنظيم السياسي الموحد ــ الجبهة القومية(٣) . ويبرز لدى كل مقارنة مع تجارب الشعوب الاخرى التي تعرضت للتجزئة او التقسيم في رظوف تاريخية معينة .

على سبيل المثال ــ كما قال لنا أحد قادة اليمن الديمقراطية ــ فان حالنا في اليمن تختلف عن حال المانيا مثلا . ففي المانيا تكونت ، على الصعيد العملي ، أمتان : امة راسمالية وأمة اشتراكية . والناس اعتادت على ذلك . أما نحن فلسنا امتين . بل أننا لا نشكل أمة بالمعنى الحقيقي ، حتى لو توحَّد اليمن . فنحن جزء من الامة العربية . وليس واردا ، بالنسبة لثوار اليمن وبالنسبة للمواطن العادي ، ان « يعتاد » على التجزئة او أن يعمل لترسيخها . وهذا ما نأخذه بعين الاعتبار لدى البحث في البرامج الطويلة الاجل . في السياسة كما في الاقتصاد . في الشؤون الاجتماعيه كما في التربية والتعليم . نحن نحتاج ، على سبيل المثال ، الى أكثر من مئة ألف عامل وتقني حتى نقوم بعملية البناء وننفذ الخطط

---

(٣) وهو التنظيم الذي يقود الحياة السياسية في اليمن الديمقراطية ، وقد اتخذ صفة التنظيم « الموحد » لدى اعلان الاتفاق التاريخي في ٥ فبراير (شباط) ١٩٧٥ بين « التنظيم السياسي ــ الجبهة القومية » التي قادت الكفاح المسلح ضد الانكليز (١٩٦٣ ــ ١٩٦٧) وبين التنظيمين التقدميين اللذين لعبا دورا بارزا في هذا المجال ، وهما : الاتحاد الشعبي الديمقراطي ، وحزب الطليعة الشعبية .

الراهنة . وقسم من المشاريع متوقف أو شبه متوقف بسبب عدم وجود اليد العاملة . في الوقت الذي يعاني الشطر الشمالي من اليمن من بطالة شديدة ، والالوف المتزايدة من العمال تنتظر من يشغِّلها . تصوّر ماذا كنا حققنا لو كان هناك سلطة واحدة أو تكامل اقتصادي وانمائي بين الشمال والجنوب . هذا عدا عن المرافىء وضرورات التنسيق في ما بينها . وعدا عن الزراعة والري .

وكلام المسؤول اليمني يلقى تعبيره الحي لدى التجوال في جميع انحاء البلاد ، ولدى الاطلاع على مرافقها والمناقشة مع المواطنين ومع القطاعات الشعبية .

والطبيعة أعطت الشمال من الخصب ما لم تعطه للجنوب . ولا سيما خلال العقود الاخيرة من السنين حيث تدنت نسبة الامطار في اليمن الجنوبية وشهدت الارياف في معظمها وعورة وقسوة . وزاد في الطين بلة ، ان البلاد في ظل هيمنة المستعمرين الانكليز وفي ظل السلطنات الصغيرة والولايات المتناثرة لم تكن تعرف ماذا تعني كلمة مشروع زراعي او مخطط للري .. وفي الشمال ظلت الامامة مسيطرة ، في كل ما تعنيه من ضعف وتخلف وقهقرة ، وكانت الثروات القليلة المستغلة من أرض اليمن ، في شمالها وجنوبها ، تذهب الى خزائن الامام ونفر من الاقطاعيين بعد اقتطاع « حصة الاسد » للاحتكارات البريطانية و « المستشارين » الانكليز في الجنوب ، وبعد أن تكون النزاعات القبلية والدينية التي غذاها المستعمرون قد استنفدت كل امكانية لخروج البلاد اليمنية من انكفائها وعزلتها حتى من الوجهة التجارية ، في غياب أية مؤسسات اقتصادية ومالية فيما عدا ميناء عدن وبالتالي مصافي النفط ، في الجنوب ، و « المصرف الاهلي التجاري اليمني » في اليمن الشمالي والذي كان يستخدم نقدا معدنيا من الفضة دخل البلاد مع دخول نابوليون الى مصر والمنطقة في سنة ١٧٩٨م . وكان نظام الامامة يجعل الامام في قمة « الهرم » الاقطاعي ، يأتي بعده « السادة » ويملكون الاراضي الجيدة ويسيطرون على الادارة ، ثم زعماء القبائل ، المشايخ ، وتتفاوت

قوتهم بحسب حجم قبائلهم وقـوتها ، وكانت مواقعهم في أغلبها وراثية ، في الادارة المحلية وفي جمع الضرائب . وبعـد المشايخ يأتي التجار وحرفيو المـدن ، ثـم الفلاحون الفقراء وهم السواد الاعظم من السكان ويعيشون في الجهل والمرض والبطالة والاساطير القبلية والدينية . وفي أسفل الهرم توجد فئتان : العبيد ومعظمهم خـدم محليون للاغنياء ، ومجموعة خـدم أخرى يبلغ عددها ٥٠ ألف نسمة وتتحدر من المهاجرين الاثيوبيين القدامى .

وقد قـال لنا المؤرخ اليمني الكبير محمد عبدالقادر بامطرف ، في لقاء طويل معه في مدينته « المكلا » ، ان هذه الطبقة الاخيرة مـن الخـدم كانت تسمى « الصبيان » وتعيش في أدنى مـراتب السلّم الاجتماعي وحالها اكثر تقهقرا من أحوال العبيد بالـذات . ويضيف بـأن عدة طبقات كانت قـد تحددت في الجنوب ، ولا سيما في منطقة حضرموت ذات الحضارة التاريخية العريقة ، وهي : العلويون ويشكلون طبقة « السادة » ، فالمشايخ ، فزعماء القبائل وحملة السلاح ، ثـم الحضر (أي الناس العـاديين العزل مـن السلاح) ، ثـم العبيد ، وبعـدهم يأتي « الصبيان » وهم مـن الاحباش ولا يحق لهم أي شـيء في الحياة ، فلا يحق لهـم حتى ان يسخروا أنفسهم ويحملـوا السلاح لصالح احـدى الزعـامتين الاقطاعيتين في المنطقة وهما السلطان القعيطي والسلطان الكثيري ، الخ . وذلـك مع أن جدودهم الاحباش كانوا ملاكين كبارا فـي اليمن قبل ذلـك بعـدة قرون(٤) .

وطوال أجيـال كـاملة حرص المستعمرون على الابقـاء على التشتت القبلي والنزاع الديني ، حفاظا على التخلف الاجتماعي من جهة ، وخوفـا من تنامي الوعي السياسي في الجزيرة العربية .

ويجـد بعض المفكرين جذورا اجتماعية للصراع الذي دار بين الزيديين والشافعيين مثلا . فهو يعكس ـ على حـد تعبير بعض

(٤) وسنرى في مكـان آخر ، ولـدى عرض ومناقشة الاحاديث التي أجريناها مع كبار المطلعين ولا سيما مع الاستاذ بامطرف ، كيف كانت الحياة السياسية في الجنوب ولا سيما في المناطق الريفية تتأرجح بين الاقطاعات والقبائل المتنافرة، وكيف أن التخلف والفقر استمرا ، في أنحـاء الجنوب ، على الرغم مـن « الازدهار » النسبي الذي شهدته عـدن (الميناء) .

المفكرين ـ انقسامات اجتماعية واقتصادية . فالقبائل « الجبلية » كانت تقطن الاراضي الفقيرة ، وكـانت تشن الغـارات على المـدن والمناطق الساحلية (الشافعية) . كما أن الخلافات الدينية عكست الصراع بـين زعماء القبائل في هاتين المنطقتين ، الذين تنافسوا للسيطرة والاستيلاء على الفائض التجاري والزراعي المحدود . وقد انقسمت المنطقة الشمالية من اليمن الى منطقة زيدية في الشمال مركزها بلـدة سدع ، ومنطقة شـافعية مركزها سهل تهـامة . وفـي القرن الثالث عشر سيطرت سلالـة الرسولي (١٢٣٢ ـ ١٤٥٤م) على المنطقة التي تمتد عبر تهامة وعـدن والمنطقة المعروفة حاليا بـاسم ظفار ، وسقط حكم الرسوليين فـي القرن الخامس عشر ، وظهـر مـوحّد آخر بعـد فترة طويلة ، هو العثمانيون الذين احتلوا تعز ، العام ١٥٤٥م ، وسيطروا على السهول اليمنية وعـدن ولكنهم ارتدوا خائبين أمـام المناطق الجبلية وعجزوا عـن اخضاعها بشكل حـاسم . وقد غـادر العثمانيون اليمن العـام ١٦٣٦م ، واثر ذلـك نزل الامـام الزيدي مـن الجبال الشمالية واحتل صنعاء ووحّد الجبال والسهل في دولة واحـدة ، واتخذ من صنعاء عاصمة له ، وامتدت سلطته الى عـدن . ودامت الاحوال على هذا المنوال الى حين تمردت لحج العام ١٧٢٨م وانفصلت عنه . وكان ذلـك أصل الانقسام بين اليمن الشمالي والجنوبي الـذي فـرضته التأثـيرات الامبريـالية والبنى الطبقية المختلفة والـذي استمر الى يومنا هذا .

ويضيف المؤرخون ان الامـام عمد الى احكام سيطرته على ما تبقى من مملكته فعزز أوضاعه الاقتصادية بتنمية صادرات البن الى أوروبـا .. الى أن جـاءت جيوش حاكم مصر محمد علي ، الى الجزيرة العربية وبعـدها الاحتلال البريطاني لعـدن ولمقاطعة لحج في سنة ١٨٣٩م ، وبعدها عـاد العثمانيون الى احتلال صنعاء بعد غياب عنها استمر ثلاثة قرون ، فحـاولوا هـذه المرة « احتواء » القبائل الزيدية بدون استخدام القوة ، لكنهم قوبلوا بمجابهة مـن جانب عائلة حميد الدين الزيدية وزعيمها الامـام محمد بن يحيى الذي اعتلى « الامامة » في سنة ١٨٩١م ، كما واجههم ابنه الامـام

محمد ، بعد وفاة أبيه في سنة ١٩٠٤م ، فشن هجوما على الاتراك وطردهم من صنعاء ، « وبرغم انهم اعادوا احتلالها ، الا انهم أجبروا على عقد اتفاق مع يحيى ، العام ١٩١١ ، اعترفوا بموجبه به كزعيم للطائفة الزيدية وبحقه بجمع الضرائب وتعيين الحكام والقضاة وتلقى معونات سنوية من الحكومة العثمانية .

والواقع ان الاتفاق قسّم اليمن مجددا الى منطقتين شافعية وزيدية حيث يحكم الامام في الجبال والعثمانيون في السهول التي يقطنها الشافعيون . وحين هزم الاتراك في الحرب العالمية الاولى واضطروا الى الانسحاب من شمال اليمن وشبه الجزيرة العربية برمتها ، بات الامام في موقع يمكنه من استعادة سيطرته على المناطق الشافعية وتوحيد المنطقتين في ما اصبح يعرف اليوم باسم « اليمن الشمالي » .

ومن يومها حرص المستعمرون الانكليز ، في ظل احتلالهم المستمر لعدن وجزء من المنطقة على تشجيع الدويلات التي قامت أو كانت قائمة بزعامة سلاطين وحكام ورؤساء قبائل ، على امتداد ما كان يعرف باسم « الجنوب » أو « الجنوب العربي » .

غير ان التاريخ المشترك ، والتداخل الدائم بين الشمال والجنوب ، كان دافعا دائما الى شد أواصر العلاقة بين الوطنيين في عدن والولايات المبعثرة من جهة وفي اليمن الشمالي من جهة ثانية .

وعندما كان الامام يتسلم الحكم في الشمال ، ولا سيما الامام يحيى (١٩٠٤ — ١٩٤٨م) والامام أحمد (١٩٤٨ — ١٩٦٢م) كان يعلن ان هدفه الاول هو تحرير الجنوب من الاستعمار الانكليزي . وتحت هذا الشعار كان الامام يأخذ « شعبية » معينة يغطي بها مجمل سياسته القائمة على تكريس التخلف والتبعية للغرب فضلا عن التعصب الديني والقبلي . كما كان يغطي الحقيقة التي مفادها أن صراع الامام مع الانكليز كانت تحكمه التوازنات المحلية ومدى رغبة المملكة العربية السعودية مثلا في أخذ استقلالية معينة ضمن اطار توزيع القوى أو تنافر المصالح المؤقت مع الاستعمار الانكليزي .

ومرت الايام . ومع نشوء « اتحاد الجنوب العربي » بدأت « تتحلحل » الامور ، اذا صح التعبير ، وتتقلص الحواجز الجمركية بين الاقاليم ، وكان ذلك النهج الاستعماري يحمل في حد ذاته بوادر حفر قبر الوجود الاستعماري في المنطقة . وعندما كانت أعمال التمرد تقوم ، ضد الاقطاع والرجعية المحلية وضد الانكليز ، كانت قوافل الثوار تشق طريقها في الخفاء وفي العلن ، عبر الاسلاك وعبر الحدود المصطنعة .

وقد أخبرنا الثوار الذين التقيناهم في مواقع ثورة ١٤ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٣ ، ان عددا كبيرا منهم كانوا قد توجهوا الى الشمال في ٢٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٢ عندما قامت ثورة الشمال الوطنية ضد الامام البدر .

ذهبوا من غير استئذان . ومن غير تردد . ومن غير أن يحدقوا في أماكن « الحدود » . لقد أدركوا بأن تحرير الجنوب يمر من خلال اقامة حكم وطني في الشمال . الوعود التي كان الامام يقدمها الى ثوار الجنوب لم تعد تكفي . فالمطلوب هو وضع طاقات الشعب في الشمال بتصرف معركة تحرير الجنوب .

وهكذا كان . وانطلقت قوافل الثوار ، مرة أخرى ، دعما لثورة الجنوب ولمقاتلي « الجبهة القومية » الذين اطلقوا في ١٤ اكتوبر (تشرين الاول) الرصاصات الحاسمة من جبال ردفان ومن منطقة الضالع .

لكن الظروف عادت وتغيرت . وحدثت في اليمن الشمالي ملابسات كثيرة . والثورة الشمالية التي كانت السند الاساسي للجنوبيين وحامية ظهرهم ، تعرضت الى ردات مختلفة ، ولأسباب كثيرة ، بعضها يرتبط بطبيعة القوى التي اندمجت أو اختلطت بالدعم المصري لحكم الرئيس عبدالله السلال . وبعضها الاخر ينطلق من طبيعة عمل المخابرات المصرية . الى أن أصبح الوضع معاكسا للمنطق التحرري الذي سيطر بعد حركة ٢٦ سبتمبر . لقد اصبح الحكم الوطني في الجنوب ، بعد قيام الاستقلال في عام ١٩٦٧م ، هو السند للوطنيين الشماليين ، أما الجنوبيون فلم يعد لهم دولة مجاورة تقدم لهم الدعم . لقد أصبح « ظهرهم »

هو حركة الثورة العالمية والجماهير العربية « غير الحاكمة » .

ومن الامثلة على الدعم الجنوبي لثوار الشمال في صيانة مكاسبهم ومنع الارتداد الرجعي ، ان أكثر من ٦٠٠ متطوع من الجبهة القومية في الجنوب ذهبوا يدافعون عن صنعاء في عام ١٩٦٧ بالذات ، على اثر اسقاط الرئيس السلال وقيام حكومة الارياني والعمري ، وذلك في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ التي أدت ، في ما أدت اليه الى سحب قوات مصر من اليمن الشمالي ، والاضطرار للوقوف موقف التساهل مع المملكة العربية السعودية بالنظر الى الضائقة المالية العنيفة والخراب الاقتصادي في مصر .. فكان مؤتمر الخرطوم في آب (اغسطس) ١٩٦٧ ، وكان أن اقيمت حكومة الارياني بعد ان اقيل السلال وعندها اغتنمت المملكة العربية السعودية هذه التنازلات ، فضلا عن أجواء نكسة حزيران (يونيو) ، فقام هجوم عنيف من قبل غلاة الملكيين بقيادة عم الامام محمد بن حسين ، الذي أعلن ان لديه خمسة آلاف جندي خارج صنعاء وخمسين ألف مسلح قبلي قرب العاصمة . فقام بتطويق المدينة ، وقام دفاع بطولي عن صنعاء شارك فيه متطوعو الجبهة القومية الوافدون من الجنوب ، فضلا عن قوات المقاومة الشعبية في اليمن الشمالي التي قامت بالدفاع عن قلب المدينة .

وفشل حصار صنعاء لأسباب عديدة ، ومنها المقاومة الشعبية المنظمة والدعم السوفياتي البالغ القوة عبر الاراضي المصرية ، واضطرار السعوديين الى التخفيف من دعمهم للقبائل وذلك بضغط من الرئيس جمال عبدالناصر .

وكان لهذه المجابهة فائدة كبيرة من الناحية السياسية والتنظيمية . مع ان الفائدة المباشرة في مجال حسم قضية السلطة ، لم تكن عند الامال التي وضعت بشأنها . فالجمهوريون القبليون ، بقيادة العمري والمشايخ ، سيطروا على الوضع .

لقد نشأت ، أثناء الحصار على صنعاء ، علاقات عسكرية وتنظيمية بين حركة القوميين العرب في الشمال وبين الجبهة القومية في الجنوب . وهما التياران اللذان سيأتي عليهما الحديث مطولاً . ونلاحظ ، منذ الان ، التوازي بين الردة الرجعية في اليمن

الشمالي عام ١٩٦٨م حيث قامت حملة عنيفة ضد القوى التقدمية أدت الى انتصار قبائل عبدالله الاحمر وسحق المقاومة الشعبية ، وبين الردة الرجعية التي قامت في الجنوب بالذات بزعامة قحطان الشعبي قائد الجناح اليميني في الجبهة القومية والذي قام بحركة ٢٠ مارس (آذار) ١٩٦٨ لمنع تطور اليمن الجنوبية على أساس اقتصادي واجتماعي وسياسي جديد .

لكن اليمن الجنوبية استمرت في ثورتها وانتصر الجناح التقدمي ونهجه الجذري بفضل انتفاضة ١٩٦٩ ، وسلك طريقا مغايرا للنهج الرأسمالي وخرج من دائرة التبعية ومن سيطرة النزاعات القبلية ونفوذ الرجعية الخليجية . في حين ترسخت في الشمال التبعية الكاملة للمملكة العربية السعودية وسواها من الرجعيات العربية . وعادت الامبريالية الى لعبة قذرة وقديمة مفادها تحريض أبناء الشمال على أبناء الجنوب ، وتحريك موجة من التعصب القبلي في الشمال ، علّ ذلك يتيح للامبريالية تحويل نظام اليمن الشمالي الى بؤرة للهيمنة الاقتصادية والسياسية على الشعب اليمني كله .

والصراع أخذ أشكالا عديدة . وكان أبناء اليمن الوطنيون يحاولون دائما ايضاح مخاطر الانجرار مع هذه الدعوات الرجعية . كانوا دائما يقولون للناس ان المستعمرين الذين خرجوا من الباب يدخلون اليوم من النوافذ ، وربما من السقف بعد تهديم بيتنا الواحد ، وان أثرياء الجزيرة العربية يريدون تكريس الفقر في شمال اليمن وجنوبها حتى يظل الانسان اليمني باحثا عن لقمة العيش تحت موائدهم ، وأن الانسياق مع الروح القبلية والنزاعات المحلية سيؤدي الى اقتتال ليس من مصلحة أحد .

والمؤسف ان الرجعية السعودية وجدت أدوات لها ليس في اليمن الشمالي وحده ، وانما في اليمن الجنوبي أيضا ، وفي سنة ١٩٧٨ بالذات ، أن يخوض معركة مسلحة استمرت سبع عشرة وتسع سنوات على الحركة التصحيحية التي فتحت طريق التحويل التقدمي للبلاد .

وكان لا بد للشباب المسلح في اليمن الجنوبي ، وفي سنة

١٩٧٨ بالذات ، أن يخوض معركة مسلحة استمرت سبع عشرة ساعة في عدن ويومين ونصف اليوم في زنجبار ، وذلك لقمع محاولة من داخل السلطة الوطنية في اليمن الجنوبي لافتعال الاقتتال مع الشمال ولضرب مسيرة الثورة في الجنوب جنبا الى جنب مع تصفية الحركة الوطنية والديمقراطية في الشمال نفسها .

وهذا كله دلالة جديدة على مدى عمق الارتباط ، في جماهير الشعب اليمني ، بين قضية التحرر وقضية الوحدة .

وهذا كله دلالة جديدة على مدى عمق الارتباط ، في سياسة الرجعية والامبريالية ، بين مهمة سحق التحرر ومهمة سحق الوحدة .

والقصة ، في الجانبين وفي الوجهين ، طويلة . ومؤلمة . ومجيدة .

غضب الجبال والسواحل ينهمر على المستعمرة

« هذا هو الجلاء
فلتكتبوا على النجوم ... في السماء
قصته
قصة زحفنا الطويل
لتكتبوا قصة كل الشهداء
لتحفروا على صحائف الاحداق ..
في القلوب
حكاية الابطال في الجنوب
لكي تمدنا بالحب والضياء
لكي تظل في حياتنا ... أغنية انتصار »

(عبدالعزيز المقالح)

من أين تبدأ القصة ؟

مطار عدن . منتصف الليل . رياح أكتوبر لم تصل بعد . الحرارة شديدة . وبداية النهاية تقترب .

الانكليز . الثورة . البركان .

ـ انفجار . انتبه ! نحن هنا في أرض بركانية . انظر الى هذه الديار . الارض البركانية .. ألم ترها من الطائرة ؟ الانكليز لم يروا ذلك . كان ذهنهم منصرفا الى البن واللبان والمر ، والى فتح طريق المستعمرات .

ـ لقد أعماهم الطمع والغطرسة (يقول أحد الثوار) . انهم اعتقدوا أن امبراطوريتهم هي الشمس المشرقة الى الابد !

مطار عدن . العاشر من ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٣م . قنبلة تنفجر في المطار . قنبلة في قلب المستعمرة . في الحصن

المنيع للقوات البريطانية . العمل الفدائي اخترق جدران المستعمرة. ميناء عدن لن يكون أرضا انكليزية معزولة عن أرض اليمن . جريدة « الجمهورية » في القاهرة تكتب : الانفجار يعتبر بداية النهاية للاستعمار البريطاني .

عندما انطلقت ثورة ١٤ اكتوبر ١٩٦٣ لم يكن الانكليز يدركون بأنها ستصل الى قلاعهم بصورة مباشرة . والثوار انفسهم ، كانوا يعدّون للعشرة وللمائة قبل التفكير بالانطلاق الى عدن . بالطبع ، الاعمال المسلحة في اعالي الجبال الوعرة ليست بالامر السهل . لكن هؤلاء الثوار اكتسبوا مناعة ضد الصخور السوداء . أصبحوا جزءا من الصخر . استفادوا من شظف الطبيعة في حربهم مع المستعمر . والتحليق الى القمم اصبح مهنة يومية لديهم . ولكن ، في مدينة عدن ليس هناك قمم ، وان كانت التلال تحيط بالمدينة او تتداخل معها . وثمة جيش من الاساطيل يحيط بالمدينة. والتدابير الامنية على أقصى ما يكون من الحذر .

وعندما يجلس عبدالفتاح اسماعيل ، الامين العام للتنظيم السياسي الذي قاد الثورة المسلحة ، ويتذكر ، فهو يبدأ من هذه النقطة بالذات . فيقول ، في جلسة طويلة جمعتنا به رغم انهماكه في معالجة مرحلة مصيرية من حياة اليمن الديمقراطي :

كانت عدن قاعدة منيعة ، ويسهل على القوات الانكليزية أن تغلقها وتسيطر على كل نقطة فيها خلال دقائق . لكننا كنا نقول للناس ان كل جبروت بريطانيا لن يؤثر علينا . وقد غيرنا القيادة الاولى في معظمها وأعدنا تركيب العمل الفدائي وسلّحنا الشباب بوعي سياسي أقوى . وكنا على ثقة ، وخصوصا بعد انتصاراتنا في أعالي الجبال وفي المناطق الوعرة والارياف ، انه اذا استطعنا نقل العمل الفدائي الى مستعمرة عدن فسوف نحدث تغييرا كبيرا في نسبة القوى . والهدوء الذي كان يعيشه الانكليز فضلا عن التعتيم الاعلامي على عملياتنا الكبيرة في الجبال ، كان يجعل من الرأي العام في الخارج ضحية الدعاية القائلة ان المنطقة

« المزدهرة » (عدن وضواحيها) هي جنة انكليزية لا تتأثر بـ « الشغب » الداخلي .

ويتحدث الرفيق عبدالفتاح عن التنظيم . في الاساس كان تنظيم حركة القوميين العرب يقوم على العمل الحزبي المركّز . وذلك منذ نشطت هذه الحركة في سنة ١٩٥٩م . ومع أن الموقف الطبقي لم يكن واضحا ، وكذلك الموقف الايديولوجي ، الا أن التجربة التنظيمية كانت على مستوى جعلنا نستفيد من قدرتنا على التكيف مع المهمات الجديدة . لكن البداية كانت صعبة بالنسبة الى مقاتلينا لدى نزولهم من الريف الى المدينة . والمشكلة اننا كنا من جهة نحتاج الى التكتم والعمليات « المحصورة » بالنظر الى قوة المخابرات ، ونحتاج في نفس الوقت الى عملية باهرة أو أكثر ومن النوع الذي يحدث دويا وارتباكا في صفوف الانكليز وسواهم .

أما كيف نوفر بين المسألتين ، فذلك اكتسبناه بالتجربة . نقاط التفتيش ، الاسلاك الشائكة ، القوى العسكرية الانكليزية الضخمة ، كلها لم تمنع مقاتلينا من اختراق الصفوف . وكان هجومنا على منازل الضباط الانكليز وأنديتهم ، فقتلنا وجرحنا عشرات من الضباط والجنود وذلك في مطلع سنة ١٩٦٤م . ومما ساعدنا على ذلك ، اننا كنا نعرف كل شاردة وواردة في مدينة عدن وفي عدن الصغرى التي تحتوي بشكل أساسي على المصافي البترولية . وعمال المصافي كانوا قبل سنوات طويلة قد اكتسبوا خبرة نضالية متنوعة . وأذكر يوما انه عندما قتلنا مجموعة من قادة المخابرات ، ومنهم رئيس جهاز المخابرات بالذات ، دبّ الفزع في صفوف قوات الاحتلال واضطرت الى تخفيف الملاحقة ضدنا . وكان مسؤول المخابرات ، مستر بيري ، يعرف تماما نشاطنا في المصفاة وفي المؤسسات العمالية . ولم يفاجأ عندما اكتشف ان القائمين بالعمليات المسلحة هم أنفسهم أولئك « المشاغبون » الذين أضربوا عن الطعام لمدة سبعين يوما في المصفاة مثلا ، في عام ١٩٦٠م . وكانت لديهم صورنا ، وبينها صورتي . وكنت يومها عاملا في قسم تشغيل الماكينات في مصافي

عدن . وقد توفرت لي متابعة الدراسة في المعهد الفني ، وذلك بناء على تشجيع ادارة الشركة حتى نتعلم كيفية العمل على الماكينات الجديدة . وكان ذلك مفيدا لي ، لانني لم أكن قد أكملت دراستي الثانوية نظرا لاضطراري الى العمل لتأمين معيشتي. كما استفدت كثيرا في مجال الاضرابات والعمل السياسي . وحاول المشرفون الانكليز على المصافي شراء بعض المسؤولين اليمنيين عن قطاعات العمل كما حاولوا الضغط على العمال أو اغراءهم ، ففشلوا في الحالين . وعندما استمر الاضراب جاء رجال الشرطة وطوقوا المكان . واعتقلوا عددا كبيرا وكنت بينهم .

وعندما قامت العمليات المسلحة في المدينة عام ١٩٦٤ ، أخذ بيري الصور المتعلقة بالاضراب ، والمحفوظة من عام ١٩٦٠ ، وأشار الى صورتي وقال لمرافقيه : انني أتذكر هذا الوجه . كان يشارك بأعمال الشغب وكان نقابيا . .

ولم يمض وقت طويل حتى استطاع ثوارنا تصفية مستر بيري نفسه . الملاحقات استمرت ، وبشدة هذه المرة ، واتخذنا في التنظيم وفي قيادة الفدائيين تدابير عديدة . وكنت مضطرا للاختفاء من عدن والقيام بالنشاط العسكري في مدن وأرياف مختلفة .

ثم يتحدث الامين العام عن أشكال التمويه التي استخدمها الثوار في أعمالهم ولا سيما في المدن . تغيير أرقام السيارات ، استخدام لباس رسمي أحيانا ، اخفاء كل معالم العملية بعد تنفيذها ، ضرب رجال المخابرات المحليين ليكونوا عبرة لكل من يتعامل مع الانكليز .. وهو يتذكر هذه الحادثة النموذجية : كان أحد أبرز العملاء اسمه فضل خليل . قمنا بالعملية في مكان يقع وسط مدينة كريتر ، بين التلال المشرفة على عدن ، وكان العميل قد اعتاد ارتياد مكان مزدحم بالناس . وكما اقتضت الخطة وصلت السيارة برقم مزيف ، وأفرغ الفدائيون رشاشاتهم في جسده . فدبّت الفوضى في الناس ، وتحرك حب الاستطلاع فيهم لمطالعة وجوه الفدائيين ، مما اضطر هؤلاء الى تفجير قنبلة دخانية

حتى يخفوا انسحابهم . فتبعثر الناس ، اما هاربين أو منبطحين أرضا ، اذ ظنوا أن القنبلة قاتلة(١) .

(١) ونعرض بمكان آخر من الكتاب أحاديث ولقاءات مع عبدالفتاح اسماعيل بشأن تقييمه لتجربة تطور الثورة في اليمن الديمقراطي ، ومسألة الانتقال من النهج القومي المحدود والضيق الافق ، الى التبني الكامل للفكر الاشتراكي العلمي سلاحا للنضال وللبناء ، وكيف أسهمت الجهود المشتركة من قبل الوطنيين والتقدميين في الوصول الى صيغة متطورة لقيادة البلاد بعد انتصار الحركة التصحيحية في عام ١٩٦٩ ، وكذلك المهمات الجديدة المتعلقة ببناء الحزب الطليعي .

خدعة استمرت ١٢٨ سنة

« الامن في عـدن سيبقى ويستمر طـالما ان بريطـانيا تظل عظمى » ..

(توم هكنيوثام ، حاكم عدن خلال الفترة ١٩٥٠ – ١٩٥٦ ، في مذكراته الصادرة بكتاب « عدن » ، ١٩٦٤) .

أعمـدة صخرية عالية تشدك لـدى الوصول الى « عـدن الصغرى » ، وهي الجزيرة التي تكـاد تكون ملاصقة لشقيقتها « الكبرى » عـاصمة اليمن الديمقراطية .

تقترب من بعض شاطئها وتدخل في بقعة شبه رملية عليها آثـار من بركان قديم ، واذا أنت أمـام خشوع مفاجىء يتسرب الى ذهنك من غير استئذان .

رهط من الصخور وقف في صف نصف دائري . وأمام التلال الصغيرة المسننة ، السوداء اللون مثل كل التراب البركاني المهيمن على المنطقة ، تقـوم فسحة مـن الارض مسورة بشريط شـائك وكتابات . وفي المنتصف ، مرتفع صغير تحتضنه التلال الصخرية التي تحجب عن الانظـار ما بقي من شمس المغيب . ويرتفع صليب في الوسط . ويقوم ذات اليمين وذات اليسار بعض مـن الانصاب التذكارية .

هنا يرقـد الجنود الانكليز الذين حكموا طوال ١٢٨ سنة مـا كانوا يطلقون عليه اسـم « الجنوب اليمْني » .

أمواج البحر لا تصل الى مكـان هـذه القبور . ولا تخترق الاسلاك ولا عبارة « ممنوع الكـلام » و « ممنوع التدخين » . لكن أمواج الذاكرة ، ذاكرة الشعوب ، تصل اليها ولا تبالي بالممنوعات .

تحت هذا الصليب ، الـذي اختار لـه المهندسون الانكليز الاذكياء « ديكـورا » طبيعيا ، يرقـد ، في اطمئنان زائف ، مئة وثمان وعشرون سنة من عمر هذا « الجنوب » .

ليست هي المرة الاولى ، ولا المكـان الوحيد الذي يرقـد فيه تاريخ المستعمرين تحت كنف الصليب . وليست هي المرة الاولى ، ولا المكان الوحيد ، حيث يسعى مهندسو الاستعمار الى تشويه مقـدسات الشعوب .

أنظر . من هنا جـاء الانكليز .

أنظر . من هنا جـاء الثوار .

السبت ١٩ يناير (كانون الثاني) ١٨٣٩م . ثلاثة مراكب حربية انكليزيـة تقترب مـن الميناء . المهمة مقـدسة ، بالطبع . بريطانيا العظمى جـاءت تطالب أهل عـدن بالتعويض عن حـادث غرق باخرة بريطـانية اسمها « داريـا دولت » في مياه عـدن . الباخرة كانت تابعة لشركة الهند الشرقية التي كانت تستغل ثروات الهند كمستعمرة بريطانية . وبما أن الباخرة غرقت قرب شاطئهم ، وبما أن أهل عـدن ربما يكونون قـد أخـذوا شيئا مـن بضائع الباخرة الغارقة ، فمن واجب الانكليز أن يطـالبوا بحقوقهم . ومن واجبهم أن يحتلوا عـدن والمنطقة ! سلطان لحج حينذاك قبل بدفع بعض التعويض أملا في أن يدفع شر المستعمرين عن بلاده . الا أن الانكليز جاؤوا يطلبون منه تسليم عـدن اليهم مقابل ثمـانية آلاف ريـال سنويا . فرفض السلطان وقرر المقاومة .

وكان يوم السبت الاسود في عـدن . حملة عسكرية بريطانية قوامها ثلاثة مراكب حربية جـاءت بقيادة القبطـان « هينس » وضربت عـدن بالمدافع . الشعب يهب للدفـاع عن بلاده . مئة وخمسون شهيدا يسقطون ، وتتوالى المجابهات . ومن يومها أدرك

أبناء هذا البلد العربي الكائن في بقعة استراتيجية ، بأن عليه أن يحمل قضيته وقضية العرب جميعا ، وأن يربض عند هذه البقعة لتحويلها من ممر لأساطيل المستعمرين الى الهند والسند ، الى موقع طليعي في الحركة التحررية .

وجاء حفر قناة السويس والتطورات اللاحقة ثم بروز دور البترول العربي ، ونشوء دولة اسرائيل بتخطيط من المستعمرين ، لتزيد في صعوبة التحديات التي تواجه هذا الشعب ، فتحمله على تصليب عوده وترسيخ عزيمته . ولم يكن من النشاط الانكليزي المتعدد الاشكال الا أن زاد في حجم القوى الاجتماعية المتضررة من سياسة المستعمرين . لقد شهدت مستعمرة عدن بعض الازدهار المؤقت بعد فصلها عن الادارة الاستعمارية البريطانية في الهند والحاقها مباشرة بادارة المستعمرات البريطانية، وقامت شركة الزيت البريطانية بتأسيس مصفاة عدن سنة ١٩٥٢م وبالتالي ازداد النشاط التجاري والخدماتي ونشأت صناعات محدودة ، لكن هذا الازدهار لم يصل الى الجمهور الواسع حتى في داخل عدن حيث بقي الشعب مفتقرا الى التعليم والخدمات الحياتية والمشاريع الانمائية .. فكيف بالنسبة الى سائر المناطق والاقاليم في اليمن الجنوبي ، حيث لم يقم الانكليز بأي مشروع يذكر ، في ما عدا مشاريع الاقتتال بين القبائل ، والقمع المستمر والبحث عن بعض الثروات الطبيعية ولا سيما العطور وبعض المنتوجات الزراعية ، ولم يكلف الانكليز أنفسهم عناء شق أي طريق خارجا عن مقتضيات النشاط العسكري البريطاني في منطقة الخليج ، أو تأمين مدرسة تعلّم اليمنيين أي شيء آخر غير اللغة الانكليزية والحساب نظرا لحاجتهم الى بعض الكتبة والاداريين في أجهزة المستشارين الانكليز وفي مرفأ عدن .

وهذا أدى ، فضلا عن الافقار الشامل للبلاد ، الى قيام ثلاث طبقات في مدينة عدن وضواحيها خلال النصف الاول من القرن الحالي :

ـ طبقة السماسرة ووكلاء الشركات الاجنبية (الكومبرادور) ومنها بعض الاسر الارستقراطية المتحدر بعضها من أصول

أجنبية ، كالهندية والايرانية والباكستانية . وهذه الفئة هي التي دعت ، بتشكيلها « الجمعية العدنية » سنة ١٩٤٨ ، الى اقامة الحكم الذاتي و « عدن للعدنيين » دون سائر امارات البلاد وولاياتها ، كما فتحت أبواب الهجرة للاجانب وأغلقت عدن على أبناء الشعب اليمني بالذات .

ـ البرجوازية الصغيرة ، التي تتشكل بالاساس من صغار الموظفين والتجار والحرفيين ، ومعظمهم من الكتبة وموظفي الادارات والشركات وميناء عدن والقاعدة العسكرية ، وبعض صغار التجار .

ـ والطبقة العاملة التي شهدت نموا وتوسعا في المدن لكن معظمها كان في قطاع الخدمات والتجارة والهيئات الحكومية . وهذا كان له تأثيره في عدم الوصول الى وضوح طبقي وسياسي وتنظيمي للطبقة العاملة الا بعد صراعات عنيفة في داخل الاحزاب والتنظيمات وفي داخل النقابات العمالية ولا سيما « مؤتمر عدن للنقابات »(1) .

ولم يكن الازدهار الاقتصادي والسياسي الخدعة الوحيدة التي مارسها الانكليز ضد الشعب اليمني . الخدعة استمرت مع استمرار الوجود الانكليزي ، واتخذت أشكالا في غاية التنوع .

عندما قامت المعارك الاجتماعية والاضرابات السياسية ضد الاحتلال وأعوانه ، كان الاحتلال يقول ان هذا ليس سوى شغب بسيط وسوف ينتهي الشغب ويعود الاستقرار .

وهذا قيل عن الاضرابات الكبرى وقد أعلن أكثر من ثمانين اضرابا عماليا في الخمسينات ، سقط خلالها عشرات الشهداء من العمال .

وعندما قامت الانتفاضات المسلحة بين العام ١٩٤١ والعام ١٩٥٨ ، قالوا ان كل ما في الامر مجموعة من المراهقين ولن يستمروا .

والخدعة اتخذت ، مع الطلاب ومع الاضرابات الطلابية ،

(1) فتحي عبدالفتاح ، « تجربة الثورة في اليمن الديمقراطية » ، دار ابن خلدون ، بيروت ١٩٧٤ .

قوة وعنفا . وفي أول شباط من العام ١٩٦٢ قامت طالبات كلية عدن البنات بانتفاضة ضد السياسة التعليمية ، وما لبث الاضراب أن شمل جميع الكليات والمعاهد والمدارس الثانوية ، واعتقل الكثير من الطالبات والطلاب خلال التظاهرات الضخمة ، وحكم على بعضهم ، ومعظمهم من الصغار في السن ، بالجلد عشر جلدات . وعندما فتحت كليات ومدارس البنين بعد اضراب دام نحو أربعين يوما ، قررت الحكومة البريطانية اغلاق كلية البنات حتى السنة التالية .

لكن الثورة ظلت تختمر في النفوس ، بين كل عملية قمع وعملية أخرى ، الى أن تكونت ظروف نمو الحركة القيادية المنظمة لهذا النضال ، والى أن فتحت جبهات القتال على مصراعيها بعد الانطلاق المنظّم للثورة في ١٤ أكتوبر (تشرين الاول) من عام ١٩٦٣ . وعندها حرصت بريطانيا على مواصلة الخدعة . فقالت ان العمليات العسكرية التي انطلقت في جبال ردفان ليست سوى تكملة النزاعات القبلية .

وعندما انعقد في عام ١٩٦٥ المؤتمر الاول للجبهة القومية وصدر الميثاق الوطني معلنا أن الكفاح المسلح هو السبيل الاساسي لتحرير الارض والانسان ، عندها أعطى الانكليز الضوء الاخضر لبعض الاوساط الرجعية والتقليدية حتى يعززوا بعض التنظيمات القائمة أو ينشئوا تجمعات أخرى من النوع الذي لا يؤمن بالكفاح المسلح وانما يتكلم عن الحرية والتحرير بصورة عامة .

واستمرت اللعبة الاستعمارية حتى آخر لحظات ما قبل الاستقلال . فلجأ المستعمرون الى جملة من المناورات من خلال النشاط الديبلوماسي ومن خلال جماعتهم في « رابطة الجنوب العربي » ، وكلها تهدف الى التحايل الذكي على الارادة الشعبية المنتصرة . تارة باسم انشاء حكومة اتحادية للاستقلال برعاية بريطانية . وتارة أخرى باسم صعوبة الاختيار بين القوى اليمنية المؤهلة لاستلام السلطة ، وما الى ذلك من الاساليب والحجج التي سوف نرى أمثلة وشهادات مذهلة بشأنها ، والتي عادت وانهارت كلها بفضل اصرار القوى الشعبية الحقيقية على عدم

التنازل في أي شيء ، وعلى احراز استقلال ناجز بدون قواعد عسكرية وبدون ارتباطات مشبوهة وبدون مساعدات مشروطة .

ذلك ان الشعب اليمني الذي اكتسب في تاريخه الطويل مناعة ضد الشمس الحارة والصخور الشظفة ، انما اكتسب أيضا مناعة ضد جميع أنواع الخدع . والطريق الى ردفان هي الطريق الى قمة الوضوح في الرؤية تجاه مصير الوطن كله . والبندقية لم تأخذ امتدادها الثوري المتكامل الا بعد أن توضحت معالم الطريق وتكوّنت القيادة المنظمة القادرة بدورها على تنظيم المجتمع وتنظيم عملية التحرر الكامل والبناء الجديد .

وهذا حصل وسط عواصف في غاية العنف . والعواصف كانت من النوع الذي يحجب الرؤية أحيانا ويجعل الانسان والثورة ، في تخبط بين الحياة والموت . وفي بعض أنواع العواصف لا يعود هنالك مجال للاختيار . ولا يعود هنالك مجال للتردد .

نخترق ، اذاً ، جدار العاصفة وندخل الى الداخل . فماذا نرى ؟

الطريق الى ردفان

« اعاجيب الدنيا كثيرة لكن أعظمها على الاطلاق هو الانسان نفسه » .

(« جريدة حائط » لفلاحي
وثوار الضالع)

أشجار قليلة تحاول ان تبزغ من بين الصخور الوعرة فتنشر بعضا من أوراقها ، وتأكل أشعة الشمس الاوراق الاخرى . الغبار الرملي يلفح الوجوه . واللون الاسود يتداخل مع الفسحات الخضراء عندما نقطع قسما من الطريق الى أعالي المحافظة الثانية . ولكن .. في بعض الاماكن تحولت حجارة الدرب الى أكوام متناثرة ، والوادي الذي يطل بين الفينة والفينة بين التلال الاكثر ارتفاعا ينشر رائحة المياه التي تبخرت من زمان . فالجفاف زاد في وعورة الارض ، ومع مرور السنين كان الانكليز وجماعاتهم يحبون الجفاف ويتشبثون به . كل نسمة من الاخضرار كانت تخيفهم . وكل طريق يربط بين بني البشر كانوا يجدون فيه طريقا الى نهاية حكمهم الاستعماري .

وبعد أن نجتاز مدينة « لحج » ، وهي من أبرز مواقع الاقطاع ومن أهم قلاع الثورة ، عندها تشتد وعورة الطريق وتبدو الجبال العالية التي انطلقت منها الرصاصات الاولى .

الكثبان الرملية والارض الرمادية المتمايلة مع أشعة الشمس

تمزق تراب الطريق . أما السائق الماهر الذي أخذ على نفسه مشقة مرافقتنا مع بعض من الرفاق اليمنيين الى منابع الثورة الاولى فكان يبدو مرتاحا لهذه القفزات والتعرجات ، والغبار الذي ينقض على السيارة لم يكن ليؤثر في سحنته المتفائلة .

ثم يتسع السهب ويضيق ، والصخور المترامية الاطراف والمسننة الرؤوس تزداد تنوعا وتبدل في وجوهها ، بين انبساط وانحناء وبين تناغم وتشابك . وكلما اقتربنا منها نراها ابتعدت ، وخصوصا في الجهة اليسرى المطلة على الشطر الشمالي من اليمن . تبتعد الصخور والتلال وكأنها تقول لنا أن حدود اليمن ليست هنا ، وأن الحدود المصطنعة بين الشمال والجنوب مخالفة لسنن الطبيعة .

ثم ... كل شيء في هذه البقعة يتغير تدريجيا فتشتد الوعورة عندما ينخفض السهل ويضيق المكان . فترى الخطر يداهمك في النقطة التي أنت فيها بالذات . أمامك جبل ينتصب عاموديا والوادي يتقلص والطريق يضيع ، والرؤية تنعدم ، والشجيرات الصغيرة هي أيضا تختفي . وعند هذه النقطة يختفي أيضا الرعاة والينابيع والمحركات اليدوية الصغيرة لسحب المياه الجوفية . كما تبتعد عنا مشاهد النسوة حاملات المياه على رؤوسهن ، والرعاة الصغار الذين رأيناهم قبل قليل ، في اليد اليمنى مهماز للماشية وفي اليد اليسرى كتاب وقلم .. هؤلاء كلهم لا يعودون يظهرون أمامنا ، فنصل الى نقطة سميت « حردبة » . هنا ، في هذه الناحية ، لا شيء سوى الصخور . تنظر حولك فترى نفسك في « جوف » صخري مخروطي الشكل ، بالكاد تزيد فتحته الفوقية عن الدائرة المتكونة في القاعدة . وكأني بالدرب تنتهي هنا ، وفي هذه اللحظة بالذات ، فقد وصلت الى « المصب » الذي تنسكب فيه وتنتهي .

لكن الرحلة تستمر . ففي الصخر حفر الانسان طريقا لولبيا . وفي احدى جهات هذا « المخروط » آثار لشلالات كبيرة . بقية مياهها تبخرت في لهيب الصيف ، في انتظار الشلال الكبير الذي يتدفق في أكتوبر متحديا اليباس ومتحديا الكوابيس القديمة .

وفجأة ، يقطع عليك هذا التأمل في الطبيعة المدهشة صوت أحد المناضلين الشجعان في حرب التحرير :

أنظر ... من هنا كنا ننقل الاسلحة ونضع ألغاما للدبابات الانكليزية .

ويحدّق الى القمم المسننة والتي ليست سوى بداية للقمم الاخرى الممتدة نحو ردفان في الجهة اليسرى ، ونحو يافع في الجهة اليمنى .

لولا الوقار الذي يتميز به الرجل ، ولولا النبرة العميقة التي تعيش فيها كلماته ، لكنا اعتبرناها نكتة في غير محلها ، أو ضربا من المبالغة القروية المعتادة .

يكرر العبارة ونحن واجمون . ويأخذ في شرح تفاصيل العمليات الثورية بكل رزانة وواقعية ، حتى اذا وصلنا الى أعالي الجبال واتضحت معالم الوديان التي سلكناها ، وقف معنا المناضل العريق في أعلى الصخور وأشار بيده الى جانب من المنخفض فقال :

كان للانكليز قاعدة عسكرية أساسية في « الحبيلين » . وقاعدة ثانية في الضالع . وكان نقل المؤن والامدادات الانكليزية يحتاج الى حراسة . فقام الانكليز بتسخير العديد من الشباب والجنود في ما أسموه « الحرس الخاص » . وقد استطعنا ادخال عناصر من الثوار في الحرس الخاص المكلف بحراسة الامدادات الانكليزية . كما كنا نسير ليلا الى قرية « يوران » ، ونتمون من « خالمين » . وقد كلفنا مواطنا اسمه عمر صالح بأن ينقل الينا الذخيرة من جبل حالمين ، لنقوم بالعمليات في حردبة وسواها . فنسير ليلا ونضع الالغام ، ونقيم حراسة حتى لا تصطدم السيارات المدنية باللغم ، وذلك بعد أن نضع حجرا في الطريق حرصا على عدم مرور هذه السيارات . ثم عندما نتأكد بأنه لم يعد يمر أحد سوى العسكريين ، ينزل واحد منا ويزيح الحجر .

كنا في معظم الاوقات خمسة . واحد منا عند أعلى نقطة في التلة ، والاخرون يقفون تدريجيا عند المنحدر ويكون الاخير

الى جانب الطريق التي ستمر عليها القوافل البريطانية . فنعطي التعليمات من الاعلى الى الاسفل لدى رؤية تحرك معين ، وذلك بواسطة اشارات معينة كنا نتفق عليها .

ويضيف المناضل ، واسمه عبيد حسين يحيى ، وهو اليوم رئيس اللجنة الفلاحية في المنطقة وعضو مرشح في المجلس المركزي لاتحاد الفلاحين اليمنيين :

كان مركز تجمعنا في « قعطبة » ، وكنا نسحب الذخيرة على الحمير وسائر الدواب ونأتي بها الى هنا ونضعها في مخازن لا يعرف أحد أي شيء عنها .

ويشير باصبعه الى الجهة اليمنى . وظننت ان قعطبة هي بلدة مجاورة . ثم قيل لي انها في الشمال اليمني . وهذا دليل آخر على أن الفلاحين والثوار لم يكونوا يعترفون بالحدود المصطنعة .

والمفاجأة الثانية هي أن المناضل عبيد لم يكن من الفدائيين . كان من الشباب الوطني المكلف بمساعدة الفدائيين وذلك على الوجه الذي تنظمه خلايا ومنظمات التنظيم السياسي ـ الجبهة القومية .

اذا كانت نشاطات المساعدين المتطوعين بهذه القساوة والبطولة ، فكيف بالفدائيين « الاصليين » ؟!

ثم ينضم الى الحديث ، في مدينة الضالع ، عدد من الفلاحين والشباب والطلبة ، وكل واحد لديه أخبار مذهلة وتجارب تكاد لا تصدّق رغم صغر بعضهم في السن .

كان الانكليز عندما تتصاعد العمليات ينزلون الجنود عند رؤوس التلال بواسطة طائرات الهليكوبتر . بنادق الثوار لم تكن قادرة على الوصول الى الهليكوبتر الا نادرا . خصوصا في البداية فقد كانوا يستخدمون بنادق « الخشبي » و « كندا » ، وسواها من الاسلحة الخفيفة والمتوسطة . ثم استخدموا « البلندسيد » ضد القلاع وقصور الضباط ومراكز الامراء المتعاطفين مع الانكليز ، وكذلك ضد الدبابات . أما الفدائيون في « الداخل » ولا سيما في المدن وفي المراكز التي يقطنها الانكليز ، فقد استخدموا أسلحة تعتمد « المواسير » ، وهي من صنع محلي ، خصوصا وأن

العمليات في الامـاكن المكتظة بالسكان تتطلب سلاحـا من النوع الذي ينقل بسهولة .

وابتداء من سنة ١٩٦٦ بدأ استعمال « البازوكا » .

وقـد التحق كثيرون من المقـاتلين الجـدد ومن الحزبيين بجيش التحرير ولا سيما في سنة ١٩٦٥ .

والحـرب على الامراء وسـائر أعـوان الانكليز كانت لا تقل صعوبـة ، بل هي أحيانـا أصعب بكثير مـن مواجهة المستعمرين بالذات . ذلـك أن الامير أو الحـاكم المحلي كانت لـديه ضغوط مباشرة وتأثيرات على فريق من الاهالي . وكان الناس يخـافونه لشدة بطشه ، فضلا عن تنسيقه مع قوات الاحتلال لمطاردة عـائلة كل من يثبت أنه مع الثورة . وأحيانـا يجري الانتقام من بلـدة بكاملها عندمـا تشيع البلدة شهيدا سقط في مقاتلة المستعمرين . والامير الذي كان يحكم عندنـا في الضالع ، مثلا ، كان يعتمـد على جهاز من المخابرات وعلى « العقـّال » في القرية مثل المختار ، فضلا عن بعض المشايخ . وكل من لا يقـدم له الطاعة كان يسجن بعـد تقييد يديه بصفيحة معـدنية تسمى « جدلة » .

والامير كان يسكن في القصر الاصفر الكبير الـذي تراه عند هذه التلة المشرفة على البلدة كلها . والقصر هو اليوم مدرسة . كانت عـائلته وأقـاربه يسكنون أيضا في القصور المجـاورة . ومن أساليب التعذيب التي استخدمها الامير « شعفل » ، أنه كان يرسل المواطن بدون سبب من أعلى التلة الى أدنى مكان في المـدينة سيرا على الاقـدام ، حتى يـأتيه بعيدان ثقاب مثلا ، أو حتى يقـول لمواطن آخر ان يـأتي الى الامير . واذا لم يعـد هذا الشخص الى القصر بسرعة قصوى ، فـانه يوضع في السجن وتحت التعذيب وتختفي أخباره . وكانوا أحيانـا اذا وجـدوا مواطنا يبني بيتا أو يوسع قطعة الارض أمـام بيته بواسـطة الالغـام في الصخور ، يضعون الفتيل وفوقه الـرجل ويطلقون اللغم فيقضون عليه وعلى بيته . ومن عـادات الامير أنه كان يـأخذ ضريبة على الزواج ، من والـد العروس ومن زوجها أيضا ، وذلـك عن طريق المشايخ أو العقلاء الذين يـأخذون نسبة معينة والباقي للامير .

ولـم يكـن الثوار منعزلين عـن حياة القرى والتجمعـات السكنية . وعلى الـرغم من السرية الضرورية فقـد كان الاهالي يشـاركون في العديـد من النشاطات التي تخـدم الفدائيين . ومنها انهم في الضـالع شـاركوا في مطـاردة الامير بعـد قصف قصره ، كما أن الضغط الشعبي جعل الانكليز يرفعون عن بعض القرى وضعية « القرى العسكرية » التي أعلنت كذلـك بتهمة المشاركة في دعم جيش التحرير أو في تموين المقـاتلين . والمواطنون فـي الشمال اليمني كان لهم دور كبير في تحميل وارسـال الذخـائر والاسلحة ، فضلا عـن فتح بيوتهم وقلوبهم لكل مـا تحتاجه ثورة الجنوب ، اعدادا وتدريبا وتنقلات . وكانت تعز هي قلعة أسـاسية في الشمال لانطلاقة الثوار الجنوبيين .

ويقول الثوار الذين التقيناهم في الضالع وفي البقعة الجبلية الممتدة الى ردفـان والى يافع في المحافظة الثالثة ، ان معظمهم سبق واشترك في دعـم الثورة في الشمـال بعـد حركة السلال سنة ١٩٦٢ ، وقـد رأى الفلاحـون والعمال أن دفـاعهم عـن ثورة الشمال هو واجب عليهم وحق لهم . وكانوا ينتظرون دعما مقابلا عندمـا انطلقت في جبال ردفـان رصاصات الثورة المنظمة في ١٤ أكتوبر (تشرين الاول) من السنة التالية . فالظروف الماضية التي قـاتلوا فيها خـلال الخمسينات وحتى سنة ١٩٦٢ ضد الانكليز والسلاطين في الجنوب ، أكدت لهم بـأن نضالهم لا يمكن ان يقود الى النصر مـا لم تكن لهم قاعـدة أساسية لدعمهم ، وما لم يرتبط نضال الوطنيين في الشمال بنضال الوطنيين في الجنوب وبالعكس ، لا سيما وأن الامـام الذي كان حاكما في الشمال قبل عام ١٩٦٢ كان يتعامل فـي موقفه مع الجنوب في حـدود مصالحه التي لا تدفعه الى المجابهة الشاملة مع الانكليز . وهي المصالح التي اقتضت توازنـا معينا بين النفوذ السعودي والنفوذ الانكليزي .

ويضيفون : وهكذا ادركنا بالتجربة أن تحرير الجنوب لـن يكون شعارا قـابلا للتحقق الا بمقدار مـا يقوم حكم وطني حقيقي في الشمال . وكان من الطبيعي ان يشارك الكثيرون منا فـي دعم الحكم الوطني في الشمال بعـد سبتمبر (أيلول) ١٩٦٢ . وذهب

معنا الى الشمال مناضلون من كل المناطق وقـادة بارزون ، ومنهم الرفيق علي عنتر (وزير الدفـاع حاليا) والرفيق صالح مصلح (وزير الداخلية) ، فحملا السلاح الى جانب الوطنيين في الشمال . وكذلـك ، الرفيق الشهيد غالب راجح لبوزه ، وهو اول شهيد في ردفـان .

ويضيف الثوار انـه كما كان الارتباط وثيقا بـين الوطنيين والكادحين في الجنوب والشمال ، كذلـك كان الارتباط بين أعداء التحرر وقوى الماضي العفنة في الجنوب والشمال على السواء . وقبل قيام « حكومة الاتحاد » في الجنوب سنة ١٩٥٩ برعـاية انكليزيـة وبحيث تضم السلاطين والمستشارين والـزعماء القبليين الرجعيين ، قبل ذلـك التاريخ كانت الامـارات والسلطنات مجزأة وكانت الاحكام التعسفية التي تتخذ ضد الفلاحين والعمال أو ضد الوطنيين ، تستأنف أحيانـا الى محكمة قرب مـدينة تعز فـي الشمال . وبعـد ١٩٥٩ قامت قاعـدة اضافية للانكليز في عـدن ، ونشأت وزارة عدل في عـدن ، ولم يعـد الاستبداد يأتينا مباشرة من الشمال . أصبحت الامور منحصرة في الجنوب لهـذه الناحية . والاحكـام القضائية في معظمها عشوائية ، والتعسف كان يـأخذ مبررات وحججا دينية مزعومة . ومنها الاحكام التي كان يتخـذها الامير حيدر ، في الضالع ، بصورة شفهية ، ثم جـاء الامير شعفل فكانت احكامه خطية .

وينتقل الحديث ، من جديد ، الى جبهات القتال .

عندما فتحت الثورة في ردفـان ، في ١٤ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٣ ، بدأت الجبهة القومية تفكر بتوسيع اطار المعركة فكانت ثلاث جبهات فتحت تدريجيا ، وهي : ردفـان الشرقية ، وردفـان الغربية ، والضالع . وفي الضالع كانت المعركة الاولى في ٢٢ يوليو (تموز) ١٩٦٤ . ويقـول الثوار : كنا يومها نحتفل بذكرى ثورة جمال عبدالناصر . وأردنـا ان يكون احتفالنا بمـا يليق بـ « مستوى » الانكليز وصنائعهم . فقمنا بعملية عسكرية ضد مقر الضابط السياسي البريطاني والامير والقوات البريطـانية التي تحرس التلة . فكان الصدى كبيرا . كنا نعرف أن ثورة يوليو

هي ثورة للعرب جميعا . وقـد اخترنا تلك المناسبة لنسهم بترسيخ هذا الارتباط بين ثوار العرب . ولمسنا أن نسبة كبيرة مـن السكان متعاطفة معنا . وهذا مـا أرعب الانكليز . فقصفت مواقع جيش التحرير بكافة الإسلحة . وجرت محاولات لاخضاع القرى وارهابها، لمنع أي تعامل معنا . فضلا عن الاغراءات وتوزيع الاسلحة والاموال وانشاء « حرس خـاص » .

بعدها بمـدة قصيرة حاولنا ادخـال حمار محمَّل بالمتفجرات الى منزل أحـد كبار العملاء . ونجحت العملية ، وتفجر البيت لكن العميل صدف أن كان غائبا . وقـد أدركنا ان بعض العملاء مـن أبناء منطقتنا ، من مؤيدي الامـام سابقا ، يتوجهون الى الشمال للقيام بأعمال تخريب ضد الجمهورية . فقمنا بعمليات ضد هؤلاء . وازدادت أعمال الاضطهاد ضد الاهالي ، فضلا عن التضليل مـن جانب الانكليز وعملائهم ، محاولين تأليب قبيلة على أخرى ومنطقة على منطقة ، فيقولون للجماهير في منطقة معينة ان الثوار لا وجود لهم الا في منطقة القبيلة « المعادية » .

والذي يراقب الارض التي جرت عليها العمليات ، في المحافظة الثانية ، فـانه يصاب بالدهشة ، ويتساءل كيف استطاع المقاتلون الوطنيون تنظيم عملياتهم بهذه الدقة رغم وجـود تعزيزات من النوع الذي لا يتصوره العقل .

ومدينة الضالع تقع في بقعة جرداء هي عبارة عـن منخفض يحيط بـه تلال قريبة وقـلاع محصنة كلهـا بتصرف الانكليز . ومنها : قصر الامير في أعلى التلة ، وقلعة في جهة قريبة ، وفـي جهة أخرى مقر الضابط السيـاسي الانكليزي . وبعـدها بمئتي متر معسكر انكليزي . وفي جهة مقـابلة ، « جبل المظلوم » ومـوقعه استراتيجي وكانت تتركز عليه مدفعية انكليزية . وفي الامتدادات ولغـاية الوادي معسكرات بريطـانية أيضا . فضلا عـن معسكر لـ « الجيش العربي » وهو الجيش الذي شكل من أوسـاط قبلية مختلفة ووفقا لمساومة عربية ، وقـد لعب دورا متناقضا يقوم في معظمه على التواطؤ مع الاستعمار البريطـاني .

وقبل أن ننتقل من المحافظة الثانية الى « جبل الفحمان » في

المحافظة الثالثة لنشهد فصولا أخرى من الذكريات المدهشة ، نشير الى التعديلات التي طرات على معالم مدينة الضالع . ونكتفي ببعض العناوين . .

مقر تابع لأحد الامراء ، عند المنحدر ، أصبح مقرا للميليشيا الشعبية التي نشأت مع الثورة ولعبت ولا تزال تلعب دورا كبيرا في تربية الجيل الجديد وتعبئته .

القلعة التي جعلها الامام سجنا ، هي اليوم في تصرف الكادحين وعائلاتهم .

قصر ثالث ، للعملاء التابعين للانكليز يجري تجهيزه ليكون متحفا .

دار المأمورية ، الذي كان مركزا للاحكام التعسفية ونهب أموال الشعب ، اصبح مكانا يوميا لتسيير واطلاق اوسع المجالات والمبادرات الشعبية .

وقرب مركز السكرتارية تقوم عدة مبان جديدة ، بعضها دار السينما والتسلية وبعضها الاخر تعاونيات استهلاكية .

وعلى امتداد السهل القريب من الابنية المتجمعة ، يقوم مسلسل من المشاريع والاختبارات الزراعية . ويرتفع في العديد من جهات البلدة ، وفي مكان أعلام الانكليز السابقة ، أعلام الثوار والتنظيمات الشعبية ، ومنها الميليشيا واتحاد الفلاحين اليمنيين واتحاد الشباب اليمني الديمقراطي .

وعند مدخل المأمورية نقرأ ، على الجدران ، « جريدة حائط » يصدرها فرع اتحاد الفلاحين ، وحولها صور فوتوغرافية ولوحات زيتية جميلة من صنع الفلاحين والمقاتلين . نقرا في الجريدة : افتتاحية عن زيارة قادة الحزب والدولة الى المدرسة الجديدة لاعادة تثقيف مقاتلي جيش التحرير (وهي تجربة نموذجية كبيرة سيأتي الحديث عنها في مكان آخر من الكتاب) . ونقرأ ، أيضا ، مقالا مبسطا عن الانتخابات الجارية لاختيار مسؤولي المنظمات القاعدية في التنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية في المنطقة . ثم كلمة عن التصنيع ضمن استراتيجية النمو المتوازن ، ومقالة صغيرة عن مهرجان الشبيبة في كوبا وآخر عن دور

المراة في العالم ، ثم : شخصية العدد ، وهو . مهدي احمد هادي ، مدير ادارة البلدية ، أب لثلاثة أطفال ، يقوم بعمله اليومي باخلاص وتفان .

ونغادر الضالع وفي كل الجهات آثار لمارك الثورة . وفي احدى هذه الجهات أربعة جبال غير التي رأيناها من داخل المدينة . وكلها كانت مدججة بالسلاح الانكليزي والتحصينات المنيعة . ومع ذلك ، كان الثوار ينبعون من كل مكان . كانت الارض تنبت صمودا وبطولة .

وفي باب « اقوال مأثورة » على الجريدة الجدارية المتواضعة كتب أحد الفلاحين الشباب العبارة الاتية التي بقيت في ذهننا : « اعاجيب الدنيا كثيرة لكن اعظمها على الاطلاق هو الانسان نفسه » .

نفتح صفحات اخرى من الذكريات . ومن الاعجوبة .

بنادق وأشعار وقبائل تتسلق معنا جبل الفحمان

« ... وحول تلك الضياع والكروم جبال شاهقة لا تسلك ولا يعلم أحد ما وراءها الا الله . ومياه هذا الجبل تنسكب الى سد هناك ، فاذا امتلأ السد ماء فتح ليجري الى صنعاء ومخاليفها .

« وبها جبل كوكبان ، انه بقرب صنعاء عليه قصران مبنيان بالجواهر ، يلمعان بالليل كالكوكبين ولا طريق اليهما . قيل : انهما من بناء الجن » .

(من الوصف الشائق للجبال اليمنية ولا سيما جبل شبام وجبل كوكبان ، وقد ورد في كتاب الرحالة الشهير الامام القزويني « آثار البلاد وأخبار العباد » ، وفي كتابات الهمذاني) .

الطريق من ردفان الى « الفحمان » في المحافظة الثالثة غير واضح تماما . على الاقل بالنسبة للذين لم يعرفوا تفاصيل المسالك التي كان أفراد القبائل يشقونها عبر التلال والوديان فيتحاشون القيود والاجراءات والجمارك التابعة لحكام الولايات والامارات .

وبما أن الحواجز زالت ، والثورة اقامت علاقات بين الناس ، فقد كان انتقالنا سهلا ، نوعا ما ، لأننا سلكنا الطريق الرئيسية دون حاجة الى حواجز .

وهناك ، وفي البقعة الممتدة بين « مودية » وسفح جبل الفحمان ، عشنا جانبا آخر من الاسطورة التي كتبها شهداء الثورة بدمائهم ، والتي تنزرع فوق كل تلة مسننة وفوق كل قطعة حدباء من الارض .

ويزيد في عظمة التجربة التي عشناها مع شباب وأبطال المحافظة الثالثة ، ان الرفيق المناضل الذي تطوع لمرافقتنا في هذه الرحلة الشاقة عبر ذكريات منطقته التي هو مسؤول عن العمل السياسي فيها ، قد شاءت الظروف أن يستشهد قبل أن نغادر اليمن الديمقراطية . وهو المناضل الشاب ناصر أحمد صالح ، سكرتير التنظيم السياسي الموحد في المديرية ، ولم نكن نتصور أن هذا الشاب الشجاع سوف يقتل في خدعة قام بها الجماعة المنحرفون عن خط التنظيم وخط الثورة . لكننا ازددنا ، بفضل استشهاده ، ثقة بأن الطريق الذي اجتزناه واياه خلال يوم واحد ، هو جزء من الطريق الذي لن تتراجع عنه الثورة .

أمامنا ينتصب جبل لا تبدو ملامحه الضخمة الا بعد أن نجتاز بعضا من التلال التي كان يجتازها الفدائيون حاملين الاسلحة والعتاد تحت أشعة الشمس أو في ظلام الليل . وكانوا قد استخدموا ما في ذلك الجبل من فجوات ومخابىء ، وصوّبوا أسلحتهم ضد الاستعمار الانكليزي عندما تبين لهم ، بالتجربة ، أن تصويب الاسلحة بين القبائل ضد بعضها البعض لا يعطي أي فائدة .

ونلتقي برجل تكاد ملامحه الاولى تشبه بعض الشخصيات الاسطورية التي رأيناها في أفلام عن « الفايكينغز » أو عن الغزوات العربية القديمة .

قصير القامة ، متجعد الوجه ، على جبينه اشارات الى أنه أمضى نحوا من مئة وخمسين سنة على الارض ، وفي زنديه نقوش قديمة ، يلبس الى وسطه « فوطة » تطل من فوقها قبضة غريبة

لخنجر من النوع الفارسي القديم ذي النقوش الشبيهة بالحروف الهيروغليفية . وفي وجهه بعض من الاسنان المتبقية تنفرج عن ابتسامة وقورة من فوق لحية صغيرة تتدلى من وجهه حاملة لون ما تبقى من شعره الابيض .

يصعد معنا في « اللاند » في رشاقة مدهشة ، ويجلس بتواضع وخفة ، ثم عندما نصل الى بداية احدى التلال الوعرة يشير علينا بيده أن نتوقف لأن المسافات الباقية لا يمكن سلوكها الا على الاقدام .

وعند بداية المسير ، اكتشفنا اننا نحن المسنون وهو وحده الشاب . كلماته عن الثورة ، عن الاصابات والاهوال التي جعلته يشيب بسرعة ، عن الاسلحة التي كان يصنعها هو بالذات ، وعن التسلق والمخابيء ، كلها تشبه كلمات شاب في مقتبل العمر يتحرك الى القيام بمغامرات بطولية .

قال : جاءتنا بريطانيا ونحن قبائل متقاتلة . وسلطت واحدا على واحد . انا اصلا كنت من المتمردين في الجبال . لم اكن أعرف لماذا انا فار من قبيلتي . لكن القبيلة كانت لا تنسجم مع أمثالي ، لأننا كنا نقوم بمشاكسات ضد المشايخ ، احيانا لأسباب تافهة ، أو بسبب خلاف مع صاحب الارض أو أسياد المنطقة ، فتحكم السلطة لصالح أصحاب الارض فيهرب الفلاح أو الراعي الى الجبال .

ثم توقفنا عن اطلاق الرصاص على اساس قبلي . والهاربون في الجبال أصبحوا يفكرون ويناقشون في قضية الاحتلال الانكليزي المباشر او غير المباشر . الانكليز قالوا عنا اننا شيوعيون . لم نكن نعرف شيئا عن الشيوعية أو عن غيرها . الامام أحمد كان يعطينا بنادق من نوع « أبو حبة » ويقدم خمسة ريالات فرنسية ونصفا ، أي حوالي دينارين ونصف في الشهر لكل مقاتل ، فضلا عن ثلاثة اكيال من الحب . كانت بالكاد تكفي المقاتل حتى يستمر على قيد الحياة . وكان مركزنا محلة « البيضا » في الشمال .

ويضيف : وأنا تمردت مع أخي منذ ١٩٥٣م . وعندما جاء الانكليز الى الجبل كانوا يلاحقوننا وكنا تسعة رفاق . وذات يوم

قاموا بحملة عنيفة ضدنا وأحاطوا بنا فقتل أخي ، لكنهم فروا بعد أن أسقطنا لهم طائرتين . فحمل واحد من البدو جانح الطائرة على الحمار ونزل الى السوق دون أن يدري ماذا يحمل . لكن الناس عرفوا فصرخوا : طيارة ، طيارة !

بقينا على هذه الحالة الى أن تأسست الجبهة القومية في أغسطس (آب) ١٩٦٣م وأعلنت انها جبهة مفتوحة أمام كل وطني يؤمن بالكفاح المسلح . عندها انتسبنا الى الجبهة ، وشكلنا قيادة ، من بين الرفاق الذين صمدوا أكثر من غيرهم والذين كان لهم وعي سياسي الى حد ما ، ومنهم محمد عبدالله المجعلي . وكان بيننا الشهيد عبدالله صالح حسين وعبدالله محمد ، ومحمد ناصر الجعري وناصر محمد السعيدي . وهؤلاء استمروا في الكفاح المنظم ، ما عدا محمد المجعلي وعبدالله محمد . وكنا قد ذهبنا الى صنعاء وقاتلنا الى جانب السلال والقوات المصرية ، وقد استشهد منا أكثر من ثلاثمائة وخمسين ولم يعد سوى سبعة . ورأينا الناس في صنعاء يموتون بالعشرات .

ـ لماذا ذهبتم الى الشمال طالما لم تكونوا منظمين بعد ؟

ـ ذهبنا للدفاع عن الجمهورية . وكان الامام قد أخبرنا بأنه اذا نزل أحدنا الى البلد حتى يعمل مشاكل فسوف ينفيه الى بريطانيا . وهكذا وعندما عدنا من الشمال بعد ستة أشهر ، كنا على ثقة بأن المساعدة ستكون متبادلة ، وبأن الكثير من رفاقنا الشماليين سيأتون معنا لنخوض الكفاح المسلح هنا . لكن قلائل استطاعوا المجيء ، لأن الظروف في الشمال تعقدت .

ـ وماذا حصل هنا في البداية ؟

قال لنا محمد غالب لبوذه وهو من المنطقة : ليأت منكم واحد من كل قبيلة . فذهبنا . ثم جاءت أسلحة جديدة كمساعدة من الرئيس جمال عبدالناصر ، ومنها البازوكا والقنابل والالغام والمدافع . تدربنا عليها في اقل من اسبوعين . وحصلت معارك مع الطائرات في ردفان حيث اشتركنا في المعارك الاولى . خمس طائرات ذاهبة وخمس منها آتية . حتى في الليل ، بعد أن يعطي الكشاف القوي نورا على تلال ردفان . وقمنا بتدمير

طرق مواصلات الانكليز . أصبحوا ينزلون بالمظلات . كل الشعب في ردفان صار مقاتلا ومنظّما في فرق . وكل قبيلة لها قائد يمثلها ويختاره مقاتلو القبيلة ، ويسيرون بانتظام عندما يقول لهم : « حميل ، حميل » ، أي : هيا ، هيا ، هيا !

— وأنتم ، هل كنتم تعملون باسم قبيلة معينة ؟ وما علاقة ذلك بالعمل السياسي المنظّم ؟

قال الرجل الكهل في اعتزاز رغم حرصه على التواضع : كانت كل القبائل تسمع كلمتنا بصفتنا مرسلين من قبل الجبهة القومية . وكان المواطنون في كثير من القرى يقدمون مساعدة ملموسة وسرية لمقاتلينا عندما يتوجهون القيام بعمليات في المراكز الانكليزية . وذلك رغم الانتقامات العنيفة من جانب المستعمرين وعملائهم .

ثم عندما انفصلت الجبهة القومية عن جبهة التحرير في آخر سنة ١٩٦٦م ، وكانت في الاساس قد انضمت اليها بدون حماس من المقاتلين وبدون قرار وطني حقيقي ، عندما انفصلت الجبهة القومية وعادت الى النضال المستقل بقيادة ثورية حقيقية وبدون خضوع للمخابرات المصرية ، عندها أصبحنا أنا وعبدالله صالح ومحمد ناصر الجعري في الجبهة القومية بتنظيمها المستقل . أما محمد عبدالله المجعلي وعبد الله محمد فالتحقا بجبهة التحرير ، وامتنعنا عن اللحاق بهما رغم صداقتنا العميقة جدا .

وكان أن قطع المصريون المعونة ، في السلاح والعتاد والمؤن . وأصبحنا نعتمد على التبرعات الاتية من الداخل . وكان نفوذنا يفرض نفسه حتى على أوساط جبهة التحرير والتقليديين المتعاونين معها . والمسؤول العسكري عن منطقة « البيضا » كان يتجاهل أوامر جبهة التحرير فيرفض اعتقالنا ، لأنه كان ضمنا مؤيدا للجبهة القومية . ثم عادت الجبهة القومية واشتدت عزيمتها بعد أن اعتمدت كليا على الجماهير في اليمن الجنوبي المحتل بالذات . وكنا أحيانا نسرق من جبهة التحرير ومن الجيش الاسلحة التي تأتيهم من مصر . والمواطنون الفقراء في الجنوب كانوا يقدمون لنا أموالهم البسيطة وأحيانا ممتلكاتهم الصغيرة ، حتى

نذهب الى صنعاء ونشتري بها أسلحة . وكنا في كل مرة نأتي بأكثر من مئتي قنبلة من صنعاء ونستخدم أحيانا طرقا مبتكرة وغريبة لنقلها الى هنا . فنقوم بتجويف بقرة تاركين جلدها فقط . ونعيد « تركيب » البقرة من الرصاص والقنابل بدلا من اللحم ، ونربطها بطرق فنية بحيث تبدو وكأنها بقرة حقيقية فننقلها عبر الجبال والوديان ونأتي بها لنتابع الثورة بدون أية مساعدات مشروطة . وكنا ننشر مواقعنا وعملياتنا على طول الجبال . ومقرنا الرئيسي في الفحمان هو في الكهوف التي تبدو أمامك بعد هذه التلة . ومنها كهف نسميه « امصحر »(1) ، وآخر نسميه « الفراعين » . ومن هناك كنا ننزل ونضرب المركز الانكليزي في « القليتة » . وهناك مدخل آخر للجبل من جهة مدينة مودية ، واسمه « المدرج » . وما زلت أذكر أن رفيقنا خضر عبدالله الجعري استشهد عند ذلك المدخل .

وعند الكهوف كانت الطائرات البريطانية تقصف باستمرار فلا تصيب أحدا ، لأن الكهف كان قادرا على استيعاب أكثر من مئتي مقاتل . وفي الجبل مياه كافية وقد حفرنا ممرات لنقل كل ما نحتاجه . والانتقال من المنحدر الى أعلى الجبل يحتاج الى أكثر من اثنتي عشرة ساعة في الظروف العادية .

... وينتقل معنا المناضل العريق (وهو في الحقيقة لا يزيد عمره عن الستين أو الخمس والستين سنة لكن مشقات الحياة جعلته يبدو أكثر تقدما في السن) ، ينتقل معنا الى داخل بلدة مودية حيث كانت لنا جلسة لطيفة مع شاعر شعبي لعب دورا في الثورة وفي الانتفاضات الشعبية والقبلية التي سادت قبل بداية الثورة .

الشاعر عرف باسم « أبو حمحمة » . كان شاعرا لقبيلته . وكان شاعر القبيلة عادة ذا أهمية في تقرير شؤونها وفي ابداء الرأي لدى السلطان أو الحاكم الاداري ولدى المستشارين الانكليز . والشاعر أصبح متقدما في السن وتكاد

---

(1) اي : الصحر . ويبدو ان « ال » التعريف تستبدل بـ « ام » في اللغة السائدة قديما في اليمن وذلك بتأثير من اللهجة الحميرية .

ملامحه لا تختلف عن المناضل الذي التقيناه عند سفح الجبل ، لولا انه طويل القامة ولا يحمل خنجرا . وان كانت حياته الماضية مليئة بقصص الخناجر والسيوف .

يقول : نحن خلقنا بدواً ، وكنا جهلة ، فلا مدارس ولا وعي . والاقتتال بين القبائل كان عملنا اليومي . وبين هذه المدينة وبين الوادي اكثر من مئتي قتيل في النزاعات . وكانت القبائل الموجودة هنا تتعاون ضد قبيلة آل العوذ الله ولكنها تتقاتل فيما بينها . وهذه المنطقة لم يكن عليها حاكم . وكانت الشريعة القبلية هي السائدة هنا . وعندما جاء المستشارون الانكليز بايعاز من المشايخ الى هذه البقعة ، اخذوا يحاولون تقسيمها (وكان اسمها دثينة) بين آل العوذ الله في الجهة الشمالية وبين آل الفضلي في زنجبار . والشعب كان حائرا بين المضي مع التقسيم وبين البقاء في ارض « ما لها سلطان » .

وذات يوم جاء المستشارون الانكليز وجمعوا الشعب في الميدان الذي نقف فيه الان ، ومعهم بعض أعوانهم والمشايخ . وقالوا اننا جئنا لنعرف من خلال القبائل وشعرائها رأيكم في مصير منطقة دثينة .

وكانت التقاليد تقضي بأن تأتي كل قبيلة الىّ الميدان في شكل معين ، يتقدمها شاعر القبيلة وزعماؤها ، ويستقبلها زعماء القبيلة المحلية ، وذلك بحضور أعضاء « لجنة » قام الانكليز بتشكيلها من بين المشايخ . ثم يقول كل شاعر رأي قبيلته شعرا ، وبعدها يدعى الكل الى مساجلة ثم حلقات من الرقص الشعبي . فما كان مني الا أن بادرت الحاضرين بهجوم على تدخلات الانكليز ، فقلت لهم ، بعد أن حييت شجاعة قبيلتنا ورفضها الانضمام الى أية زعامة من الزعامات المتواطئة .

يا أهل السياسة والبصر والمعرفة
لا تفتحون الكيس ، دي لفعاه فيه(٢)
لما تشلون الامور الجائرة ولا
قفاها تخسروا في الميه ميه(٣)

(٢) أي : الافعى موجودة فيه .

(٣) أي انه اذا تعاطيتم في هذه الامور التي لا تحمد عقباها ، فالخسارة محتمة

الحر اصله حر ما يتباعشي
لا جاز دي باعه ولا دي يشتريه(٤)
لا نا من الفضل ولا نا عوذلي
نا ميسّري مكتوب وأمي ميسّريه(٥)

بعدئذ اقامت لنا لجنة المشايخ محفلا للرقص الشعبي ليروا ما اذا كان الجمهور ضد ما أقوله ، فكررت أشعاري فضاح الشعب كله بالتأييد .

ومما قلته لهم :

لا عسكر ولا سلطان في أرضي يتسلطن
قولها من صدق ما أقولها بكذوب(٦)

وعلى ضوء كلامي هذا ، كتبوا لافتة تقول : « ولاية دثينة » ، اي انها لم تتبع بأي من الزعامتين الاقطاعيتين في المنطقة . وبقي ذلك قائما حتى اندلاع الثورة في اليمن الشمالي سنة ١٩٦٢م ضد اسرة حميدالدين ، فأصبح المستشار الانكليزي هنا يضرب على راسه خوفا . وجمعونا ذات مرة هنا في هذا الميدان (أصبح اسمه ميدان التحرير) ، فقلت قصيدة سجنوني بسببها عدة اشهر . قلت ، امام المشايخ والانكليز والسلاطين مجتمعين :

طاب الامل ما بين مصر واليمن
طاب الامل ما بينهم والفكر طاب ..
تفكّروا بالسيف يا كلّ اليمن
السيف دي حدّه على عنق الرقاب

(٤) أي أن الحر لا يباع ولا يجوز أن يقوم فلان ببيعه وفلان بشرائه .

(٥) أي : انني لست من قبيلة الفضلي ولا من قبيلة العوذ بالله ، المتنازعتين على الزعامة والسيطرة ، وانما من قبيلة ميسري وأمي أيضا من هذه القبيلة المتواضعة التي لا تريد تدخلا من أحد في شؤونها .

(٦) أي : رفض أي تحكم في الارض ، وهذا كلام صدق لا كلام كذب .

أحمد يا جنّاه مشهور اليمن
ثارت عليه الجن من بطن السحاب(٧)
اغضت على المفتاح والقفل انكسر
وتفككت كل الردد والهندراب(٨)
وتفككت الابواب والشعب انقلب
حتى قرح صوت الخطر واللانضراب(٩)
في ليلة الدقو قصورو كلها
ما عاد سدر كان راسو والثياب(١٠)
الظالم الجبار حتى لا عمر
ياخذ حسابه في المظالم والعذاب(١١)
يا أهل الجلالة يا ملوك الرجعية
يا دي خدعوتنا وساعدتوا الكلاب
كل العرب من شرقها لغربها
تسخط وتتغضب وتسفاكم تراب(١٢)
شمس العروبة في سماها مشرقة
والغرب شمسها غيبت والنجم غاب

وصوت الشاعر الشعبي يندمج بأصوات الرصاص . الاهالي يذهبون الى الجبل ، يتظاهرون بأنهم رعيان فيأخذون للثوار رصاصا ومؤنا وطعاما .

ويضيف الشاعر الشعبي المقاتل : في الليل نكون معاهم (ويدل على الجبل) وفي النهار نتظاهر بأننا مع الانكليز .. ثم يأتي وقت التحدي فنعلن رأينا بصراحة ، وفور خروجنا من السجن

---

(٧) جناه معناها المشعوذ الذي يربي الجان ، وقد كان الامام أحمد مشهورا بهذه العادة . فيقول الشاعر ان الجن نفسها ثارت على صاحبها .

(٨) أي : قضت على المفتاح ، وانكسر القفل ، وتفككت كل أرداف الباب وكذلك « الهندراب » أي المفلاق باللغة الانكليزية .

(٩) قرح : معناها قرع أو تصاعد .

(١٠) أي : في الليلة التي شيدت فيها قصوره ، اضطر للخروج منها دون أن يأخذ معه الا رأسه وثيابه .

(١١) « حتى لا عمر » ، تعني حتى لو عمر وكبر في السن .

(١٢) أي : ترشقكم بالتراب .

نبحث في الامدادات الجديدة للثوار .

وننظر حولنا ، فنرى مجموعة من أبناء الجيل الجديد قد تحلقت حول ذكريات القبائل والجبل والمغاور . حياتهم الجديدة تأخذ طريقها رغم المصاعب ورغم التحديات . في يد معول وكتاب وفي اليد الاخرى بندقية . ويقول الشباب الحاضرون أن « الرعيل الاول » من الثوار واصل عمله العسكري بعد انتصار الثورة ، وبعد قيام الاستقلال وبناء الانجازات الجديدة . فالخطر استمر على الحدود وقد خاضوا معارك ضد المرتزقة .

ويعلق أحد المناضلين على هذا القول : أصبحنا اليوم ندافع عن الثورة المنتصرة . بينما في الماضي كنا نهاجم الاعداء ونحلم بالانتصار .

الأحزاب والتجمعات من «الرابطة» إلى الجبهة القومية

« قلوبنا معابد الضياء
اقدامنا من أعرق الخشب
وارضنا سجادة الذهب
حكاية تطاول العجب !
.. الناس أنبياء
يفتشون دفاتر الجدود
عن قصة الخلود
ويحفرون خنادق السلام
باذرع الجنود
وسيرة الرجال .. »

(عبدالرحمن فخري)

ثورة ١٤ أكتوبر (تشرين الاول) لم تكن وليدة الصدفة . والرصاصات التي انطلقت في ذلك اليوم من العام ١٩٦٣ من جبال ردفان لم تكن قرارا مفاجئا اتخذته الجبهة القومية . وقيام هذه الجبهة بالذات كان وليد اختمار طويل ، على كافة الاصعدة . ولا سيما على صعيد المعارك الكفاحية للشعب اليمني والنشاطات السياسية والتجارب التنظيمية التي أدت الى وضع النضال الشعبي في اطاره وفي مجراه الذي اتخذه بعد قيام التنظيم القيادي الحقيقي .

والحركة الوطنية في اليمن الجنوبي اتخذت معالم واضحة في بداية الخمسينات ، وذلك بعد أن ارتبط النشاط النقابي والانتفاضات السياسية والعسكرية المحدودة بموجة النمو العربي في أعقاب ثورة ٢٣ يوليو (تموز) الناصرية .

واذا كانت انتفاضات الشعب اليمني منذ القرن التاسع عشر وما قبله قد رسخت في الانسان اليمني روح التمرد على الظلم ، واذا كانت أعمال القمع الانكليزية والاقطاعية قد زادت في توعية الشعب ولا سيما جماهيره المسحوقة الى أهمية رص صفوفها وتجميع قواها ضد العدو الواحد في الخارج والداخل ، فان هذه النضالات كانت تبقى عاجزة عن احداث تغيير نوعي ، وعاجزة بالتالي عن طرح مسألة السلطة السياسية ، طالما انه لم تتوفر قوة سياسية منظمة تقود هذا النضال وتضع كافة الخطوط الرامية الى تحقيق النصر ، وطالما ان الاجواء العربية كانت غارقة في التبعية للاستعمار والاقطاعات المحلية ولا سيما في الخليج .

ومن ثورة بن عبدات في حضرموت في فترة ١٩٤١ ــ ١٩٤٥م الى ثورة الزبيري في العوالق العليا بين سنة ١٩٥٥ و ١٩٥٨ والتي أجبرت الانكليز بعد كفاح دام ثلاث سنوات على الانسحاب من المراكز العسكرية المقامة في الارض الجبلية الوعرة الممتدة بين المحافظتين الثالثة والرابعة ، الى ثورتي الدماني في العوازل والمجعلي في دثينة ، سنة ١٩٥٥ ــ ١٩٥٨ ، وثورة محمد وعلي بن بوبكر بن فريد في العام ١٩٥٨ ، واضرابات المزارعين الكبرى بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٣ .. كانت تتراكم لدى أبناء الجنوب في شتى الولايات والاقاليم والسلطنات ، ارادة واعية للتحرر الواحد ، وكانت هذه التحركات والانتفاضات تتلاقى بما تحفل به مستعمرة عدن من هزات شبه يومية ، ولا سيما اضرابات آذار الشهيرة العام ١٩٥٦ ، وتظاهرة مايو (أيار) العام ١٩٥٦ احتجاجا على زيارة اللورد لويد الوكيل البرلماني لوزارة المستعمرات الانكليزية ، واضراب عمال ميناء عدن واحجامهم عن تحميل السفن الانكليزية الاتية لضرب الشعب المصري في العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ ، والاضراب العام في ابريل (نيسان) سنة ١٩٥٨

ضد فتح أبواب عدن للهجرة الاجنبية من بلدان الكومنولث وخاصة الهند ، والانتفاضة التي قامت في أكتوبر (تشرين الاول) من العام ١٩٥٨ ضد انتخابات المجلس التشريعي الزائفة . وأخيرا ، لا آخرا ، الاضراب العام في اغسطس (آب) من العام ١٩٦٠ ضد قانون منع الاضراب والذي أحدث هزة كبيرة في الصفوف العمالية ، والاضراب الطلابي الشهير ولا سيما في كلية البنات في عدن .

كانت هذه الجداول من التحرك الشعبي تجد صداها في الهيئات والتجمعات النقابية والسياسية التي كانت قد نشأت في ظروف مختلفة وتحولت بفضل التطورات الى خلايا من النقاش والصراع الداخلي قبل أن تحسم الامور لصالح الثورة أو لصالح أعدائها .

واذا ذكرنا التنظيمات التي كانت قائمة قبل بداية الكفاح المسلح بصورته المنظمة والشاملة ، فلا بد أن نذكر كلا من : حزب « رابطة أبناء الجنوب العربي » ، والحركة العمالية في تنظيماتها وامتداداتها ، وحزب الاتحاد الشعبي الديمقراطي ، وحزب الطليعة وحركة القوميين العرب .

ورابطة أبناء الجنوب العربي كانت قد نشأت من خلال عدد من الجمعيات ومن بينها « الجمعية الاسلامية » التي تأسست سنة ١٩٤٩ تحت شعار « رفعة شأن المسلمين والاخاء بينهم » ثم تجمدت وافرزت بعضا من الشباب الذين أسهموا في انشاء حزب الرابطة ، ومن بينها أيضا « الجمعية العدنية » ذات الطبيعة الارستقراطية والتي كونتها سنة ١٩٥٠ عائلات برجوازية كومبرادورية متحالفة مع الاستعمار ، وبهدف احتكار الوظائف للعدنيين وعدم اقامة العلاقات مع الاقاليم الجنوبية ، و « حزب المؤتمر الشعبي » وتأسس عام ١٩٥٤ كاستمرار للجمعية العدنية وبدعم من بعض الجاليات الاجنبية . وكان هناك أيضا « الحزب الوطني الاتحادي » وقد عبّر ، سنة ١٩٥٤ ، عن نهج بريطاني جديد يقوم على تجميع مناطق الجنوب الى جانب عدن في اتحاد بأكثرية عربية وبزعامة الجماعات المرتبطة بالانكليز ، فقام برنامج

« الحزب الوطني الاتحادي » على دمج عدن في اتحاد الجنوب ، وقد اشترك رئيس الحزب ، حسن بيومي ، مع وزراء الاتحاد الفدرالي للامارات في مؤتمر لندن في يوليو (تموز) ١٩٦٢ لاقامة اتحاد في الجنوب . وكانت له عناصر عمالية داخل « المؤتمر العمالي » في عدن لكنها انسحبت فيما بعد .

في ظل هذه الظروف قامت « رابطة الجنوب العربي » أو « رابطة أبناء الجنوب العربي » . وكانت قد نشأت أيضا تحالفات سياسية محلية أسهمت بدورها في ايجاد الروافد لحزب الرابطة . وبينها محاولات لتحقيق الوحدة الحضرمية، بحيث تضم السلطنتين في حضرموت ، وذلك بمبادرة من عبدالله شيخان الحبشي الذي أصبح فيما بعد الامين العام للرابطة . وكذلك احدى الحركات الاصلاحية في العوالق ، ومحاولة قام بها سلطان لحج ، علي عبدالكريم ، تحت شعار مقاومة تدخل بريطانيا في شؤون السلطة ورفض معاهدة « الاستشارة » التي حاولت بريطانيا فرضها على السلطنة أسوة ببقية مناطق الجنوب ، وكان ضمن هذه الحركة عبدالله علوي الجفري ومحمد علي الجفري الذي تولى رئاسة الرابطة عند قيامها .

وهكذا وفي عام ١٩٥٠م وبعد عدة اجتماعات بهدف محاربة الاتجاه الانفصالي في عدن وتوحيد أجزاء اليمن الجنوبي في مواجهة بريطانية ، كونت الجماعات التي التقت لتدارس الموقف حزبا أسمته « رابطة ابناء الجنوب العربي » . وكان من بين المؤسسين ، فضلا عن الحبشي ومحمد علي الجفري وعبدالله الجفري ، كل من عمر محضار الكاف وعلي بن عقيل ، وقحطان الشعبي وقريبه علي محمد سالم الشعبي اللذين أصبحا عضوين في حركة القوميين العرب في الجنوب ثم في الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل . وكان هناك عبدالله باذيب الذي كوّن فيما بعد ، في أواخر الخمسينات ، « الاتحاد الشعبي الديمقراطي » وهو التجمع الماركسي الذي لعب دوره البارز في حياة البلاد .

ويلاحظ أن الفئات التي تشكلت منها « الرابطة » كانت خليطا

من المصالح ، وهذا يرجع لأسباب عديدة ومن بينها ظروف الطبقات في اليمن آنذاك وعدم توفر وضوح طبقي كامل بين هؤلاء المتجمعين للقول بوحدة الجنوب اليمني . وتكاد تكون ظروف هذه الرابطة ، ومنشأها البرجوازي الكبير وروافدها الشعبية ، شبيهة بظروف ما مثله حزب الوفد في مصر(1) .

وكان من أبرز مواقف حزب الرابطة ، اعلانه في العام ١٩٥٦ انه يؤيد قيام « دولة الاتحاد » على أن تكون مستقلة استقلالا كاملا وأن تصبح عدن جزءا منها مع اقفال باب الهجرة الى عدن . كما أعلن ايمان الحزب بوحدة الجنوب العربي وبالقومية العربية . وكان للحزب ، رغم نفوذ السلاطين فيه ، دور معين في داخل نقابات عدن العمالية ، عدا عن نفوذه في المنظمات الاجتماعية والثقافية .

والحركة العمالية في عدن كانت لها تقاليد مهمة ، على رغم الضعف النسبي للطبقة العاملة في الخمسينات واقتصار معظمها على قطاع الخدمات والميناء والمصفاة .

وكان قد حدث في داخل حزب الرابطة اكثر من هزة على أساس سياسي وطبقي . وعندما قامت انتخابات المجلس التشريعي في عدن عام ١٩٥٥ وخططت القوى الوطنية والنوادي والنقابات لافشال الانتخابات لان بريطانيا حرّمت على أبناء اليمن من الشمال الاشتراك فيها ، عندها رفضت الرابطة الالتزام بمخطط الاطراف الوطنية التي جمعت صفوفها لهذه الغاية . فاشتركت في الانتخابات ، وأدى ذلك الى استقالة العديد من أعضائها ودخلوا في تحالف مع الاطراف المجتمعة لانجاح الحملة الشعبية لمقاطعة الانتخابات . فتكونت « الجبهة الوطنية المتحدة » وكان من قادتها عبدالله باذيب ومحمد عبده النعمان الحكيمي وعبدالله

(1) يمكن ، في ما يتعلق بحزب الرابطة والاحزاب الصغيرة التي تكون منها ، مراجعة العديد من الوثائق والكتب التاريخية ومن بينها كتاب محمد علي الجفري « حقائق عن جنوب الجزيرة العربية » ، ونشرة « رابطة الجنوب العربي » ولا سيما في نوفمبر ١٩٦٢ ، وكتاب سلطان أحمد عمر عن تجربة الثورة اليمنية ، فضلا عن كتاب الدكتور أحمد عطية المصري « تجربة اليمن الديمقراطية » .

الاصنج ، وانطلقت أساسا من التحرك العمالي ومن نشاط الطلبة والموظفين ، وارتبط نموها بنمو ثورة عبدالناصر .

واصطدمت الحركة العمالية أكثر فأكثر بالتكتلات التي يسيطر عليها الاقطاع والتقليديون ، وكان تشغيل مصفاة البترول في عدن حدثا بارزا سنة ١٩٥٥م فدخلت النضال الشعبي أوساط عمالية جديدة وخاصة من الشمال ، وهي مرتبطة بالصناعة بشكل مباشر وليس بالخدمات .

وأدت حملة المقاطعة ضد الانتخابات المزعومة الى تكريس الانفصال والقطيعة بين الجماهير العمالية وبين الهيئات المصطنعة المعادية للمصالح العمالية .

كما أدى المناخ العربي التحرري وقيام الوحدة بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨م ، واشتراك عمال عدن في الحملة ضد العدوان الثلاثي على مصر ، وقيام « اتحاد الدول العربية » الى زيادة نمو الموجة التحررية وارتباطها بالكفاح العربي والافريقي ضد الاستعمار البريطاني الذي اضطر للتراجع في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فضلا عن تعاظم دور الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية العالمية . وبين تكوين أول نقابة عمالية في عدن سنة ١٩٥٢م والوصول الى ٣٢ نقابة تضم ٢١٥٠٠ عضو في عام ١٩٦٢م ، تاريخ قصير ولكنه حافل ، وان كان ثلاثة أرباع عمال البلاد ظلوا في سنة ١٩٦٢ خارجين عن التنظيم النقابي لأسباب عديدة ، تشريعية وصناعية .. والطبقة العاملة تعرضت للنهب المتزايد ، وتعرضت للتسريح والتمييز ضد العامل اليمني ، واعترف الحكام الانكليز مرارا بأن أحوال العمال في عدن مشينة . وقد استطاعت القيادات الشابة من العمال والعناصر التقدمية المنشقة عن حزب الرابطة والعاملة في داخل النقابات وفي « الجبهة الوطنية المتحدة » ، استطاعت ان تشكل « المؤتمر العمالي » سنة ١٩٥٧م ، مستفيدة من ازدياد عدد النقابات ومن النمو السياسي وتطور المعارك التحررية العربية . وجاء في برنامج المؤتمر العمالي ان الحركة العمالية معادية للاستعمار وتطالب بجلاء قاعدته العسكرية في عدن ، وانها ستدافع عن حقوق العمال

في مواجهة الاستعمار وأصحاب الاعمال ، واعتبرت بأن محاربة الاستغلال والاقطاع أمر ضروري « لارساء حياة اشتراكية فعالة » .

كما شجب برنامج المؤتمر العمالي المحاولات الدستورية التي تزّور ارادة الشعب اليمني شمالا وجنوبا ، وشجب تآمر الرجعية وطغيانها في الشمال تحت ستار الدين الاسلامي ، ودعا الى محاربة « العناصر المشبوهة والتي تخشى نمو الطبقة العاملة وهي : الموظفون ذوو الرواتب الخيالية ، التجار المغامرون ، حكام الجنوب ، وحفنة من رجال الدين تواطأت مع المستعمر وحفنة أيضا من المقاولين » .

وبدأت المواجهة العمالية تأخذ المزيد من السخونة في مواجهة القمع الاستعماري والتضييقات المتزايدة على الحقوق والحريات ، وكان عليها أن تواجه الامور بمزيد من الصراحة ، وأن تفضح جميع أشكال التلاعب بالقضايا المصيرية .

لكن الاشكال الملتوية عادت ونشطت ، من جانب القوى الهامشية أو المرتبطة بالنشاط الاستعماري بشكل مباشر أو غير مباشر .

والظروف التي أحاطت بقيام وتطور « حزب الشعب الاشتراكي » في سنة ١٩٦٢ ، معبرة تماما في هذا المجال .

فقد تأسس الحزب المذكور بمبادرة من قيادة الحركة العمالية ، عندما دعا المؤتمر العمالي العناصر « الوطنية الشريفة » الى دراسة فكرة انشاء « حزب سياسي ثوري تكون له قاعدة شعبية تشمل بجانب العمال صغار التجار والمزارعين والشباب والمرأة والخريجين » . وبرنامج الحزب دعا الى تحرير اليمن شمالا وجنوبا من الحكم الامامي ومن الاستعمار البريطاني ومن السلاطين ، ودعا الى انتخابات عامة وحرة في كل الجنوب ، والى أن تكون وسائل الانتاج بيد الشعب فيما عدا الملكيات الصغيرة . وقام الحزب بحملات ضد الوجود الاستعماري والانتخابات المزيفة ، وأيّد الوحدة اليمنية ، وحارب الانفصالية

والتقوقع . ولكن ، سرعان ما بدت عوامل الضعف والتقهقر في النهج السياسي للحزب وخصوصا عندما رفض مبدأ الكفاح المسلح رغم اعلان بعض قادته مواقف معاكسة ، فضلا عن عدم فهمه لطبيعة الصراع في المنطقة والعالم ، فكان يضع السلاطين والامام والخطر الشيوعي في نفس المرتبة .

كانت تركيبة « حزب الشعب الاشتراكي » غير منفصلة عن التشتت وظروف التردد والصراع ضمن الحركة العمالية وقيادتها النقابية . وقد ساهم الحزب في ابقاء الحركة العمالية بعيدة عن الوعي السياسي المنظّم ، وأبقى فجوة بين عمال المدينة وشغيلة الريف . وجاءت ثورة سبتمبر في الشمال لتدعم من مكانة الحزب وتقضي على نقطة الضعف التي مفادها انه كان متهما بالمطالبة بالوحدة مع اليمن الامامية (الشمال) .. لكن الحزب لم يستفد من الفرصة لطرح شعار الكفاح المسلح ، ولم يكن في مصلحة القائمين عليه أو معظمهم أن يقودوا النضال في الجنوب على أسس واضحة كليا . فكان من الطبيعي أن يصطدم بالوقائع الجديدة ، ومنها ما يتعلق بنمو التنظيمات السياسية ذات التوجه الوطني والقومي والطبقي الاكثر وضوحا والتي لا ترتبط بالاقطاع . وكلها احزاب وثيقة الارتباط بالطبقة العاملة وشاركت في الماضي بنضالات كبيرة ، ولو في درجات متفاوتة . وأبرزها حزب الطليعة (فرع حزب البعث في اليمن) وحزب الاتحاد الشعبي الديمقراطي ، وحركة القوميين العرب .

وحزب البعث هو فرع من « حركة البعث العربي » التي تأسست في العام ١٩٤٢ على صعيد الوطن العربي وعقدت مؤتمرها التأسيسي في العام ١٩٤٧ داعية لوحدة الامة العربية والقضاء على التجزئة ورافعة شعار الاشتراكية العربية ورافضة فكرة الامامية .

وفي اواخر الخمسينات تأسس فرع حزب البعث في اليمن وتحالف مع المؤتمر العمالي وحزب الشعب الاشتراكي حتى أوائل الستينات . وكان معظم نفوذه بين البرجوازية الصغيرة ، وبشكل محدود في الحركة العمالية . وكان الحزب واحدا من القوى

الاربع التي تجمعت ، بعد انهاء ارتباط الجمهورية العربية المتحدة باليمن الشمالي في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦١ ، فطالبت بالقضاء على مظاهر التفتت في اليمن وتأسيس جبهة عريضة لمواجهة الرجعية والاستعمار والامام . وذلك الى جانب القوى الثلاث المهمة الاخرى : المؤتمر العمالي ، الاتحاد اليمني ، وحركة القوميين العرب في اليمن .

وقد أثرت التطورات العربية وكذلك ضعف النفوذ العمالي في الداخل في التقليل من فعالية حزب البعث فرع اليمن ، وذلك على رغم الجهود التي قام بها التنظيم الحزبي في اليمن لانتزاع استقلالية معينة عن التنظيم الواحد والنهج الواحد لحزب البعث على الصعيد العربي ، وبما ينسجم مع ظروف البلاد ، مما جعل هذا التنظيم في اليمن ينطلق الى تأمين ظروف الاستقلالية الكاملة بواسطة النهج العملي على ارض الواقع اليمني ، وبدون انتظار قرار سياسي مركزي . سيما وان اللقاءات التي قامت في أواخر الستينات مع الفروع الاخرى في عدة بلدان عربية ، لم تعط نتائج ايجابية في ظروف الانقسام التي عاشها الحزب على الصعيد العربي .

هذا مع العلم بأن كتب ميشال عفلق ومنيف الرزاز انتشرت كثيرا في اليمن مع نمو القومية العربية والحركات التحررية على الصعيد العربي ، وكذلك مع ازدياد اليأس ، في اوساط المثقفين والحرفيين والفلاحين ، من التنظيمات المترددة والميالة للتواطؤ مع أبناء رابطة الجنوب . وكان هذا اليأس في كل حال من ابرز الاسباب لانطلاق الاحزاب الوطنية والتحررية ومنها حزب البعث ، وحركة القوميين العرب ، والاتجاهات الناصرية بصورة عامة .

غير أنه ، وان كانت البرجوازية الصغيرة قد وجدت في الناصرية مخرجا لها من ترددها وتذبذبها ، فشكلت تنظيمات سياسية تابعة للمنظمات القومية المركزية كحركة القوميين العرب والبعث والناصرية ، الا أن عبدالفتاح اسماعيل يرى أن هذه المنظمات وان كانت قد مثلت ردا راديكاليا وأكثر ثورية بالنسبة لـ « الجمعية العربية » وحزب الرابطة ، فعملت على تعميق

الحس الوطني في الجنوب اليمني كله ، الا أنها لم تنجح في سنوات لاحقة في خلق حركة وطنية يمنية شاملة موحدة تناضل ضد الاستعمار البريطاني في الشطر الجنوبي وضد النظام الملكي الكهنوتي في الشطر الشمالي(٢) .

وفي هذا الاطار فان حركة القوميين العرب كانت قد استطاعت ان « تكسب » ، أكثر من سواها ، الموج الشعبي الذي أطلقته الناصرية . وخصوصا وان حزب البعث حالت خلافاته مع الرئيس عبدالناصر دون الاستفادة الكافية من هذا التيار .

وقد دعت حركة القوميين العرب التي استهلت نشاطها في مطلع الخمسينات ، الى الكفاح ضد الاستعمار بكافة صوره وركائزه ومحاربة طبقة الاقطاع وطبقة البرجوازية الكبيرة والنضال ضد العدو المشترك الامبريالي والصهيوني من أجل تحرير فلسطين والوطن العربي وتحقيق الوحدة العربية في اطار تقدمي معاد للاستعمار . وقد انبثقت أولى حلقات القوميين العرب في الجامعة الاميركية في بيروت من بضعة عناصر من أبناء البرجوازية المتوسطة والصغيرة . وكانت أبرز الاتجاهات الفكرية في البداية التوعية القومية البحتة ومنع اثارة أي شيء عن الصراع الطبقي ، باعتبار أن المرحلة الاولى من المعركة هي سياسية ومن أجل وحدة الامة ، والمرحلة الثانية مرحلة التصدي للقضايا الاقتصادية والاجتماعية في اطار « مصلحة الامة ككل » .. لأن القومية لا تعترف بوجود الطبقات . كما كانت الحركة تهاجم الماركسية والشيوعية .

وقام فرع الحركة في عدن عام ١٩٥٩ وطالب باسقاط حكم الامام في الشمال وبمناهضة الاستعمار والاقطاع والبرجوازية العميلة وتحقيق الوحدة اليمنية . وحقق انتشارا معينا لدى بعض صفوف طلبة الريف الذين يدرسون في عدن ، واهتم بالحركة العمالية ايضا، وأعطى قضية التنظيم أهمية خاصة ، من حيث الاسس التنظيمية واسلوب التحرك والقيادة الجماعية و « القيادة للاكفاء » ، ومن جهة ثانية من حيث الاسس

(٢) عبدالفتاح اسماعيل ، جريدة « الثوري » ، ١٤ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧١ .

الايديولوجية والسياسية حيث اعتبرت الحركة ان تحسن احوال العمال لن يتحقق الا عبر معركة التحرر من الاستعمار ، وان الكفاح ضد الاستعمار وعملائه لن يقتصر على الاسلوب السلمي بل يتعداه الى انتهاج الكفاح المسلح .

واوضحت الحركة ان المعركة في هذا الجزء من الوطن ستكون جزائر ثانية . وهي في النهاية ، كما هو واضح منذ البداية معركة كفاح مسلح عنيد لا لين فيه ولا مهادنة ومعركة دماء وبطولات لا تراجع فيها ولا مساومة .

واعتبرت الحركة في اليمن الجنوبي انه « من الناحية الجغرافية والاستراتيجية ، من الصعب قيام اية ثورة مسلحة تنتهي بالنصر الاكيد اذا لم تجد متنفسا وسندا لها في الشمال يتيح لها نوعا من المرونة العسكرية والتقدم والتقهقر والتموين وغيرها من العناصر الاساسية في اية ثورة مسلحة » .

وقد ادت التطورات العربية والحركة الداخلية للثورة الناصرية في مصر وقضايا الوحدة المصرية السورية وسواها ، الى بعض التبدل في رؤية الحركة تجاه التحليل الاجتماعي ومسألة الطبقات . ومنها بعض التمايز في قيادة الحركة عن الخط المركزي ، واعلانها بعد انفصال سورية عن مصر ان الثورة العربية الاشتراكية انقلاب جذري يستهدف تغيير بنية المجتمع وعلاقته و « لا بد ان تصطدم بتكتل طبقي رجعي لن يلقي السلاح بسهولة ولن يتلكأ في خوض معركة الدفاع عن امتيازاته حتى النفس الاخير »(٣) .

وقد أسهمت الحركة في الجهود الرامية لتحقيق الوحدة الوطنية في اليمن الجنوبي ، واتخذت بعض النفوذ في الحركة العمالية انطلاقا من النقابة العامة لعمال البترول ، لكنها عادت واصطدمت بقيادة المؤتمر العمالي منذ سنة ١٩٦٠ ثم بقيادة حزب الشعب الاشتراكي بعد عام ١٩٦٠ ، وبعده اشتد الصراع والعداء بينها وبين حزب الشعب منذ ١٩٦٣ . واستطاعت الحركة

(٣) محسن ابراهيم ، « في الديمقراطية والثورة والتنظيم الشعبي » ، دار الفجر الجديد ، بيروت ١٩٦٢ ، ص١٨ .

ان تقدم تصورا واضحا عن الكفاح المسلح وأهمية الدعم من الشمال ، وذلك حتى قبل قيام ثورة ٢٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٢ . كما استخدمت أسلوب التنظيم السري والانتشار بين الطلبة والعمال والموظفين .

الا أن الحركة استمرت في عدائها للماركسية لفترة طويلة ، وكانت تعادي « الاتحاد الشعبي الديمقراطي » وتصفه بأنه مناهض للقومية العربية وتعلن أن الشيوعيين خانوا هذه القومية(٤) .

وكانت الافكار الماركسية قد انتشرت بصورة محدودة في اليمن عندما قام عبدالله باذيب من خلال نشاطه ، داخل التنظيمات السياسية والعمالية والطلابية في الجنوب منذ سنة ١٩٥٠م ، باصدار صحيفة شهرية ثم بتحرير مقالات في عدة صحف ومن بينها « البعث » و « الجنوب العربي » و « الفجر » . وتسببت كتاباته الملتهبة والدافعة الى الثورة ، بتقديمه الى المحاكمة في سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٥٥ ، بتهمة اثارة الكراهية ضد الحكومة .. وقد شجب باذيب النزعة الانفصالية العدنية وحمل على الاستعمار بوصفه مرحلة من مراحل الراسمالية ودعا الى مفاهيم جديدة هي الاشتراكية العلمية . وكان من ابرز الذين انفصلوا عن « رابطة الجنوب العربي » وفضح مواقفها الانتهازية ، وكان على راس مجموعة الشباب التي كونت « الجبهة الوطنية المتحدة » لتناضل بشكل جدي ضد الاستعمار والرجعية(٥) . ثم

(٤) يمكن ، في هذه المجالات ، مطالعة كتاب سلطان أحمد عمر المذكور آنفا ، وكتابات قحطان الشعبي ، فضلا عن سلسلة محاضرات لحركة القوميين العرب في « القومي » ، مطبوعة في كتاب مخصص للتثقيف القومي لخلايا الحركة . وكتيب آخر للحركة ، فرع اليمن ، يتناول الحركة العمالية في جنوب اليمن ، وقد صدر في عدن سنة ١٩٦١ .

(٥) راجع كتاب سلطان أحمد عمر المذكور آنفا ، ص٢٣ ــ ٢٣٢ ، وكتاب محمد علي الجفري المذكور آنفا ، ص٤٩ . ويمكن أيضا مطالعة كتاب « توابل » الذي جمع مقالات باذيب سنة ١٩٥٥ (مطبعة الحرية ، عدن) والكتاب الجديد « مختارات » من كتاباته (دار الفارابي ١٩٧٨) .

انشأ تنظيما باسم « الاتحاد الشعبي الديمقراطي » وقد عمل في ظروف صعبة ومن بينها روح العداء للشيوعية آنذاك حتى في أوساط المؤتمر العمالي في عدن الذي اتهم حكومة الامام بأنها تسمح ل « النشاط الشيوعي والاستعماري بالتوسع والازدياد دونما رقيب » !

وفي برنامج الاتحاد الشعبي الديمقراطي ورد أن المرحلة هي مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي ، وأن النضال ضد الرجعية والتخلف لا ينفصل عن النضال ضد الاستعمار البريطاني في الجنوب ، وطالب بتصفية القواعد والاحتكارات الاستعمارية ومقاومة مخطط الهجرة الاجنبية الى عدن ، وتحقيق الوحدة اليمنية .

ودعا الى كل أشكال النضال الوطني و « الاستعداد للنضال حتى أبلغ درجاته » ، بالاعتماد على نضال الجماهير ومشاركتها الكاملة . واعتبر الحزب أن الاساليب الاصلاحية والدستورية والعرائض والمذكرات لا تكفي ، وأن على الجماهير أن تتعلم على كافة أشكال النضال وتتعرف على كيفية وتوقيت استخدامها لتحقيق اهدافها .

وشجب الحزب محاولات بعض الاطراف الوطنية لاقامة تنظيم قومي موحد على أساس غير ديمقراطي وبمعزل عن الجماعات الاساسية في الحركة الوطنية . وطالب بأربعة أسس للوحدة اليمنية : الاستقلال الحقيقي للشمال ، حكم ديمقراطي شعبي في الشمال ، الربط بين كفاح أبناء الشطرين الوافدين الى الشطر الاخر ، ثم ممارسة حق تقرير المصير الموحد بعد مواجهة المشاريع الزائفة الاستعمارية في الجنوب .

كما اعتبر أن الشعب في اليمن « يشكل جزءا لا يتجزأ من وطننا العربي الكبير » ، ودعا الى تحقيق الوحدة العربية الشاملة .

في اطار هذه القوى وتفاعلاتها وصراعاتها ، وفي اطار تبلور الوضوح السياسي والطبقي والقومي وتبلور فكرة الكفاح المسلح في ضوء التجارب اليمنية والعربية والعالمية ، نشأت القوى التي

وحدت ، الى هذه الدرجة أو تلك ، كفاح الشعب ضد الاستعمار .

وبعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر (أيلول) في الشمال نشأت لجنة تحضيرية أقامت تجمعا لأبناء الجنوب المجتمعين في صنعاء ، ومنهم المئات من ابناء ردفان وقد شاركوا في الدفاع عن ثورة الشمال . وظهر في ميثاق الجبهة الجديدة ، التي سميت « الميثاق القومي لجبهة تحرير الجنوب اليمني المحتل » ، تحذير من محاولات منح الاستقلال الشكلي للجنوب اليمني ، وطرحت فكرة تجميع القوى الوطنية بالجنوب من أجل تحريره وتحقيق الوحدة . لكنها حملت على « الشيوعية المحلية المتربصة » . وكان من بين الموقعين قحطان الشعبي وناصر السقاف وعبدالله المجعلي ، الخ .

ورفع المجتمعون كتابا الى المشير عبدالله السلال رئيس الجمهورية العربية اليمنية الذي احاله بدوره الى قحطان الشعبي مستشار رئيس الجمهورية لشؤون الجنوب اليمني المحتل . والكتاب يطالب حكومة اليمن الشمالي الوطنية برعاية ودعم الحركة الوطنية في الجنوب ماليا واعلاميا وعسكريا . كما يطالب بجمع شتاتها بجبهة موحدة لقيادة العمل المسلح . ورغم العقبات الشديدة فالمحاولات الاولى عام ١٩٦٣ اعطت ثمارها . وفي يوليو (تموز) من نفس السنة اعلنت حركة القوميين العرب في الجنوب مباركتها لجهود فرع الحركة في الشمال والمناضلين من أبناء الجنوب المتواجدين في صنعاء لاقامة جبهة قومية .

وفي أغسطس (آب) ١٩٦٣ عقد اجتماع حاسم لثوار الجنوب وصدر عنه بيان رسمي بقيام « الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل » ، وشكلت قيادة للجبهة مكونة من ستة ممثلين عن قطاع القبائل وستة ممثلين عن حركة القوميين العرب . وواجهت الجبهة مناواة من بعض العناصر الرسمية في الشمال اليمني والتي كانت تعطف على حزب الشعب الاشتراكي .

القيادة الحقيقية تفرض نفسها شبراً شبراً على الانكليز وعلى «العرب»

« .. من غير المعقول ان تبنى قاعدة الخليج لحماية عدن في الوقت الذي كانت فيه عدن قاعدة لحماية بترول الخليج » .

(المندوب السامي البريطاني
اللورد شاكلتون ، ١٩٦٧)

الجبهة القومية تأسست في الواقع عن طريق تجمع عدد من القوى والتنظيمات والشخصيات التي اعلنت ايمانها بالكفاح المسلح. وابرزها : حركة القوميين العرب في الجنوب المحتل ، الجبهة الناصرية ، الجبهة الوطنية ، المنظمة الثورية لجنوب اليمن المحتل ، وجبهة الاصلاح اليافعية التي كانت قائمة بالمحافظة الثالثة ، وتشكيل القبائل الذي كان له نفوذه العسكري والسياسي واكتسب مضمونا جديدا بقيام الثورة المسلحة . واخيرا ، التشكيل السري للضباط والجنود الاحرار وكان قد لعب دورا في الحياة العسكرية وقد اهتمت الجبهة القومية بمؤسسة الجيش ومؤسسة الامن العام فاكتسبت عددا كبيرا من افرادهما في اطار من النشاط السري والمنظم ، مع ان سلطة الاستعمار والسلاطين والمشايخ كانت قد انشأت هاتين المؤسستين لخدمة أهدافها ولضرب الحركة

التحررية . كما ركزت الجبهة على الطبقة العاملة واستطاعت ان تقود تيارا مستقلا في الحركة العمالية من خلال « النقابات الست » الرئيسية وهي : النقابة العامة لعمال البترول ، نقابة عمال وموظفي البنوك المحليين ، نقابة عمال الانشاء والتعمير ، نقابة عمال امانة الميناء ، اتحاد عمال الطيران المدني ، والنقابة العامة للمعلمين . وقامت الجبهة القومية والنقابات المتحالفة معها بحملة صحافية وسياسية ضد المجلس التنفيذي لـ « المؤتمر العمالي بعدن » ، وخاصة في جريدة « الامل » ، بينما كانت صحيفة « العمال » التابعة للمجلس التنفيذي تتحاشى الدفاع الفعال عن العمال وتسلك نهجا انتهازيا يمينيا . وكونت « النقابات الست » لجنة مستقلة وسحبت الثقة من المجلس التنفيذي ، معلنة ان علي حسين القاضي رئيس المؤتمر العمالي وعبدالله الاصنج امين عام المؤتمر العمالي لم يعد لهما وضع رسمي داخل المؤتمر .

وسيطرت الجبهة القومية على معظم الهيئات الجماهيرية واقامت تنظيمات في معظم مناطق الجنوب من مدن وارياف . لكن الوضوح السياسي النسبي في خط الجبهة لم يمنع قيام صراعات عنيفة في داخلها ، ولا سيما بين كبار المشايخ والبرجوازيين وبين العمال والفلاحين ، الى أن تمكنت القيادات المتقدمة نسبيا ، وتنتمي في معظمها الى البرجوازية الصغيرة ، من السيطرة على الحركة ومن الاستفادة كليا من التطورات اليمنية والعربية ، بفضل تأثير حركة القوميين العرب التنظيمي والعسكري والسياسي وبفضل العلاقات الخاصة بقيادة الجمهورية العربية المتحدة . وقد برزت ، في كراسات الجبهة القومية ومقالاتها ، اهمية مبدا القيادة الجماعية وبناء الكوادر والالتزام بالحياة الحزبية السليمة ، ومنع قيام تيارات أو أجنحة في التنظيم الثوري ، وكذلك التلاؤم السريع مع متطلبات المعركة وتكييف اشكال النضال تبعا لتبدل الظروف .

لكن الحركة كانت تهاجم أسس التنظيم اللينيني والافكار الاشتراكية العلمية ، وذلك انطلاقا من المستوى الفكري الذي كان سائدا في حركة القوميين العرب . والمقاييس التنظيمية

لحركة القوميين العرب كانت قد وضعت ، كما هي ، بتصرف الجبهة القومية . لكن بعض التعديلات اخذت تبرز ، وخصوصا في المؤتمر الثاني للجبهة وكشفه للانحرافات ولعدم صدق القيادة مع القواعد .. وذلك كله كان يجري وسط صراع يهز المجتمع اليمني والمجتمع العربي كله ، حيث اتخذت التأثيرات الناصرية وانجازات الثورة العربية على اليمن الجنوبي اشكالا متعددة لكنها كانت ممزوجة بتأثير المخابرات المصرية ذات العلاقة الوثيقة بالاوساط الاقطاعية .

وكان أن انعقد المؤتمر الاول للجبهة القومية من ٢٢ الى ٢٥ يونيو (حزيران) من العام ١٩٦٥م ، وصدر عنه « الميثاق الوطني » الذي كان رغم غموضه وعدم وضوحه في الموقف من الاشتراكية العلمية ومن دور الطبقة العاملة ، خطوة مهمة ومتقدمة في أكثر من ناحية . فهو يتجاوز الافكار المتعصبة والشوفينية لحركة القوميين العرب ، فيطرح افكارا اقتصادية واجتماعية للتحرر الكامل من الاستعمار ، كما يحدد اهمية العمل التنظيمي والتثقيفي للجماهير . وفي هذا المؤتمر بدات ترتسم بوضوح ، على حد تعبير عبدالفتاح اسماعيل ، معالم الافتراق والاختلاف في ما يتعلق بالخط السياسي العام الذي كنا نطرحه .. كان هناك من يرفض الاعلان عن اي اتجاه اشتراكي علمي ويقول ان الاعلان خطأ . وكنا نصر من ناحيتنا .

ويضيف اسماعيل(١) : ان الميثاق ، وهو يضع خلفية فكرية عامة تدعم النضال المسلح وتقويه ، كان في نفس الوقت يعبر عن خطين بدآ يتبلوران داخل الجبهة القومية : المقاتلون وقياداتهم في الداخل يطرحون افكارا اكثر ثورية مستمدة من الواقع النضالي الساخن الذي يعيشونه ، ومن الالتصاق المباشر بجماهير الفلاحين والعمال والبرجوازية الصغيرة . والقيادات الخارجية التي كانت هي في نفس الوقت الواجهات الجماهيرية المعروفة للجبهة القومية ، وبالرغم من الدور الهام الذي لعبوه في الدعم السياسي والاعلامي في

(١) مقابلة مع عبدالفتاح اسماعيل في مجلة « البلاغ » اللبنانية ، ١٤ مايو (أيار) ١٩٧٢ .

الخارج للثورة الا انهم كانوا بشكل عام أكثر ميلا الى الافكار الوطنية العامة منها الى الافكار الطبقية المحددة .

وظل هذان الخطان متواجدين بصورة أو بأخرى حتى بعد الحصول على الاستقلال في سنة ١٩٦٧(٢) .

وحدث في سنة ١٩٦٥ بالذات ، وبعد أن كانت عمليات الجبهة القومية قد أحدثت دويها في الاقاليم وفي مدينة عدن نفسها رغم التعتيم الاعلامي على عملياتها من جانب الدول العربية ، أن تأسست جبهة سميت « جبهة التحرير » ، من بين القوى التي سبق وأعلنت رفضها لأسلوب الكفاح المسلح كما شارك بعضها في المخطط البريطاني الخاص باعلان « دولة الاتحاد » ، وهي : حزب الشعب الاشتراكي ، ورابطة الجنوب العربي ، وهيئة تحرير الجنوب ، وكان في الهيئتين الاخيرتين مكان للصدارة لعدد من السلاطين الذين اختلفوا مع الادارة البريطانية ولا سيما حاكم لحج وحاكم يافع .. حيث يلاحظ بعض المفكرين انه فجأة اتحدت هذه القوى لتعلن رفضها للحلول التي تقدمها بريطانيا ، ولتدخل ساحة الكفاح المسلح .. ومنها حزب الشعب الاشتراكي بقيادة عبدالله الاصنج الذي رفض الكفاح المسلح منذ البداية بحجة أنه « لماذا نقتل الناس التي يمكن أن تنتج ، ولماذا نحرق الارض التي يمكن أن تزرع ؟ » ، فما الذي دفع الحزب الى تغيير موقفه من قضية النضال المسلح ؟ واذا كان حزب الشعب الاشتراكي قد اتخذ طوال تلك الفترة موقفا وسطا فان التنظيمات والشخصيات الاخرى المشتركة في جبهة التحرير كانت تتعاون بدرجة أو بأخرى مع السلطات البريطانية .. ومنها مجموعة السلاطين ، وعبدالقوي مكاوي الذي انضم بعد ذلك الى الجبهة وكان رئيسا لوزراء الحكومة الاتحادية التي شكلتها السلطات البريطانية .. وهناك آراء تقول انه من الطبيعي بعد أن اثبت النضال المسلح كفاءته وبعد أن شمل الجنوب كله أن تنجذب

(٢) كمثال على الجناح الاول (المقاتلين) يمكن ان نذكر عبدالفتاح اسماعيل وعلي ناصر محمد ومحمد صالح مطيع وعبدالعزيز عبدالولي . أما بالنسبة الى الجناح الاخر فنذكر قحطان الشعبي وفيصل عبداللطيف وطه مقبل .

الى الثورة قطاعـات أوسع من القيادات ممن كانت مترددة أو حتى محافظة ، وآراء أخرى تقول ان تشكيل جبهة التحرير جـاء في الاســاس ردا على التطور الراديكالي الذي طرأ على فكر الجبهة القومية ولايجـاد توازن في ســاحة النضال المسلح بين الافكـار الراديكالية والافكـار المحافظة(٣) .

ومهما تكن العوامل التي دفعت الى انشاء « جبهة التحرير » ، فـان هذه الجبهة (التي جرى التحضير لهـا في اجتماع بمبنى الجامعة العربية في القاهرة وتحت رعايتها في الخامس مـن يوليو (تموز) ١٩٦٤م صدر عنه بيان مشترك ضد الاستعمار البريطاني وجرائمه ، ثـم نشأ تنسيق لقيام وطني للجنوب ثم قيام « منظمة تحرير الجنوب المحتل » تنفيذا لقرار القمة العربية) هذه الجبهة التي ضمت عنـاصر متباينة بل متعاكسة الاهداف الاستراتيجية فضلا عن تباين الانتماء الطبقي ، أدى قيامها عمليا الى تفتيت العمل المسلح في داخل الجنوب المحتل ، كما أدى الى تعطيل حركة الجدل الفكري التي كانت تسود قواعـد وقيادات الجبهة القومية وخاصة منذ المؤتمر الاول للجبهة وصدور الميثاق .. فبينما كان الجـدل الخصب ، على ارضية النضال المسلح ، يـدور ويستقطب بـين الاتجـاه الراديكالي في الجبهة القومية والاتجـاه القومي العـام ، كان بروز جبهة التحرير بفكرها التقليدي المحافظ نوعـا من أنواع احباط التطور الايجـابي للحركة الفكرية في الجبهة القومية فـي اتجـاه مزيد من تحـديد وبلورة الخط الفكري الناضج . وبدات تظهـر على السطح آراء وأفكـار أخـرى تتعلق بتوحيد الجبهتين والحوار بينهما ، وهو الحوار الذي كان يـأخذ شكل الحوار المسلح في أحيان كثيرة .. وباختصار ، ســاعد بروز جبهة التحرير على بناء الفكر التقليدي المتخلف داخل الجبهة القومية واحتفاظه بمراكزه القيادية(٤) .

ويعتبر العـديد من القادة والمفكرين ان الانظمة العربية التي

(٣) فتحي عبدالفتاح ، « تجربة الثورة في اليمن الديمقراطية » ، ص٦٨ ــ ٧١ .
(٤) عبدالفتاح اسمـاعيل ، مجلـة « الثوري » ، ١٤ أكتوبـر (تشرين الاول) ، ١٩٧١ .

احتضنت جبهة التحريـر وقـدمت لها المساعـدات والتسهيلات الاعـلامية ، كانت تصور للمـواطن العربي أن جبهة التحرير هي القوة الوحيدة الموجودة في النضال المسلح على ســاحة الجنوب ، وكانت تنسـب كثيرا من عمليات الجبهة القومية الى جبهة التحرير .. وكان من نتائج قيام هذه الجبهة أن الخلاف اشتد بين المصريين، ذوي النفوذ الكبير في اليمن الشمالية وأصحاب الدور الاساسي في تسليح مقـاتلي الجنوب وتدريبهم ، وبـين الجبهة القومية التي وجـدت نفسها في وضع دقيق وحرج .

وفي ١٣ يناير (كانون الثاني) من العام ١٩٦٦م صدر بيان في القاهرة يعلن دمج الجبهة القومية ضمن جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل .

يومها قـال البعض انه دمج انقـلابي ، والبعض الاخر انـه انقـاذ للجبهة القومية لأنه يصعب ان تستمر بدون دعم الجمهورية العربية المتحدة . وأول ردود الفعل على عملية الدمج كان بيانا من الامين العام للجبهة القومية ، قحطان الشعبي ، يعلن فيه رفضه لعملية الدمج ، ويقول ان علي سلامي قـد تفرد بالتوقيع دون عقد مؤتمر وطني للجبهة . وأيدت الدمج حركة القوميين العرب مركزيا، ورفضته حركة القوميين العرب في شمال اليمن .

ويقول عبدالفتاح اسماعيل ، الذي انتخب في ذلـك الوقت عضوا في المجلس التنفيذي للجبهة القومية ، في مجـال وصف الحالة الدقيقة التي عاشتها الجبهة آنذاك :

حينما طرحت قضية الوحـدة مع جبهة التحرير كـان هناك ثلاثة اتجـاهات : اتجـاه ساند الوحدة بدون قيد أو شرط وقـد تركز في بعض القيادات الموجودة في الخـارج من أمثال طه مقبل وســالم زين . واتجاه رفض بشكل قاطع فكرة الوحـدة مع جبهة التحرير وكـان يمثله أيضا بعض القيادات الموجودة في الخـارج ويسـانـده جناح صغير في الداخل (قحطـان الشعبي ، وفيصل عبداللطيف) أمـا الاتجاه الثالث وهو الغالب بين الثوار ومناضلي الجبهة القومية فقـد أعلن موافقته على الوحـدة من ناحية المبدأ ، وبضرورة توحيد كل فصائل العمل الوطني بشرط الا يشمل هـذا

التوحيد ألعناصر المعروفة بعمالتها للسلطة الاستعمارية والتي ليس لها مصلحة جقيقية في الثورة ، وخاصة السلاطين ..

يومها ذهب عبدالفتاح اسماعيل الى القاهرة ليشرح للرئيس عبدالناصر الحجم الحقيقي الهزيل لجبهة التحرير في النضال المسلح ، باعتبار أن الجبهة القومية هي المسيطرة فعلا ، وليقول له انه لا بد من استبعاد السلاطين والعناصر المشبوهة . وتوجه جورج حبش ومحسن ابراهيم الى القاهرة والتقيا بالرئيس جمال عبدالناصر لشرح هذه القضية .

ويقول اسماعيل انه كانت معلومات عبدالناصر خاطئة كليا وأن مدير المخابرات المصرية « استدعاني وقال مهددا : اسمع .. اما الوحدة مع جبهة التحرير واما وقف المساعدات العسكرية والمادية » .

واستمر الوضع على هذا النحو حتى عقد المؤتمر الثاني للجبهة القومية من ٧ الى ١١ يونيو (حزيران) ١٩٦٦م وما صدر عنه من اتجاه للحل الوسط ، ثم انعقاد مؤتمر الاسكندرية في اغسطس (آب) من العام نفسه والاتفاق على اقامة منظمة واحدة على أساس جبهوي لا اندماجي ، فيكون الثلث للجبهة القومية والثلثان لجبهة التحرير ، وعلى أساس عدم الاعتراف بالسلاطين .

على أن القيادات العسكرية وقواعد الجبهة رفضت هذا الاتفاق ، وعقد مؤتمر في « حمر » حضرته غالبية القيادات الموجودة في ساحة القتال(٥) . واعلن المجتمعون رفضهم لاتفاق الاسكندرية وللوحدة مع السلاطين كما قرروا تكثيف القتال ضد السلطات الاستعمارية ، وتدعيم نفوذ الجبهة في المناطق المحررة . وانطلقت بالفعل عمليات شديدة العنف ضد الانكليز وعملائهم في كافة انحاء البلاد . وكان لقرار الانسحاب نتائج كبيرة ، حسمت الخلافات الكثيرة ضمن جبهة التحرير ، وضربت امكانيات « التسوية » السياسية مع المستعمرين واعادت طرح مفهوم الوحدة الوطنية بين المناضلين ، على أن يكون نابعا من الحوار وبرنامج عمل موحد ،

---

(٥) كان عبدالفتاح اسماعيل معتقلا في سجن صنعاء ثم جرى ترحيله الى القاهرة ، كما كان قحطان الشعبي وفيصل عبداللطيف مجمدين في القاهرة .

ومناخ سليم ووقف الحملات والاستفزازات والاشاعات التي كانت بعض الاجهزة العربية تطلقها ضد الجبهة القومية . وتقدمت هذه الجبهة بمشروع برنامج تفصيلي للوحدة الوطنية ، بحيث تكون بمثابة لقاء استراتيجي لكل القوى الثورية ، مع اجراءات مرحلية للتنسيق بين المؤمنين بالتغيير الشامل والجذري والتلاحم مع حركة التحرر العربية والعالمية .

ووجهت الجبهة القومية طوال سنة ١٩٦٧ الضربة تلو الضربة لمواقع الانكليز وجماعاتهم ، كما قامت بتصفية وتدمير مراكز حزب الرابطة ومكاتبها ، والمناخ الثوري في البلاد جعل السلطان القعيطي في حضرموت ، مثلا ، يبادر هو نفسه الى اعتقال بعض قادة هذه الرابطة وذلك على سبيل التقرب من القوى الثورية في حضرموت .

وتطورت العمليات العسكرية رغم الحصار المصري على مصادر الاسلحة ورغم استئثار جماعة جبهة التحرير بالمساعدات والدعم ، فكانت الجماهير اليمنية في داخل الجنوب تبادر الى التبرع لدعم المقاتلين ، على النحو الذي رأيناه لدى الجولة مع مقاتلي جيش التحرير وفدائيي الجبال اليمنية .

وتطورت الامور الى درجة جعلت بريطانيا تقوم بأعمال ونشاطات ديبلوماسية لتطويق الانتصارات التي حققتها الثورة . الى أن اعترف اللورد شاكلتون ، ممثل بريطانيا ، انه عاجز عن الهروب وعاجز عن المزيد من التورط ، واطلق المندوب السامي الجديد عبارته الشهيرة ومفادها ان بريطانيا لن تستطيع حماية عدن بعد أن زال الوجود البريطاني من افريقيا واقيمت قاعدة عسكرية بريطانية في الخليج لحماية البترول ، ومن غير المعقول أن تبنى قاعدة الخليج لحماية عدن في الوقت الذي كانت فيه عدن قاعدة لحماية بترول الخليج .

التطورات كانت سريعة . والخدع البريطانية كانت ايضا سريعة . وكان وفد من حكومة « الاتحاد » توجه الى لندن لوضع ترتيبات مشتركة « لحماية » الدولة الجديدة بعد الاستقلال .. وتصاعدت الضربات ولا سيما في شهر يونيو (حزيران) من عام

١٩٦٧ - وعلى النحو الذي سوف نراه فيما بعد ، أصبح شعار الانكليز العملي هو الانسحاب بأقل الخسائر ودون ضجيج ، وايجاد السبيل للحفاظ على بعض النفوذ والمواقع بعد الاستقلال ، ومنها أن وزير الخارجية البريطانية طرح في ١٩ يونيو ١٩٦٧ فكرة الموافقة على « رفع الحظر » عن الجبهة القومية ، حتى تسهم مع جبهة التحرير ومع التقليديين والسلاطين في دولة اتحادية « مستقلة » وبوجود قوة بحرية بريطانية .

لكن الحسابات الانكليزية لم تكن في محلها . والدهاء الانكليزي الشديد لم يعط نتائجه ولم يستطع التغلب على بنادق الثوار .

وعندما كانت بريطانيا منغمسة في « اعادة ترتيب » أوضاعها وأوضاع المنطقة العربية في أعقاب نكسة الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ ، عندها كانت الجماهير اليمنية تقوم بـ « ترتيب » الامور وباشعال الارض تحت أقدام المستعمرين وكل القوى المتواطئة معهم . وكانت هزيمة المستعمرين والسلاطين على يد الجبهة القومية وايضا على يد الجنود والضباط الوطنيين في الجيش والامن العام ، حيث كان لكل واحد دوره .

وسقطت سلسلة أعمال الخداع الانكليزي الممتدة من اعلان انتهاء « الاتحاد » الذي سقط بسقوط مواقع السلاطين ، الى محاولة الزج بالجيش العربي لتولي السلطة والاصطدام بالجبهة القومية ، الى مساعي افتعال الحرب الاهلية بين اليمنيين . كلها مساع كانت تنهار بفضل سلسلة من التحركات والاقتحامات المتواصلة من جانب المقاتلين الوطنيين ، خصوصا بعد الخامس من حزيران (يونيو) وطموح الشعب اليمني الى التعويض عن خسارة الامة العربية فكان له حزيران من نوع آخر .

وفيما يلي بعض العناوين ، نكتفي بها فهي أكثر من معبرة :

مدينة كريتر : سقطت بيد الجبهة القومية في ١٩٦٧/٦/٢٠ واستعادها الجيش البريطاني بعد احتلال ثوري للمدينة دام اكثر من اسبوعين وفاجأ العالم كله .

الضالع : سقطت بيد الجبهة القومية في ١٩٦٧/٦/٢٢

واعتقل الامير شعفل .

الشعيب : ٦/٢٥ ، اعتقال الشيخ وأسرته .

المفلحي : ٨/١٢ ، اعتقال الشيخ .

لحج : ٨/١٣ ، هروب الاسرة الحاكمة .

دثينة : ٨/١٣ ، هروب الشيخ .

العواذل : ٨/٢٧ ، هروب الاسرة الحاكمة .

زنجبار : ٨/٢٨ ، هروب الاسرة الحاكمة .

يافع السفلى : ٨/٢٨ ، اعتقال السلطان عيدروس وبعض افراد أسرته .

يافع العليا : ٩/٢ ، اعتقال جميع المشايخ العملاء .

مشيخة العقربي : ٩/٢ ، اعتقال الشيخ وأسرته .

العوالق السفلى : ٩/٩ ، قتل النائب واعتقال آخرين .

القعيطي : ٩/١٦ ، طرد السلطان .

بيحان : ٩/١٨ ، هروب الشريف وابنه الى السعودية .

حريب : (في الشمال) ٩/١٩ ، طرد الفلول الملكية اليمنية .

الكثيري : ١٠/٢ ، طرد السلطان وأعوانه .

المهرة : ١٠/١٤ ، اعتقال السلطان وأعوانه .

واستمرت السلسلة . مدينة الصعيد تسقط ومعها مشيخة العوالق العليا في ١٩٦٧/١٠/٢٧ ، السيطرة الكاملة على عدن وضواحيها في الاسبوع الاول من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٧ : دار سعد ـ الشيخ عثمان ـ المنصورة . وفي ١٩٦٧/١١/٢٩ تسقط مدينة نصاب وسلطنة العوالق العليا ، ثم سقط المعقل الاخير وهو جزيرة سقطرة ، ١٩٦٧/١١/٣٠ وهو يوم الاستقلال .

قحطان الأول كان سقوطه عظيما

(من المؤتمر الرابع الى الحركة التصحيحية)

« نحن قادرون على ارغام الاحتلال الاجنبي في ارضنا على ان يحمل عصاه ويرحل ... ولن يكون في المنطقة فراغ بعد رحيله ، لان المنطقة ليست فضاء عاريا ، وانما المنطقة تسكنها امة عربية قادرة على الاخذ باسباب القوة » .

(جمال عبدالناصر)

بين التلال التي تتكون منها مدينة كريتر المشرفة على عدن وعلى البحر ، كانت تقوم جدران منيعة لسجن شديد القساوة . اشعة الشمس التي تتسرب من خلال التلال نادرا ما تتسرب الى اجسام المناضلين الذين كانوا قابعين في هذه البقعة الحالكة السواد . وكانت عدة سجون أخرى منتشرة حول مدينة عدن ، في المنطقة التي تعتبر اليوم المحافظة الاولى من الجمهورية .

وكانت بريطانيا تتولى اعداد مجموعات من القيادات التقليدية التي كان مطلوبا منها ان تنقل الشعب اليمني من سجن الى سجن . من سجن الاستعمار المباشر وغير المباشر لعدن وأقاليم الجنوب ، الى سجن النظام الخاضع للتبعية بعد الاستقلال . وكان على ثوار اليمن أن يختاروا . فسلوك الطريق الراسمالي في

ظل أوضاع البلاد كان معناه استمرار التقهقر والفقر والامية والكوابيس القديمة . واختيار طريق آخر كان أمرا في غاية الالحاح ليس فقط في نظر الجناح الاكثر تقدما من الجبهة القومية التي انتزعت السلطة ، بل ايضا في نظر الكثيرين من ضباط وجنود الجيش والامن العام والشرطة ، وكان هؤلاء يلمسون بالتجربة معاني الذل الوطني والاجتماعي ، ويدركون انه اذا لم يتحقق تغيير جذري ونسف للاجهزة والمؤسسات التي يهيمن عليها الاقطاع والبرجوازية التابعة للاحتكارات الغربية ، وما لم يقم جهاز ثوري من نوع جديد فالاستقلال يصبح حرفا ميتا .

وبعد هبوط موقع « جبهة التحرير » وقبلها هبوط وانهيار « حزب الرابطة » وقبله اتحاد الجنوب العربي وجيشه الذي لعب دورا سلبيا وكان اداة للاستعمار ، انتقل مركز الصراع الى داخل الجبهة القومية بعدما اضطرت بريطانيا الى تسليم الحكم للجبهة القومية بالذات تحت نيران العمليات الثورية التي اجتاحت البلاد كما اجتاحت السجون والمواقع السياسية والتنظيمية التي كان يتغلغل من خلالها الاستعمار في داخل القوى السياسية . والمعروف أن الانتفاضات الكبرى في شهر يونيو ١٩٦٧ كان من اسبابها المباشرة التمييز الذي قامت به قيادة الجيش التابع للاتحاد ، ضد الضباط الوافدين من مناطق البلاد الريفية ، فجاءت انتفاضة الفريق الوطني في داخل هذا الجيش بالذات ، دليلا قاطعا على ان الجبهة القومية كانت لها جذور عميقة في جميع الاوساط المتضررة من سياسة التحكم الطبقي والاستعماري .

لكن القوى التي تجمعت حول الجبهة القومية المنتصرة لم تكن جميعها منسجمة في انتماءاتها الاجتماعية والسياسية . واذا كانت الجبهة قد استطاعت احباط مشاريع الاعداء وجماعة المخابرات المصرية ، فضلا عن المرتبطين بالزعامات الرجعية ، فهذا لا يعني ان الطريق اصبح سالكا وآمنا امام الجبهة في المرحلة الجديدة . فهناك اطراف في الجبهة القومية بالذات كانت قد خاضت كفاحا مريرا ضد اي محاولة لتجذير الخط السياسي

للثورة . قحطان الشعبي مثلا ، الذي تسلم القيادة لم يكن وقوفه ضد مشاريع جبهة التحرير الا كرد فعل شخصي لأن المصريين استبعدوه مع الفريق الذي يمثل .

والصراع الذي كان قد حدث بين جبهة التحرير والجبهة القومية واتخذ اشكالا مسلحة ولا سيما في صيف سنة ١٩٦٧ في ضواحي عدن وخصوصا منطقة الشيخ عثمان ، هذا الصراع الذي كانت بريطانيا تتفرج عليه وتغذيه ليتحول الى حرب اهلية مما يمنع الحصول على الاستقلال كما يستنزف قوى الثورة .. هذا الصراع اتخذ اشكالا اخرى بعد نهاية ١٩٦٧ وذلك بعد أن حاول اليمين في الجبهة القومية بالذات أن يضرب ضربته ليمنع الجناح الثوري التقدمي من الوصول الى تحقيق تغييرات أساسية في الاقتصاد والمجتمع والمؤسسات ، ولو ادى ذلك الى حرب أهلية من جديد .

والانكليز لم يكونوا بعيدين عن هذه الصراعات ضمن الجبهة القومية . وقد حاولت بريطانيا ادخال عدد وافر من المتعاونين معها الى الجبهة القومية ، كما عملت على زيادة الصراع بين الجبهة القومية والرئيس جمال عبدالناصر وتصوير الاعتراف الانكليزي بالجبهة القومية كسلطة للاستقلال ، بأنه ضربة ضد عبدالناصر وبأنه مدخل الى سلوك نهج يمسك فيه الانكليز بخناق البلد بحجة انه بلد معزول عن مصر الثورة وعن الرجعية العربية في آن واحد . وهذا من الاسباب التي جعلت بريطانيا تسرع في الخضوع للارادة الوطنية فتسلم الحكم الى الجبهة القومية .

ويعتبر عبدالفتاح اسماعيل ان التطويق الاعلامي الخارجي الذي تعرضت له الجبهة القومية عربيا ودوليا كان من الاسباب التي جعلت الاستعمار وقيادة الجيش والامن العام يعتقدون أن وصول الجبهة القومية الى السلطة وهي تعاني من كل تلك الثغرات سوف يمكنهم بالتالي من احتواء الثورة وافراغها من محتواها التقدمي في الفترة اللاحقة من استلامها السلطة .

لكن بدايات الفشل البريطاني كانت تلوح بالافق ، سيما وأن اتفاقية الاستقلال التي وقعها قحطان الشعبي وفيصل عبداللطيف

وعبدالفتاح اسماعيل في جنيف كانت خالية من اية مكاسب او ضمانات معينة للانكليز . فلا بعثة عسكرية انكليزية ، ولا قواعد ولا سيطرة على أراض يمنية . وأيضا ، لا قبول باضاعة جزر اليمن . وذلك فيما عدا جزيرة كوريا ـ موريا التي تشبثت بها الانكليز ورفضوا اي تنازل بشأنها .

لكن هذه البوادر المشجعة لسلوك خط سياسي واجتماعي مستقل لم تكن تعني ان هذا الخط سوف يبنى من غير عوائق ، ومن غير مشاكل معقدة ، ومن غير دماء .

فقد تبين أن عددا مهماً من المسؤوليات القيادية في التنظيم والدولة أعطيت الى العناصر غير المشاركة في العمل المسلح من الداخل . ما عدا عبدالفتاح اسماعيل الذي عين وزيرا للثقافة والذي بالكاد سمحوا له ان يمارس دوره في التوجيه الثقافي وفي القيادة السياسية . كما حرص بعض هذه القيادات التي كان يطلق عليها لقب « جناح الخارج » ، على « تسريح » قيادات العمل المسلح باعتبار أن الاستقلال قد تحقق ولم يعد هناك حاجة لهم . كما أن قيادة الجيش والامن العام ، وهي نفسها التي كانت تتعاون مع سلطات الاحتلال ، رفض قحطان الشعبي تغييرها واصر أيضا على ابقاء الكادرات الادارية التقليدية في مناصبها .

وفي ظروف هذا الصراع بين القوى المتقدمة داخل الجبهة ، المطالبة بتغيير أجهزة السلطة القمعية واجراء اصلاح زراعي جذري وتأميمات للمصالح الاحتكارية ، وبين الجناح التقليدي الذي دعمته العناصر الدخيلة من عسكرية ومدنية والقائل ببناء دولة على الاسس التقليدية ، في ظروف هذا الصراع عقد المؤتمر الرابع للجبهة القومية في الثاني من مارس (آذار) سنة ١٩٦٨ وكانت قراراته ، رغم اتجاهها الوسطي ، انتصارا للجناح الراديكالي . مع أن الجناح التقليدي كان ممسكا بالسلطة . ومن هذه القرارات، الاتجاه للتغيير الجذري في أجهزة الجيش والسلطة ، واجراءات اقتصادية تستهدف قيام اقتصاد وطني انتاجي متحرر من عجلة الرأسمالية العالمية ويقوم على أساس قيادة القطاع العام للحياة الاقتصادية في البلاد وافساح المجال لتطوير الحركة

التعاونية ، وكذلك قيام القطاع المختلط بمشاركة الراسمال الخاص ، كما اقترح مشروع اصلاح زراعي جذري .

واعتبر المؤتمر الاشتراكية العلمية منهجا فكريا للثورة ، على أساس تفسيرات محددة وواضحة . وقرر المؤتمر انتخاب قيادة عامة للجبهة كانت أغلبية اعضائها من العناصر الراديكالية(1) .

وقد اعتبرت قرارات المؤتمر تحديا للجناح التقليدي .. فازدادت حدة الصراع واستخدم هذا الجناح قواه العسكرية والادارية ، كما استخدمت القوى الاستعمارية نفوذها لتدخل اللعبة من جديد ومن الباب الواسع .

وتجاهلت القيادة التلقيدية القرارات ولم تنفذ اي شيء . وعقدت القيادة العامة الجديدة المنتخبة سلسلة اجتماعات بين ١٥ و ١٨ مارس (آذار) ... وفي ليلة ١٩ مارس تحرك الجيش وأجهزة الامن العام واعتقلوا ١٦٠ شخصا بينهم معظم اعضاء القيادة المنتخبة وعدد من القيادات المهمة الاخرى من الجناح المناضل في الداخل . كما اعتقل عدد من القيادات الوطنية الاخرى ولا سيما عبدالله باذيب رئيس منظمة شبيبة السلفي ، وكانت هذه المنظمة قد دعمت دعما قويا الجناح التقدمي من الجبهة القومية قبل انتزاع الاستقلال وبعده ، ووضعت امكانياتها ونفوذها في تصرف النهج المتقدم ضد جناح قحطان الشعبي .

ويقول بعض المفكرين أن الخطة كانت واضحة ، وان « الرصيد البريطاني » ممثلا في قيادات الجيش والبوليس قد تحرك لتصفية الجناح الراديكالي والثورة ، وفي صبيحة اليوم التالي – ٢٠ مارس (آذار) ١٩٦٨ – فرك رجال وزارة المستعمرات البريطانية في لندن أيديهم بابتسامة ثقة توحي بأن كل شيء يمضي في اليمن الجنوبية وفق المخطط البريطاني المرسوم ..

لكن الامور لم تكن بهذه السهولة . واجهزة الجيش والبوليس لم تكن تستطيع قبل الاستقلال مواجهة حركة النضال

(1) كان من بين أعضاء القيادة عبدالفتاح اسماعيل ، علي عنتر ، عبدالله الخامري ، صالح مصلح ، عوض الحامد ، عبدالعزيز عبدالولي ، محمد صالح مطيع ، علي ناصر ، علي سالم البيض ، محمد سعيد عبدالله ..

المسلح . وسلطة « قحطان » لم تكن قد دعمت مراكزها بعد وخاصة في المحافظات ، ولم يكن الرصيد الجماهيري للجناح الحاكم في الخارج منعكسا بنفس الدرجة في الداخل . واعتقال ١٦٠ من العناصر القيادية قد يعطل بعض النشاط ولكن هناك مئات اخرى من الكوادر ذات الوعي السياسي العالي وقد تكونت بالارتباط مع الجماهير في نضال شرس لمدة اربع سنوات(2) .

وبالفعل ، فقد تحرك موج من الجماهير في الريف وفي عدن وسائر المدن ، كما تحركت بعض قواعد الجيش والامن واعلنوا تمسكهم بالقيادة التقدمية .. وهذا اضطر بعض القيادات التقليدية وبينهم قحطان الشعبي وفيصل عبداللطيف الى التراجع المؤقت والانتظار .

وفي اليوم التالي صدر قرار بالافراج عن جميع المعتقلين .

وفي ٢٥ مارس (آذار) أعلن قحطان الشعبي قانون الاصلاح الزراعي ، وذلك لكسب بعض الشعبية في الريف . على أن قانون الاصلاح لم يقم على أسس صحيحة .

وفي ١٤ مايو (ايار) قامت انتفاضة مسلحة من جانب القيادات الراديكالية وتمركزت في المحافظة الثالثة وفي المحافظة الثانية والمحافظة الخامسة . وفي أواخر الشهر نفسه قامت قوات من الجيش بمطاردة الثوار وقامت معارك دامية سقط فيها عدد كبير من أبطال النضال المسلح . وتمكن الجيش من تصفية المحافظة الخامسة ، آخر معاقل الجناح الراديكالي ، بينما تحصن عدد آخر من قادة هذا الجناح في المحافظة الرابعة وفي بعض الجبال في الخامسة . وأعلن الجيش عن تصفية « المتمردين » . واعتبرت القوى الاستعمارية ومعها المملكة العربية السعودية ان الفرصة قد حانت للاطاحة حتى بالقيادات التقليدية في الجبهة القومية . وهذا ادى الى انقسام في الجيش على اساس قبلي . وشعرت العناصر التقليدية في السلطة ان الجيش هو السلطة وأن السيطرة عليه هي الاساس . فحاولت تحريك القيادات الموالية لها . وتحالف قحطان الشعبي مع مجموعة من القيادات العسكرية الرجعية في

(2) فتحي عبدالفتاح ، « تجربة الثورة في اليمن الديمقراطية » ، ص٩٢ – ٩٨ .

الجيش والبوليس ، وتحالفت السعودية مع مجموعة العوالق .
وحدث تصادم بين الفريقين ، وتدخلت القوات والمرتزقة من السعودية . ووجد ثوار الجبال ان عليهم الهجوم لمطاردة فلول المرتزقة وتدعيم مركز قحطان الشعبي رغم كل شيء ، ضد الغزو الخارجي .

وعاد عبدالفتاح اسماعيل الى عدن ، وكانت قوات الثوار قد نجحت في مطاردة المرتزقة وتحرير المحافظة الرابعة . وكان الجناح الوسط المشارك في السلطة مع قحطان الشعبي قد اتخذ موقفا ايجابيا وطالب بضرورة عودة جميع الرفاق المطاردين في الجبال . وعادوا ، وأفرج عن سائر المعتقلين .

لكن الخلافات لم تتوقف بين الجناحين . وكانت الظروف تتطور لصالح الجناح الراديكالي ، خصوصا لأن قوات الجيش والامن العام قد استنزفت في المعارك القبلية داخل صفوفها ، والجناح الراديكالي اكتسب خبرة كبيرة خلال وجوده تحت المطاردة ، والمترددون في قيادة الجبهة القومية تضامنوا معه .

ثم قام صراع مع قحطان عندما قدم اعلانا دستوريا يعطي رئيس الجمهورية حقوقا واسعة جدا ، فيكون هو السلطة وله الحق في كل شيء أن يقرر وينفذ ، ابتداء من اعلان الحرب حتى فصل الموظفين . ويبدو ، على حد تعبير بعض المؤرخين ، ان قحطان لم يستفد شيئا فقد قرر أن يكرر بنفس الاسلوب ما سبق وحدث في ٢٠ مارس (آذار) ١٩٦٨ ، ولكن الظروف كانت قد تغيرت .. وقبل أن تتحرك قيادات الجيش والامن التلقيدية كانت القيادات الوسطى والقواعد هي التي تحركت هذه المرة .

وفي صباح ٢٢ يونيو (حزيران) ١٩٦٩ كان الجناح الراديكالي قد سيطر على الموقف تماما ومنع اذاعة البيان الذي كان قد أعده قحطان الشعبي(٣) .

(٣) يراجع بالنسبة الى هذه الفترة الدقيقة من حياة الشعب اليمني ، كتاب فتحي عبدالفتاح ، المذكور آنفا ، والمناقشات والكتابات الواردة في صحيفة « الثوري » في أكثر من مجلد ، وكذلك خطب وكتابات قادة التنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية في السنوات الاخيرة .

واعتبرت « ٢٢ يونيو » بداية للعمل الجاد للتغيير الشامل ، وبداية حقيقية للمجابهات الجديدة التي تستمر الى يومنا هذا . ومنها المجابهة مع الرجعية العربية ، ومع قضية الوحدة اليمنية ، ومع الخطط الامبريالية في الخليج العربي وقد ازدادت حدة بازدياد الهجمة الاميركية بعد غياب الرئيس جمال عبدالناصر .. وكان على ثوار اليمن ان يتابعوا ، في الداخل ، أكثر القضايا تعقدا في حياة اي بلد مشابه . فقد خرج الانكليز من البلد دون أن يقيموا مشروعا مهماً واحدا ، ومفاوضات الاستقلال انتهت برفض بريطاني لدفع جنيه واحد كمساعدة لهذا البلد الذي نهبه الانكليز واستفادوا من أرضه مئة وثلاثين عاما في غزواتهم الاستعمارية الى الشرق والجنوب الاسيوي فضلا عن افريقيا .

وهناك ، بالطبع ، التخلف الاقتصادي ، والصحارى الجرداء والتلال البركانية غير الصالحة للزراعة . وهناك الامية ، والاطفال الذين يموتون من سوء التغذية ، والتأثيرات القبلية ، والمرتزقة والتدخلات .. وهناك البناء الفكري والتنظيمي والسياسي في التنظيم وفي الدولة ومؤسساتها . وكذلك ، الواجبات تجاه الحركة التحررية العربية والافريقية . وهناك أيضا مسألة التربية الجديدة للانسان الذي شارك في العمل الوطني في فترات معينة ثم اعتقد أن دوره انتهى لأن الاستقلال قد تحقق .

وهنالك ، أيضا وأيضا ، الهجرة الكثيفة الى الخارج ، ونتائجها الاجتماعية ، والعلاقة الاقتصادية مع دول الخليج وتأثير ذلك على ميناء عدن وعلى حياة البلاد .. وغيرها وغيرها من الامور الشائكة التي أخذها على عاتقهم أولئك الشباب الشجعان الذين تطلعوا حولهم ، بعد الحركة التصحيحية في ٢٢ يونيو ١٩٦٩ واذا بالامة العربية تحتاج الى جهودهم والى طاقات شعبهم في الوقت الذي تكبل يديهم الضائقة المالية وتكبل شعبهم الازمات والحصار والتخلف والعادات والتقاليد البالية وانعدام المواصلات والاضطرار للهجرة .

ولكن ، كلما ازدادت التحديات كان عود المناضلين يتصلب .

غير أن قادة اليمن الديمقراطية لم يكونوا ربما يعتقدون بأنهم سوف يضطرون ، الى جانب مواجهتهم لأعداء الخارج والداخل وأعداء الانسان والطبيعة ، الى مواجهة خطر الانحراف في داخل السلطة مرة أخرى ، وفي عام ١٩٧٨م بالذات ، بعد أن بعثت وترعرعت من جديد بعض الامراض والنزعات التي استطاعت الثورة أن تقضي على الكثير من أصولها وفروعها ، ولا سيما منها الروح القبلية والنزعة الفردية والتخبط البرجوازي الصغير ..

من يونيو الى يونيو
الثورة تغيّر وتتغيّر : تبني طريقها وحزبها

« ان قوة التنظيم السياسي الموحد كامنة في الوحدة السياسية والايديولوجية والتنظيمية بين صفوفه وهذا يتطلب من جميع الاعضاء الالتزام الصارم بتنفيذ قراراته . ويجب الا توجد داخل التنظيم تكتلات تعمل ضد البرنامج والنظام الداخلي والقرارات الخاصة بالتنظيم ، لان ذلك يحول دون تمتع هذه العناصر بشرف الانتماء الى طليعة الشعب . وفي ذلك تتجلى اهمية مبدا التطهير » .

(المادة الرابعة من النظام الداخلي للتنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية كما أقره المؤتمر التوحيدي ، ١٩٧٥) .

بعد حركة ٢٢ يونيو التصحيحية بدات القوى الحية في المجتمع تحاول ان تلعب دورها بتنظيم وفعالية . وقادة الثورة كانوا قد اكتسبوا تجربة واسعة من خلال احتكاكهم بالجماهير من جهة ومن خلال اطلاعهم على تجارب الشعوب الاخرى من جهة ثانية . وكلمات « الجزائر » و « كوبا »

و « فيتنام » اصبحت من الكلمات اليومية التي يتداولها الشباب اليمني . ومنذ المؤتمر الرابع للجبهة القومية في شهر مارس ١٩٦٨ كان التيار اليساري قد اثبت ، في ما طرحه من اقتراحات تحولت في معظمها الى قرارات ، عن روح خلاقة في النظر الى قضايا العالم وفي الاستفادة من الثورات ومن تجاربها الناجحة والفاشلة . ورغم الاطار الضبابي الذي جاءت فيه عبارات ميثاق الجبهة ، الصادر سنة ١٩٦٥ ، الا أن الميثاق طرح منذ تلك المرحلة تغييرات اجتماعية واقتصادية لمصلحة الكادحين في المدينة والريف . كانت « لهجة » الميثاق وبعده وثائق المؤتمرات ولا سيما مؤتمر زنجبار في عام ١٩٦٨ تنم عن بداية للوضوح النظري وللفهم غير الجامد للثورة العربية الناصرية ، مرفقة بنفحة اممية تتجلى في التضامن مع عمال العالم وثوار آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية . كما تتجلى في التحليل الطبقي لقضايا المجتمع ولا سيما المجتمع اليمني .

على أن الاختيارات الثورية للصف القيادي اليساري كانت تكبت بواسطة حجج نظرية واهية ، وايضا بالاتجاه نحو المركزية الشديدة ولجم الديمقراطية ، فضلا عن آثار القبلية في الممارسة على صعيدي السلطة والتنظيم السياسي .

عوامل الكبت لم تعد قائمة بعد الحركة التصحيحية في العام ١٩٦٩ . على الاقل من حيث نوعية القيادة ومن حيث بداية رسوخ الاتجاه الى ايجاد مشاركة جماهيرية في صياغة القرارات وتنفيذها .

وكانت النظرية الاشتراكية العلمية تختمر في صفوف كل من الجبهة القومية والاتحاد الشعبي الديمقراطي وحزب الطليعة الشعبية ، وتجد انعكاسها بين الجماهير الواسعة . وكان تبني الاشتراكية العلمية والنضال للانطلاق بالبلاد على أساس مغاير للطريق الراسمالي في التطور ، عنصرين بارزين من عناصر الحوار الذي اخذ طريقه الى التبلور : من جهة على الصعيد الشعبي وفي كل قطاع من القطاعات ، ومن جهة ثانية في داخل التنظيم السياسي ــ الجبهة القومية ، ومن جهة ثالثة على صعيد العلاقة

بين فصائل العمل الوطني ، حيث نشأت أشكال من الحوار والتعاون بين الجبهة القومية وكل من الاتحاد الشعبي الديمقراطي وحزب الطليعة الشعبية .

فعلى الصعيد الشعبي لعب القطاع العام دورا بارزا في تطوير الاقتصاد ، وقامت خطة ثلاثية اعدها التنظيم السياسي ــ الجبهة القومية وحققت نجاحات مهمة في تحرير الاقتصاد الوطني من سيطرة الشركات الاجنبية (قرارات التأميم في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٩ ، انتقال العديد من الشركات والمؤسسات والمصارف وقسم من التجارة الخارجية والداخلية الى القطاع العام ، اعداد برنامج جذري للاصلاح الزراعي وتنفيذه عن طريق تحريض الفلاحين حتى يثوروا بأنفسهم وينتزعوا الارض ، وهو الموضوع الذي ستكون لنا عودة اليه ، وايضا اعداد الوسائل الكفيلة بوضع الخبرات والكوادر اليمنية في طريق استلام المرافق . واعطي اهتمام شديد بتطوير الصناعة وانشئت مصانع كبيرة للغزل والنسيج وللجلود والاحذية والخياطة .. وفي الثروة السمكية ازداد حجم التصدير وادخلت وسائل جديدة وقضي على علاقات الانتاج الاستغلالية في هذا المجال . وقامت مشاريع ومؤسسات زراعية كبيرة ، وانشئت ست محطات لتأجير الاليات الزراعية ، و ٣٩ مزرعة دولة تضم ٢٣٦٠ عاملا وعاملة ، اما انتاج الثروة السمكية فانتقل من ١٠٨ر٣ الف طن العام ١٩٣٩م الى ١٤٨ر٧ ألف طن في العام ١٩٧٦م حيث أصبح يعمل في هذا المجال اربعة آلاف عامل وعاملة .

وأدت التغييرات في الزراعة الى بناء أسس لنمو طبقة عاملة زراعية تتمتع بمستوى عال من الوعي كما تتمتع بالكفاءة الانتاجية . وقد برز الدور المميز لمحطات تأجير وصيانة الاليات الزراعية ، فأصبحت هذه المحطات مركزا عماليا مهماً من جهة ، واداة لدعم التعاونيات الزراعية ولتطوير الارض ومشاريعها من جهة ثانية ، كما أدت الى ترسيخ ارتباط الفلاحين بأرضهم ، وذلك الى جانب الاسباب الاخرى والضمانات التي تحققت للفلاح حتى يبني نفسه ويثق بالعمل الجماعي وينتقل الى اشكال أكثر تقدما في اطار

هذا العمل الجماعي .

هذا ، بالطبع ، الى جانب تطوير ميناء عدن تدريجيا والمباشرة باقامة الميناء الجديد و « المشروع متعدد الاغراض » قرب مدينة المكلا ، وتشغيل المصفاة بصورة مستقلة مع اشراف رسمي على سير العمل فيها رغم استمرار وجود بعض الكادرات الانكليزية فيها .

ونشأت الاسس الاولية لبناء طرق مواصلات في هذا البلد الذي أهمل الانكليز بشكل مقصود اية محاولات لايجاد روابط بين أبناء مناطقه المختلفة . وانشىء القطاع العام في مجال النقل البري واصبح هناك ٦٣ باصا في المحافظة الاولى سنة ١٩٧٣... واصبح العدد ٣٦٦ في سنة ١٩٧٦ . وتم شراء أعداد كبيرة من الشاحنات لنقل المواد الغذائية وسائر البضائع . وتم انزال ١٧٠ سيارة تاكسي و ٢٦ باصا صغيرا وسيارات « جيب » تابعة للدولة ، للعمل داخل خطوط المحافظات الاولى والثانية والثالثة .

وفي حقل البناء والانشاءات تم تشييد ما أمكن من التجمعات السكنية . وبلغ عدد العاملين في قطاع البناء والتشييد ٧٣٤١ عاملا وعاملة في نهاية سنة ١٩٧٦ ... وتطورت الخدمات الطبية والكادر الطبي وانشئت مستشفيات جديدة وعصرية (كريتر ، كاميلوه ، رصد ، الشحر ، القطن ، العيضة) ومراكز صحية واهتمام خاص بالاطفال ، وقضي على الامراض المعدية .

هذه الانجازات ، التي سنعود ونذكر أمثلة ومقارنات بشأنها ، اضيف اليها مساع لتغيير بنية قطاع التربية والتعليم وللقضاء على الامية . وتحققت في هذا الصدد تجربة في غاية الاهمية رغم الصعوبات التي جابهتها ، ورغم التقاليد القروية والدينية والبدوية التي اعترضت طريق الجيل الجديد ولا سيما بالنسبة الى الفتيات .

هذه التبدلات كان من شأنها ، بالاضافة الى نتائجها الاقتصادية والاجتماعية ، أن أقامت الاساس الفعال لبناء سلطة الدولة انطلاقا من المشاركة الجماهيرية في تسيير الامور وفي الخوض بمعركة التغيير الى أهدافها المرسومة .

فلقد تعزز موقع الطبقة العاملة ولا سيما منها الطبقة العاملة الصناعية في عدن والمدن الاخرى . وازداد دور عمال الريف وشغيلة مزارع الدولة وهي الشكل التعاوني الاعلى . واشتدت عزيمة الجيل الجديد والشباب الذي ينتمي الى أصل عمالي ، وأصبح قادرا ، ولو بشكل متفاوت ، على استيعاب تفاصيل الموجبات المتعلقة بالقيادة السياسية والجماهيرية والتنظيمية .

وجاء تنظيم الدورات الدراسية لتطوير الكوادر وتحسين كفاءتها في ادارة المؤسسات ومرافق الانتاج ، ليعطي دفعا جديدا لبرنامج اشراك الكادحين في ادارة المرافق وبالتالي في تسيير شؤون المجتمع .

وفي ١١ فبراير (شباط) ١٩٧١م تأسست المدرسة العليا للعلوم الاشتراكية . ولعبت المدرسة منذ البداية دورا مهماً في نشر أفكار الاشتراكية العلمية بين ملاكات الدولة والقطاع العام وسائر المنتجين في المدينة والريف . ذلك « اننا نريد الكادر الوطني الواعي لقضية بناء الاقتصاد الوطني ، والمرتبط بالوقت نفسه بالموقف الايديولوجي لثورتنا ، اذ ان الربط بين هذين الموقفين هو الضمان الصحيح لجعل كوادرنا تناضل من اجل تطوير اقتصاد الشعب » ، على حد تعبير عبدالفتاح اسماعيل في أعقاب انتهاء الخطة الثلاثية في عام ١٩٧١ ، حيث يضيف ، بالنسبة الى الإعوام اللاحقة : « ونحن نعلق اهمية كبيرة على الصناعة التي ستنشأ في الاعوام القادمة ، لانها اضافة الى كونها ستلبي احتياجات الجماهير من السلع المرتبطة بحياتها ، سوف توسع من قاعدة الطبقة العاملة اليمنية التي ندين لها بالولاء ونلتزم بنظريتها ، الاشتراكية العلمية » .

وفي الثاني من مارس (آذار) من العام ١٩٧٢ ، اعلنت الجبهة القومية في وثائق مؤتمرها العام الخامس ، شعار بذل الجهود لدراسة واستيعاب النظرية الاشتراكية العلمية دليلا ومرشدا للعمل ، مع تركيز الدور القيادي للطبقة العاملة بالتحالف مع الفلاحين .

كانت أعمال المؤتمر الخامس تمهيدا فعليا للانتقال بالثورة

الى مرحلة اكثر تقدما ، ولا سيما من حيث بنية السلطة السياسية وتوسيع جماهيريتها ، ومن حيث اعتماد الاسس الواضحة والمحددة للعضوية في التنظيم السياسي .

وقد جاء في النظام الداخلي الذي اقره المؤتمر تاكيد على المركزية الديمقراطية ، والقيادة الجماعية لحياة التنظيم ولشؤون الدولة ، كما نص النظام الداخلي على تأسيس المنظمات القاعدية للتنظيم في مختلف مرافق العمل والانتاج .

كان ذلك تطورا ملموسا في دور التنظيم السياسي :

– على صعيد الحياة الداخلية للتنظيم بالذات ، حيث اعتمدت اسس فعالة لاشراك الاعضاء والمنظمات القاعدية والهيئات المحلية وصولا الى اللجنة المركزية ، اشراكا ديمقراطيا في الممارسة السياسية العامة وفي الخط السياسي والانجازات .

– وعلى صعيد التنسيق الشعبي حيث اقر قيام مجلس شعب على اساس منتخب من قبل المواطنين ليكون هو السلطة التشريعية وسلطة المراقبة على اعمال الحكومة وعلى اعمال مجلس الرئاسة .. وكل ذلك في اطار التوجيهات العامة للمرحلة الوطنية الديمقراطية كما تقرها مؤتمرات التنظيم السياسي .

– وعلى صعيد المنظمات الجماهيرية ، بدات هذه المنظمات تعي دورها بمزيد من الفعالية في الاهتمام بحياة المواطنين ورفع مستوى الفئات والطبقات الشعبية والعناية بالجيل الجديد .

وكان قيام المدرسة العليا للعلوم الاشتراكية خطوة بالغة الاهمية في تركيز الخط الذي حسمت في اتجاهه الامور خلال المؤتمر العام الخامس عندما انحاز التنظيم السياسي ـ الجبهة القومية انحيازا كاملا للفكر الاشتراكي العلمي كمرشد للعمل ، وعندما اتجهت انظار الفصائل الوطنية الثلاثة الى الحوار في ما بينها نحو ايجاد صيغة متقدمة للتعاون والتحالف وفقا لمتطلبات المرحلة الجديدة .

وساهمت المدرسة العليا للعلوم الاشتراكية في تدعيم الوحدة الفكرية وتوفير القناعات المشتركة حول التوحد في التنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية . وسنة ١٩٧٣م كانت

سنة غنية بالحوار بين الفصائل الثلاثة (ابتداء من شهر مارس) وغنية ايضا بالعمل المشترك وبالاستفادة من الدراسة المشتركة في هذه المدرسة العليا لتكوين الوحدة العميقة ليس فقط على صعيد القيادات وانما ايضا في الممارسة الشعبية والتلاقي الفعلي على صعيد القواعد والمناطق والقطاعات .

والمدرسة الاشتراكية كان لها دورها ، بالتالي ، في تغيير مناهج التربية ، الحزبية والسياسية والدراسية ، مما احدث ثورة تدريجية في عالم التربية والتعليم من صف الحضانة وصولا الى الجامعات ، على النحو الذي سوف نعالجه بالتفصيل .

وعلى الرغم من بقايا الحساسيات والاختلافات الحزبية المؤقتة التي كانت تبرز بين الجبهة القومية والاتحاد الشعبي الديمقراطي ، او بينها وبين حزب الطليعة ، أو بين حزب الطليعة والاتحاد الشعبي ، فان التلاقي الفكري والسياسي كان نابعا من جذور عميقة راسخة في اعماق الارض اليمنية وفي أعماق الثورة العربية . واهم هذه الجذور ، الوحدة في العمل الشعبي والقطاعي حيث كانت قوى وجماهير الاحزاب الثلاثة تلتقي عمليا وبصورة تلقائية حتى عندما كانت الاحزاب الثلاثة غير متفقة على توحيد العمل في المستوى القيادي . وهناك ايضا التحليل الواحد لقضايا الثورة العربية ومهمات النهوض العربي وتحرير فلسطين وتحرير عمان ، ووضع النفط العربي في تصرف الامة العربية وجماهيرها ، عدا عن الايمان المشترك بوحدة اليمن على اساس وطني ديمقراطي .

وما سبق وأوردناه عن التطور الفكري في داخل الجبهة القومية نحو الانفتاح على جميع الوطنيين والتقدميين المؤمنين بالتطور الشامل ، ينطبق بأوجه مختلفة على ما كان قد طرحه حزب الاتحاد الشعبي الديمقراطي وقائده عبدالله باذيب عندما حدث تطور ايجابي في نشاط الاتحاد الشعبي الديمقراطي نحو توثيق العلاقات مع جميع القوى المؤمنة بهذا التحرر ، رافعا شعار عدم التقوقع وعدم وضع أي اعتراضات على دخول اي فئة مناضلة ومؤمنة بهذا النهج . وكان حزب الطليعة قد

تطور في رؤيته للصراع الطبقي وفي تبنيه الكامل للاشتراكية العلمية ، وطرح الرفيق انيس يحيى وسائر قادة التنظيم ضرورة الانطلاق في العمل الجبهوي الى مستوى رفيع بعيدا عن الحساسيات وعن الاعتبارات الفئوية .

وفي الواقع فالمناقشة ضمن كل واحد من فصائل العمل الوطني الثلاثة كانت غنية ومثمرة . وكانت على علاقة ـ وهي علاقة جدلية ـ مع النقاش الدائر على صعيد الوطن العربي كله حول المهمات المطروحة امام الثوار والكادحين والوطنيين العرب في ضوء الهجمة الامبريالية التي نشطت بعد غياب الرئيس جمال عبدالناصر .

واذا كانت مهمات الثوريين العرب لم تؤخذ دائما على نفس الدرجة من الجد في اقطار عربية كثيرة ، واذا كانت الخلافات والاعتبارات الفئوية و « السلطوية » والضغط الرجعي والامبريالي قد حالت في معظم الدول العربية دون قيام جبهة فعلية او تحالف حقيقي بين القوى المتحررة والمؤمنة بمواصلة انجاز مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية ، فان هذه التجارب الناقصة والجبهات الشكلية ، وما نتج عن تفرّد فئات معينة بالسلطة من نتائج سلبية في العمل الشعبي والبناء الوطني والكفاح العربي في مجمله ، كانت عنصرا من عناصر الدفع نحو الوحدة النضالية في اليمن الديمقراطية . وليس العكس . ذلك أن آثار التشتت والشرذمة كان يدركها الثوار اليمنيون على اختلاف تنظيماتهم عندما يتطلعون الى احوال الاقطار العربية . وجاءت آثار الاحتلال الصهيوني للارض العربية والاحتلال الايراني لأرض عمان والجزر ، والوجود الرجعي والاستعماري الكثيف في الخليج ، لتشد هؤلاء الثوار الى ان يختاروا اختيارا كاملا بين خطين : الاول هو خط التفرد والدوران حول النفس واللعب على التناقضات الدولية والروح الانتقائية في البناء الاجتماعي وفي الموقف السياسي الداخلي والخارجي .
والثاني ، هو الخط الواضح المنطلق من العمل الشعبي الديمقراطي والوحدة الكفاحية الحقيقية والانتماء الى الثورة العالمية بكل موجبات هذا الانتماء . فكان أن اختارت الفصائل الثلاثة النهج

الثاني . اختارته بعد مناقشات مطولة وبعد احتكاك بالواقع من مختلف جوانبه .

وعندما قام الحوار سنة ١٩٧٣ الى ١٩٧٥ تبلورت هذه الارضية المشتركة التي زادت في تبلورها التحديات الاستعمارية والتحركات الرجعية المحيطة باليمن الديمقراطي ، وكذلك وبشكل أساسي التطورات الايجابية في النشاط الموحد والجبهوي بين العديد من فصائل العمل الوطني في الشطر الشمالي من اليمن .

وفي الخامس من فبراير (شباط) من العام ١٩٧٥م وقّع الاتفاق التاريخي بين التنظيم السياسي ـ الجبهة القومية والاتحاد الشعبي الديمقراطي وحزب الطليعة الشعبية .

وأعلن قيام التنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية ، بصفته التحالف التقدمي الذي تقع على عاتقه قيادة مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية ، على ان يكون هذا الشكل التنظيمي خطوة انتقالية نحو قيام الحزب الطليعي في خلال ثلاث سنوات فيكون حزبا بكل معنى الكلمة ، تربط قيادته الواحدة بقواعده وهيئاته التنظيمية اسس واضحة ومهمات محددة ، وبحيث يتم اندماج كامل وجذري بين المنظمات والهيئات التي كانت منتسبة الى التنظيمات الثورية الثلاثة . واتفق على عقد مؤتمر توحيدي لاقرار الاتفاق بعد أن تكون الفصائل الثلاثة قد عقدت مؤتمراتها لمناقشة هذا الاتفاق ، فتكون قد تحققت خطوة انتقالية نحو اقامة الحزب الطليعي . خطوة انتقالية لكنها خطوة تاريخية يتحدد على ضوء نجاحها مدى النجاح في معركتي البناء والدفاع عن الشعب والثورة والوطن .

وقّع الاتفاق في الخامس من فبراير ، عبدالفتاح اسماعيل وسالم ربيع علي عن التنظيم السياسي ـ الجبهة القومية ، وعبدالله باذيب ومحمد سالم باخبيرة عن الاتحاد الشعبي الديمقراطي ، وأنيس حسن يحيى وسعيد سالم الخيبة عن حزب الطليعة الشعبية .

واعتبر المجتمعون أن هذا الاتفاق كان ثمرة جهود متواصلة من جانب الفصائل المذكورة ، وأنه كان نتيجة طبيعية لتطور اليمن

على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، وانه قد اسهم في هذا الحوار وفي الوصول الى الاتفاق ممثلو العديد من الاحزاب والحركات التقدمية والتحررية في الوطن العربي حيث طرح قادة اليمن الديمقراطية على هؤلاء الحلفاء أن يقدموا رايهم ويسهموا من خلال تجربتهم في هذا العمل الجبهوي في اليمن لأن ثورة اليمن هي ملك للوطنيين العرب جميعا .

وبالفعل ، فقد كان من بين الموقعين الرفيق نايف حواتمة ممثلا الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين والرفيق نديم عبدالصمد ممثلا الحزب الشيوعي اللبناني .

وكان العديد من الرفاق اللبنانيين والفلسطينيين قد أسهموا في المناقشات المهمة التي دارت في اليمن الديمقراطية ، بطلب رسمي من قادة البلاد . وفضلا عن حواتمة وعبدالصمد كان قد ساهم في المناقشات كل من الرفيق فواز طرابلسي ، عن منظمة العمل الشيوعي في لبنان ، والرفيق كريم مروة (الحزب الشيوعي اللبناني) .

ويمكن ، من خلال المناقشات وبنود الاتفاق وبالتالي من أجواء التحضير للمؤتمر التوحيدي ، ان نستنتج النقاط الرئيسية الاربع الاتية التي كانت هي العناصر البارزة في وحدة العمل :

- وحدة الايديولوجية : الاشتراكية العلمية .
- وحدة الموقف حول استراتيجية الثورة اليمنية وتحليل الواقع اليمني .
- قضية تمتين الجبهة الداخلية ومجابهة المؤامرات .
- المضي بثبات في انجاز مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية .

وانشئت لجنة تحضيرية من سبعة رفاق مهمتها التحضير للمؤتمر التوحيدي على أن يعقد في النصف الاول من سبتمبر (أيلول) . على أن المؤتمر عقد بين ١١ و ١٣ اكتوبر (تشرين الاول) من السنة نفسها (١٩٧٥م) ، وسبقته المؤتمرات الثلاثة التالية : المؤتمر السادس للجبهة القومية ، والمؤتمر العام الثاني للاتحاد الشعبي الديمقراطي ، والمؤتمر العام الثالث لحزب الطليعة الشعبية .

وكان اتفاق الخامس من فبراير قد نص على أن يكون التنظيم الموحد الجديد برنامج سياسي هو برنامج الثورة الوطنية الديمقراطية المقر في المؤتمر الخامس للجبهة القومية ، بعد اجراء تعديلات عليه من قبل الفصائل الثلاثة . كما يعتمد، كنظام داخلي ، النظام الداخلي للجبهة القومية بصيغته الجديدة المقدمة الى المؤتمر العام الثالث ، وبعد قيام لجنة من الاحزاب الثلاثة بتعديله وادخال الاحكام التي تحدد العلاقة بين الفصائل الثلاثة في مختلف الهيئات والمنظمات وسواها . كما يعتمد التقرير السياسي المقدم الى المؤتمر السادس ، فيطرح في المؤتمر التوحيدي بعد أن تكون الاحزاب الثلاثة قد عدلته بصورة مشتركة .

وعقد المؤتمر التوحيدي تحت شعار : « لنناضل من أجل الدفاع عن الثورة اليمنية وتنفيذ الخطة الخمسية وبناء الحزب الطليعي » . وهو الشعار الذي يحتل اليوم مكان الصدارة في جميع المنشورات وعلى مختلف اللافتات والجدران والمجلات والكراريس في اليمن الديمقراطية .

والشعار كان دلالة واضحة على التوجهات التي أقرت بصورتها التفصيلية وبعد مناقشة رفاقية وديمقراطية للوثائق الثلاث المطروحة امام المؤتمر التوحيدي .

وفور اعلان قرارات المؤتمر التوحيدي نزلت الجماهير اليمنية بدعوة من المنظمات الجماهيرية (عمال ، شباب ، فلاحون ، نساء ..) ومن الميليشيا الشعبية والقوى المسلحة والهيئات الشعبية الدفاعية ، في تظاهرات حاشدة ملأت شوارع عدن ومدن ومراكز المحافظات والمديريات . كما لاقى الاتفاق الذي أعلن رسميا في المؤتمر تأثيرا ملموسا على فصائل العمل الوطني في الشمال اليمني ، التي كانت قد تابعت الحوار الوطني في الجنوب باهتمام شديد منذ مارس (آذار) من عام ١٩٧٣م ، والتي كانت هي أيضا تبحث عن أشكال للالتقاء الوثيق في ما بينها .

وباعلان وثائق المؤتمر التوحيدي لم تنته المشاكل . بل على النقيض من ذلك ، فالمهمات الوطنية الكبرى في الحقول

الداخلية والخارجية اضيفت اليها مهمة في غاية الدقة ، هي بناء الكوادر التي سوف تتولى قيادة وتسيير الحزب الطليعي اسهاما في بناء القيادة الشعبية الحقيقية للبلاد .

والمهمة تحققت بصورة تدريجية . والمدرسة العليا للعلوم الاشتراكية قامت بتخريج أعداد من الدارسين الذين يتم اختيارهم انطلاقا من اعتبارات أساسية أهمها : الموقع الطبقي ، المستوى الدراسي ، والموقف النضالي . فيصار الى التركيز على الطبقة العاملة ، باعتبار ان المطلوب هو نمو دور الطبقة العاملة والفلاحين التعاونيين في الحزب الطليعي من القاعدة الى القيادة . وهذا من الشروط الضرورية لايجاد الثقة بمواصلة التحولات الاقتصادية والاجتماعية وتجاوز الاخطاء والنواقص التي لا تزال قائمة ليس فقط في العمل الحزبي وفي مدى اشراك الجماهير ومنظماتها الجماهيرية في الحياة السياسية والاجتماعية ، بل أيضا في ما يرتبط بحياة الناس المعيشية وبقطاعات الانتاج والتوزيع والثروات والمداخيل ، وما الى ذلك من المشاكل الملحة التي تتطلب سياسة حازمة لحلها كما تتطلب وضوحا طبقيا وايديولوجيا لدى مسؤولي الحزب والدولة وهيئاتها التشريعية والتنفيذية .

وهناك مهمة الخلاص الكامل من تأثيرات القبلية التي تعطي نتائج سيئة وتحد من مبادرات الشباب الثوري . ومسألة تنمية القدرات الثقافية والسياسية لدى العديد من المسؤولين في التنظيم والدولة . والتقرير الذي قدم الى المؤتمر التوحيدي في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٥ يشير الى ان تجربة السلطة قبل يونيو (حزيران) ١٩٦٩ تميزت بممارسات التيار اليميني الذي أراد أن يجعل التنظيم السياسي مجرد ملحق للسلطة ينفذ خططها السياسي وقراراتها لانه لا يؤمن بدور التنظيم كقائد للثورة والمجتمع ، ولكن التيار التقدمي في التنظيم السياسي ـ الجبهة القومية أكد هذا الاتجاه باقدامه على خطوة ٢٢ يونيو (حزيران) الجريئة في العام ١٩٦٩ من اجل وضع السلطة في مكانها الطبيعي ، باعتبارها قوة تخضع لقيادة التنظيم وخطه السياسي

المؤدي الى خدمة التطور العام لحياة الشعب .. ولكن ـ يستدرك التقرير ـ « بالرغم من ذلك أيضا لم تخل تجربتنا في السلطة بعد المؤتمر الخامس من بعض الظواهر الخاطئة ، اذ وجدت بعض الممارسات لبعض العناصر التي لا تتصرف بوعي ومسؤولية تجاه كل ما يصدر عن السلطة من اجراءات تقدمية وتستعيض عن ذلك بقناعاتها الذاتية . وبالمقابل برزت اتجاهات تنزع هي الاخرى الى الايمان ببيروقراطية نظام السلطة فتنمو باتجاه المركزة الشديدة للسلطة وافراغها من محتواها الديمقراطي الشعبي » .

ويتابع التقرير :

« اننا وقد قاومنا بيروقراطية السلطة باستمرار وكذا المظاهر الخاطئة وعدم الانضباط للنظام والقانون .. نؤمن أن هناك علاقة ديالكتيكية بين السلطة كنظام وقانون والسلطة كتطبيق وممارسة في ميدان الحياة الاجتماعية بما يخدم في الاخير مصالح جماهير الشعب . وانطلاقا من هذا المبدأ سنظل نعمل من اجل جعل السلطة تستمد مهامها ودورها في المجتمع من الخط السياسي العام المتمثل في البرنامج والدستور ، وسوف تربى جميع الكوادر القديمة والجديدة التي تعمل في مختلف اجهزة السلطة بروح الولاء الكامل لحب الوطن اليمني والتنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية باعتباره القوة الحاسمة في قيادة السلطة والمجتمع والذي تستمد منه شرعية ممارساتها لواجباتها ومسؤولياتها ، باعتباره أيضا القوة التي تستمد منه السلطة التنفيذية التشريعية قوتها في اكتساب حب واحترام الجماهير وتأدية دورها الاجتماعي . كما أن تنظيمنا سوف يشدد من رقابته على أولئك الذين يطلقون لأنفسهم العنان حبا في السلطة وتسخيرها لمصالحهم الذاتية ويديرون ظهورهم لتنظيمنا ودوره القيادي في البلاد .. » .

التقرير يحتل ، خصوصا لهذه الناحية ، أهمية راهنة خصوصا بعد ما حدث في اليمن الديمقراطية نتيجة لعدم التنقية الكاملة لصفوف التنظيم والدولة ، ونتيجة استمرار وتعزز بعض مراكز القوى والجماعات غير المؤمنة بدور التنظيم .

ومسألة بناء كوادر الحزب الطليعي بقيت مهمة بالغة الدقة .
والدراسة في المدرسة الاشتراكية وفي سواها من المجالات التثقيفية الحزبية داخل البلاد وخارجها لا تقتصر على تعميمات نظرية مجردة بل هي مرتبطة بصورة وثيقة بواقع البلاد والتطورات والمهمات والقوانين القديمة والجديدة ودور مجلس الشعب الاعلى والمجالس المنتخبة في كل منطقة ، والخطوات التربوية والاجتماعية والاقتصادية وسلبياتها وايجابياتها ، والتدريب على التمرس بحب الوطن ، والتحرر العربي والواجبات تجاهه ، والتضامن الاممي بين الشعوب المكافحة ضد الامبريالية .

وكوادر الحزب الطليعي تتكون تدريجيا ، ورغم الظروف الصعبة ، من العناصر الاكثر نشاطا والاكثر تفانيا . والعلاقات بين اعضاء الحزب الطليعي يصار الى تحديدها وترسيخها بصفتها علاقات من نوع جديد . فمقياس العضوية لم يعد الحماس المؤقت ولا الشعارات العامة . المقياس هو تنفيذ البرنامج السياسي وتنفيذ موجبات النظام الداخلي ، وتادية ما تتطلبه الديمقراطية المركزية وممارسة النقد والنقد الذاتي .

ويقوم في المدرسة العليا للعلوم الاشتراكية تدريس خاص للكوادر الذين لهم مهمات اساسية في التنظيم ، وللكوادر التي تتولى قيادة الاقتصاد الوطني .

والاهتمام الخاص بالعمال على الصعيدين السياسي والنقابي يأخذ طابعا متزايد الوضوح ، ولا سيما في مدرسة الكوادر العمالية التابعة للاتحاد العام لنقابات العمال ، وتتكثف برامج العمل السياسي في صفوف العمال وشغيلة الريف ، فضلا عن تحقيق برنامج محو الامية الابجدية والسياسية . وتنفذ ايضا برامج تثقيفية واعدادية لكوادر الشباب وذلك في مدرسة الكوادر الشبابية التابعة للجنة المركزية لاتحاد الشباب الديمقراطي (اشيد) وثمة برامج تدريبية واعدادية وتثقيفية تتولى قيادتها اللجنة المركزية لاتحاد نساء اليمن ..

وفي العام ١٩٧٨م قامت مبادرات على الصعيدين المركزي والاقليمي في مجال تنقية صفوف التنظيم واجهزة السلطة والهيئات

والمنظمات الجماهيرية من بقايا الفساد والتخلف الذهني واستغلال النفوذ .

المطروح كان هو التالي : الحزب الجديد له موجبات ، من العضو العادي الى أعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي . اما ان تكون مستعدا للقيام بها ، والا فالافضل لك أن تكون خارجا عن التنظيم فليس لعضويتك فيه فائدة ، هذا ان لم يكن لها ضرر .

وعلى هذا الاساس وضعت اللجنة المركزية للتنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية لائحة عممت على جميع القواعد على شكل استمارة ، تتحدد في ضوء الاجوبة عليها وضعية كل عضو من أعضاء التنظيم ومدى قدرته على الاستمرار في المرحلة الجديدة من حياة الحزب والبلاد .

الاستمارة فيها أسئلة محددة ، والمطلوب من كل واحد من الاعضاء أن « يملأها » . ومن الاسئلة ما يتعلق بوضعه الطبقي والمعيشي والعائلي ، ودوره السابق اذا كان قد شارك في الماضي بأعمال سياسية أو شعبية ، سلبا او ايجابا ، وواقعه الحالي وموقفه من العمل ، ومدى مشاركته في فهم وتنفيذ الخط السياسي العام ومهمات القطاع او الخلية التي ينتسب اليها .

الوثيقة ـ الاستمارة طرحت في جميع الهيئات . ووصلت الاجوبة تدريجيا . الاجابة تمت على الشكل الاتي : كل عضو يتولى وضع أجوبة أولية على ورقة جانبية ، وفي اجتماع المنظمة القاعدية يعطي الاعضاء رأيهم في أجوبة الرفيق ، فيعدلون أو يوافقون بحسب معلوماتهم وقناعاتهم . وترفع توصية ، باسم المنظمة القاعدية ، باستمرار قبول العضو أو باعادة تربيته أو بفصله .

وترفع التوصيات الى لجنة المركز لاعطاء رايها في التوصية ، ثم لجنة المديرية .

أما الاعضاء الذين هم في مناصب قيادية كأعضاء لجنة المركز أو المديرية أو المحافظة .. فتطرح الاستمارة بشأنهم في المنظمة القاعدية وترفع الى الهيئات بالتالي الى أن تقوم باملاء الاستمارة

اللجنة التي هم اعضاء فيها .

الاستمارة كانت لها اهمية قصوى . ليس فقط من حيث عملية الفرز التي اطلقتها ، بين صالح وغير صالح للاستمرار في واجباته الحزبية والقيادية ، وانما أيضا من حيث تعويد اعضاء التنظيم على الممارسة الديمقراطية الحقيقية . النقد والنقد الذاتي مثلا . هذه تكاد تكون مشكلة كبرى لدينا ، نحن الشعوب ذات النمط « الشرقي » والمتأثرة بالنزعة الفردية والقبلية ، حيث يظن المرء انه أصيب باهانة كبيرة أو بوصمة من العار اذا تبين ان رأيه في قضية معينة غير دقيق أو غير صائب . فيصر على رأيه أو على ممارساته لمجرد تبيان حقه في التفرد ، ويسعى لايجاد المبررات لهذا الحق المزعوم ، محاولا اعطاءه احيانا صفة راي « المجموع » ويدعي ، في نهاية المطاف ، انه هو سيد الديمقراطية !

وفي الواقع فقد وجد العديد من المنظمات القاعدية في التنظيم السياسي الموحد ، بعض الصعوبة من هذه الناحية . ولكن الاغلبية الساحقة من المنظمات وجدت الامر طبيعيا ، لأنها كانت قد تمرست ، رغم حداثة سنها ، بالنقاش الهادىء وبالعمل الشعبي ، فالاحتكاك بالجماهير يؤدي الى تصحيح الكثير من المفاهيم الخاطئة . وكثيرا ما تتولى الجماهير بنفسها هذا التصحيح فتفرض نفسها على المسؤولين الحزبيين والاداريين في المنطقة المعنية .

وتجربة النقد والنقد الذاتي كانت قد بدات تعطي نتائج اولية ، سواء في هيئات التنظيم السياسي الموحد او في ادارات الدولة والمؤسسات الصناعية والتعاونيات ومزارع الدولة وسائر مرافق البلاد ، فيوضع الاكثر جدارة والاكثر اخلاصا والاقل نزوعا الى المصالح الخاصة ، مكان غيره ممن لا يستحق الوظيفة أو المسؤولية التي يتولاها .

كانت عملية التنقية الذاتية تأخذ طريقها بصورة ديمقراطية عندما شعرت الاوساط العليا في السلطة ممن استفاد من موقعه لجني المكاسب والتفرد بالحكم على أساس قبلي وغير

علمي ، شعرت بأن الوقت قد حان للانتقال الى التخريب المباشر لهذه العملية الديمقراطية الهادئة الممهدة لقيام الحزب الطليعي .

بالطبع ، هذا لم يكن هو السبب الوحيد للممارسات والنشاطات الانحرافية التي قادها رئيس مجلس الرئاسة سالم ربيع علي ، وكادت توصل البلاد الى حرب أهلية ودمار شامل .. فهناك عوامل أخرى ، ومنها ما هو خارجي ومرتبط بالنهج السعودي والمراهنات الرجعية والاستعمارية . ومنها ما هو داخلي وناتج عن جملة وقائع وتطورات في الحزب والجيش والهيئات الشعبية . لكن هذه التطورات الديمقراطية في داخل التنظيم والقطاعات كان لها دورها المباشر ، وجاءت محاولة سالم ربيع علي الانقلابية بالضبط عندما كادت الجماهير اليمنية وقواها المنظمة تأخذ الامور كليا بيدها وتبني حزبها الطليعي الذي لا يعود فيه مجال للتفرد وللامراض التي وصفها تقرير الامين العام في المؤتمر التوحيدي عام ١٩٧٥.

ندخل ، اذاً في هذه الظاهرة التي اسمها سالم ربيع . في وقائعها ، وفي النهج الذي تمثله ، وفي ارتباطها بكثير من المواضيع الدقيقة على الصعيد اليمني والعربي . وندخل بالتالي ، في دقائق ما جرى في ٢٥ – ٢٦ يونيو (حزيران) من العام ١٩٧٨م ، بعد تسع سنوات من الحركة التصحيحية التي حملت الجناح التقدمي الثوري الى الحكم في ٢٢ يونيو (حزيران) من العام ١٩٦٩.

«روافد» عسكرية وريفية للانحراف الرئاسي

« حبيبتي زهرة بيضاء .
بؤس نفاقهم والرياء
ختالهم مكرهم والدهاء ...
حبيبتي كل الحقيقة .
هذي طريقي ، وليمش كل طريقه ،
ومضى البرق أم ضاع بريقه
زلزل الطود أم هتكت حريقه ... »
(الشاعر اليمني محمد زين العابدين)

طريق لولبي يمر بين مجموعة من الابنية وغابة صغيرة من الاشجار ، يوصلنا من مداخل القصر الجمهوري الخارجية الى الموقع الذي يقوم فيه القصر عند الشمال الغربي من مدينة عدن .

آثار الاضطراب بادية على أمواج البحر التي تنعكس عليها اشعة الشمس الدافئة . فعند هذه البقعة من الشاطىء والتلال القريبة منها نشبت معركة استمرت حوالي سبع عشرة ساعة بين رئيس مجلس الرئاسة السابق ومؤيديه في الجيش وفي القبائل ، من جهة ، وبين القوات العسكرية والشعبية التي تلتزم بخط التنظيم السياسي الموحد من جهة ثانية .

ما من احد كان ينتظر أن ينفجر الوضع بهذه السرعة

وبهذا العنف . لكن العارفين بما كان يجري في القصر الجمهوري وفي أجواء الرئيس سالم ربيع علي ، كانوا ينتظرون أن يحصل تطور دراماتيكي معين . وجاءت الاحداث العسكرية التي أعقبت اغتيال رئيس اليمن الشمالية المقدم الفشمي ، لتعطي أهمية كبرى للملاحظات والتحفظات التي كان يطرحها العديد من القادة في التنظيم وفي السلطة ، تجاه تصرفات سالم ربيع علي . وهي التحفظات التي أوجزها لنا وزير وزير الدفاع المقدم علي أحمد ناصر عنتر ، بالقول :

« أنا سبق وقلت لسالمين : ما تفكر تلعب هاللعبة . اياك انو تركن للقبائل . احترم التنظيم ويكفي تصرفات افرادية . والا ، بدك تاكلها .. »

ووزير الدفاع كان من أقرب المقربين الى سالم ربيع . كان معه منذ أولى رصاصات الثورة في أعالي الجبال . وكان معه في تنظيم عمل الفدائيين ولا سيما في الريف ، الى جانب علي ناصر محمد وصالح مصلح وسواهما .. وكان معه في النضال لأجل الانتصار على الجناح اليميني المتمثل في قحطان الشعبي ، وقبل ذلك في الصراع مع « جبهة التحرير » . وعندما انتصر الجناح اليميني في ٢٠ مارس (آذار) ١٩٦٨م وقامت الملاحقات ضد التقدميين ولا سيما بعد انتفاضة ١٤ مايو (أيار) من نفس السنة .

ولكن ، الصداقة الشخصية لم تمنع علي عنتر ، وهو الكادح الثائر الذي لم يحصل على أي مكسب شخصي لا أثناء الكفاح المسلح ولا بعده ، من الوقوف في وجه مسلسل التصرفات الافرادية التي قام بها سالم ربيع .

والخلاف الذي انفجر على هذا النحو العسكري في ٢٥ - ٢٦ يونيو من العام ١٩٧٨ كان يختمر منذ فترة طويلة في نفوس قادة البلاد ، وقد يكون رئيس الوزراء علي ناصر محمد ووزير الدفاع علي عنتر أكثر الاشخاص تصادما مع أعمال « ربيع » ونشاطاته الشاذة عن الخط العام للقيادة الحزبية والسياسية .

ذلك ان الخط المتطرف الذي سار عليه رئيس مجلس

الرئاسة كان يصطدم مباشرة بجميع الهيئات الوزارية والادارية والعسكرية . والصراع الصامت بقي صامتا خلال اكثر من سنتين في الواقع ، بالنظر للظروف الصعبة في البلاد من جهة ، ولأن مسؤولي التنظيم والدولة اعتبروا ان القواعد والهيئات الحزبية هي التي ستقرر ، في نهاية المطاف ، وبصورة ديمقراطية ، ما اذا كانت الامور سوف تتحسن ويوضع الحد النهائي للتصرفات الافرادية .

ولعل اسراع رئيس مجلس الرئاسة في محاولة حسم الامور بواسطة الانقلاب العسكري ، كان يهدف بالضبط الى منع العملية الديمقراطية من ان تأخذ مجراها على الوجه الصحيح . والخوف من الممارسة الديمقراطية هو شعور طبيعي لدى القائد الذي اعتمد كل الاعتماد على القوى التي تخالف راي الاكثرية الساحقة والتي تعمل للتخلص من الممارسة الديمقراطية بالذات .

ومثل كل رئيس ذي نزوع الى السلطة الفردية التقليدية ، حاول سالم ربيع علي أن يعتمد على « العسكر » . وكان من ضمن حساباته أن القوى العسكرية الرئيسية سوف تنحاز لصالحه ، بفضل النفوذ القبلي القوي ولا سيما نفوذ أبناء « قبيلته » من منطقة زنجبار في المحافظة الثالثة ، وايضا بفضل الاغراءات المادية والمكاسب غير المشروعة الذي كان يغدقها على مناصريه .

وقصة سالم ربيع مع القوات المسلحة لا تقل خطورة من قصته مع التنظيم السياسي . بل هي الوجه الاخر من القصة الاولى .

وفي المسألتين فالصراع بلغ اوجه قبيل انعقاد الدورة السابعة للجنة المركزية للتنظيم السياسي الموحد . كان ذلك في مطلع سنة ١٩٧٧م ، عندما لاحظ العديد من قادة التنظيم ان عناصر كثيرة من الضباط والجنود السابقين من الذين حامت حولهم الشبهات بسبب موقفهم الرجعي او تعاملهم مع القبائل المعادية للسلطة الثورية ، يتولى رئيس مجلس الرئاسة المجيء بهم الى مراكز مهمة في الجيش وتوضع في تصرفهم مبالغ وامتيازات كبيرة . ولوحظ بالوقت نفسه ، ان تدابير انتقامية تؤخذ ضد عناصر معينة

في القوات المسلحة، من الذين لديهم ارتباط عميق بالخط السياسي للجنة المركزية . وهو الخط السياسي الذي رسخته أعمال الدورة السابعة بما وضعته من أسس لتنفيذ مرحلة الانتقال الى الحزب الطليعي ، ونقل الحزب والشعب والسلطة الى الواقع الجديد الذي تتطلبه المرحلة الجديدة .

وكانت هنالك ظروف تاريخية تسمح لسالم ربيع بتكوين قوى معينة من النوع الذي يفضل الولاء للرئيس على الولاء للسلطة الجماعية . ومنها الظروف التي نشأت فيها « القوات الشعبية » . هذه القوات ارتبط نشوؤها بانتفاضات الفلاحين التي انطلقت بعد انتصار الحركة التصحيحية في ٢٢ يونيو (حزيران) ١٩٦٩ . يومها قررت السلطة التقدمية تغيير الطريقة التي اعتمدت في العديد من البلدان العربية وغيرها بالنسبة الى الاصلاح الزراعي .

قانون الاصلاح الزراعي الذي سبق وأصدره قحطان الشعبي في سنة ١٩٦٨ كان يقضي بتسليم الارض الى الفلاحين ، كما فعلت دول عربية عديدة في الماضي ، ودون أي اشراك مباشر للفلاح في عملية كسب هذه الارض . الذي حدث ، هو أن الفلاح ظل يعتبر الارض ملكا مقدسا لصاحبها الاقطاعي فهذه « ارادة الله » . وكانت ظروف الريف وتقاليده لا تسمح للفلاح بأن يتحمس لقرار الاصلاح الزراعي أو بأن يتجه نحو التعاون مع الفلاحين الاخرين . وبذلك يفقد الاصلاح الزراعي أهميته الثورية والفكرية ولا يؤدي الى تحرير الفلاح . كما يؤدي الى ضياع في الانتاج وبلبلة في الخطة الاقتصادية .

وقررت السلطة الثورية ، بعد خطوة ١٩٦٩ ، أن تحرض الفلاحين أن ينتزعوا الارض بأنفسهم . وقام أعضاء التنظيم السياسي ـ الجبهة القومية بدور نشيط في هذا المجال ، وبدعم قوي من فصائل العمل الوطني الديمقراطي الاخرى التي كانت تدعو منذ قيام الثورة الى تحرير الفلاح تحريرا كاملا من السيطرة الاقتصادية والفكرية .

وتأسست لهذه الغاية لجان فلاحية تأخذ على عاتقها مهمة صيانة الارض التي جرى انتزاعها من الاقطاعيين بقوة السلاح او

بالضغط الجماهيري . اما السلاح فبعضه قدمه التنظيم السياسي وبعضه الاخر كان أصلا في يد الفلاحين الثائرين ، وبينهم من هم ذوو انتماء قبلي . وقد تكونت « القوات الشعبية » من هذا الخليط غير المنسجم الا في طموحه لانتزاع الارض ولتحرير الانسان العامل عليها .

وعندما تطور العمل الحزبي والسياسي وتطورت فكرة الدفاع عن الوطن والثورة ، أخذ التنظيم السياسي (ثم التنظيم السياسي الموحد ، بعد ١٩٧٥ يركز على العمل داخل القوات المسلحة . وحدث فرز معين والى درجة من النجاح في صفوف القوات الشعبية ، الا ان أوساطا منها بقيت على تأثرها بالمواقع القبلية رغم الجهود المتواصلة من جانب مناضليها الحزبيين المنظمين لتطوير عملها بما ينسجم مع الاتجاه نحو الحزب الطليعي . وكان لرئيس مجلس الرئاسة سالم ربيع علي نفوذ من نوع خاص في هذه القوات بالنظر الى اشراك « قبيلته » اشراكا مباشرا في تسيير الامور . وأصبح يميل الى تعزيز « القوات الشعبية » على حساب الاشكال الجديدة والاكثر تطورا وجذرية في الدفاع عن الوطن والثورة وأهمها الميليشيا الشعبية ولجان الدفاع الشعبي وجهاز أمن الدولة .

والميليشيا الشعبية تأسست عمليا لدى قيام مدرسة الشهيد الرائد عمر علي ، في فبراير (شباط) ١٩٧٢م ، وهي المدرسة التي لعبت دورا بارزا في اعداد الكوادر للميليشيا ، المؤهلة عسكريا وسياسيا وتنظيميا لقيادة هذا النوع من العمل الشعبي . واعتبرت الميليشيا الشعبية قوة أساسية لحماية الثورة ، واحتياطيا عريضا للجيش الشعبي ، وعنصرا بارزا في تنظيم المبادرات الجماهيرية على صعيدي العمل الانتاجي والثقافة السياسية .

وكان لقيام وتطور الميليشيا الشعبية (وسوف نأتي في ما بعد على دراسة تفصيلية لأوضاع الميليشيا ومدرسة الشهيد عمر علي) دور بارز في اطلاق جملة من المبادرات والنشاطات التي جعلت العمل الدفاعي الشعبي يأخذ منحى جديدا . وكانت تلك

من العوامل التي لم يحسب لها سالم ربيع وجماعته الحساب الكافي .

وعندما انفجر الوضع في عدن واضطرت قيادة التنظيم السياسي الموحد الى مجابهة التحرك العسكري الانقلابي بتحرك مضاد وبكافة الاسلحة ، كان للميليشيا الشعبية دور في غاية الاهمية داخل مدينة عدن والمحافظة الاولى في ضبط الامور بالمؤسسات والمرافق ، وداخل المحافظة الثالثة حيث منعت الميليشيا القوات القبلية المؤيدة لسالم ربيع علي من التقدم في اتجاه عدن لفك الحصار عن القصر الجمهوري . كما بادرت الميليشيا بسرعة الى اعتقال عدد كبير من مناصري الجماعة المنحرفة ، في نفس الليلة التي كانت تجري فيها المعارك بمنطقة القصر الجمهوري .

ويقول سالم أحمد دهمش ، رئيس هيئة اركان الميليشيا الشعبية ، أن سير الاحداث أوضح أن شعب اليمن وشغيلتها يقفون بثبات الى جانب التنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية كما أوضح أن التنظيم السياسي الموحد يسلك نهجا سياسيا صحيحا ، وانه ثبت أيضا ان القوى الانتهازية الرجعية كانت منعزلة عن جماهير الشعب .

والعزلة عن الشعب لم يكن سببها الوحيد عدم التقدير الكافي للوضع ولدور القوات المسلحة والميليشيا الشعبية وارتباطهما بالتنظيم السياسي الموحد . كانت هناك أسباب كثيرة ، منها ما يرتبط بقطاع معين (وجميع القطاعات كانت لها مشاكل كبيرة مع هذه الجماعة) ومنها ما يتعلق بالنهج الذي يمكن تسميته الانتهازية اليسارية ، والذي كان يهيمن على تصرفات سالم ربيع ومناصريه ، وهو النهج الذي بفضله استطاعت قوى الرجعية السعودية وسواها أن تتغلغل في البلاد من أعلى المستويات ومن أوسع الابواب .

أما كيف نتج عن التطرف اليساري خدمة مباشرة لليمين الرجعي ، وكيف أن قائدا جماهيريا محبوبا مثل « سالمين » وظّف كل شيء في سبيل هذا النهج ، فالقصة طويلة . وهي تبدأ من رواسب التخبط السياسي وعدم الوضوح الطبقي لدى القوى

التي أعتمد عليها سالم ربيع ، وتنتهي بارسال عبوة ناسفة مع مندوب عن رئيس مجلس الرئاسة لتقتل رئيس اليمن الشمالي وتحدث بوادر اقتتال بين شطري البلاد .

وفي الواقع ، فان الشعبية التي اكتسبها سالم ربيع عندما شارك في الثورة ، استطاع أن يوظفها في اتجاه تكريس النهج

ما من يوم كان « سالمين » يمكث في قصره . في كل لحظة نراه يفاجىء الناس في مؤسسة معينة او في محافظة معينة ، فيطل عليهم من سيارته « اللاندروفر » ويتصرف احيانا مثل الملوك القدامى الذين يتدروشون وينزلون بين البشر . فيسأل الناس عن احوالهم ، ويهم بتقبيل امراة عجوز في شارع ويدفع لفقير معين عشرة دنانير ، ويقوم بزيارة الى منطقة جبلية في المحافظة الثالثة حتى يكرم امراة سبق وقدمت له العون عندما كان ثائرا وفارا من ملاحقات السلطة اليمنية في سنة ١٩٦٨ ، وفي اليوم التالي تنزل صوره في الصفحات الاولى من الصحف وعلى شاشة التلفزيون .

يتصل رئيس دائرة في وزارة معينة بوكيل الوزارة ويقول له : الرئيس كان عندنا منذ لحظات . ووسط استغراب وكيل الوزارة او الوزير المعني يعلن رئيس الدائرة بان رئيس مجلس الرئاسة زاره في المكتب واتخذ ثلاثة او اربعة مراسيم وانه مضطر لمباشرة تنفيذها بدون موافقة الوكيل او الوزير .

وتدريجيا ، كانت تختلط الامور وتتحول « الشعبية » الى حلول شبه كامل مكان الوزارات والدوائر والمؤسسات .. وايضا ، مكان قيادة الجيش .

وقد حصل أن استغل سالم ربيع شغور منصب وزير الدفاع لعدة أشهر فنصّب نفسه وزيرا على الصعيد العملي ، وأصبح يعطي الاوامر الى الجيش ، ووسط استغراب رئيس مجلس الوزراء علي ناصر محمد وغيره من العارفين القلائل بمجريات الامور . وحصل ذلك مع وزير الاعلام ايضا ، حيث عمل رئيس مجلس الرئاسة لابقاء المنصب شاغرا ، في العام ١٩٧٧ ، حتى يكون هو الوزير الفعلي ..

والقصة مع الجيش طويلة . وقد روى لنا الرفيق علي ناصر محمد ، وكذلك الرفيق علي عنتر ، فصولا منها تكاد لا تصدق .

نبدأ بالرحلة الى معالم منطقة القصر الجمهوري وممراتها وخنادقها ..

أقفر بهم اليسر قاوموه
(جولة في القصر وجماعته)

« ما قولكم في مؤمن قوام
موحد مجتهد صوام
حبر بكل غامض علام
وذكره قد شاع في الانام
لم يبق فن من فنون العلم
الا وقد اضحى له ذا فهم ..
وما له اصل الى آل الحسن
ولا الى آل الحسين المؤتمن
بل هو من ارفع بيت في اليمن
قد استوى السر لديه والعلن
ثم انبرى يدعو الى الامامة
لنفسه المؤمنة القوامة ... »

(ارجوزة للامام الزيدي عبدالله بن حمزة ، توفي سنة ٦١٤هـ ، عن الشخصية الفريدة التي تمتلك كل الصفات الممتازة) .

كان ذلك بعد يوم واحد من المعارك التي حصلت في منطقة القصر الجمهوري ، ووسط اجراءات امنية شبه عادية ، عندما رافقتنا مجموعة من القادة العسكريين وقائد الشرطة العسكرية وسائق سالم ربيع علي بالذات ، في جولة عبر المواقع التي حدثت فيها المعارك .

مدخل متعرج وأبنية عليها آثار من الرصاص ، ثم طريق صاعدة قليلا ونكون أمام قصر كان مركزا للمندوب السامي البريطاني في عدن ثم اعتمد بعد انتصار الثورة مقرا لرئيس مجلس الرئاسة .

لدى دخولنا القصر ، الذي لم يتعرض للقصف لأن سالم ربيع ومناصريه تركوه فورا وانتقلوا الى المواقع المحصنة والدهاليز ، استرعى انتباهنا أن هنالك أكثر من موقع للحرس داخل المبنى بالذات . كان ثمة شعور لدى سالم ربيع بأن عليه أن يأخذ احتياطات لا يفكر بها أي قائد آخر في الدولة وفي التنظيم . وقد تبين أن الشرطة العسكرية المولجة بحراسة القصر كانت هي أيضا تعيش في حالة من القلق . خصوصا عندما يرى مسؤولو الشرطة وأفرادها وجوهاً غريبة تدخل الى القصر ثم تأخذ مكانها في مهمات عسكرية أو مدنية . ومن بين هذه الوجوه ضباط وجنود قدامى ممن سبق وطردوا من القوات المسلحة بعد الثورة أو تعاملوا مع الاعداء .

كان يكفي اشارة من سالم ربيع بعد توقيعه على الطلب ، حتى يعين فلان أو فلان في أي منصب . أما العناصر التي ليست مقربة منه ومن قبيلته ، فكان أحيانا يحرمها من السلاح . فتكون مهمة رجل الشرطة أن يقف عند مدخل القصر الجمهوري بدون سلاح ، ويتفرج على الجنود القبليين الوافدين لتسلم المهمات والاسلحة والنفوذ فضلا عن الاموال .

في ظروف كهذه كان القلق يتراءى من بين الوجوه . ويصبح من الضروري أن يقيم رئيس مجلس الرئاسة حراسات بين الغرفة والغرفة في قصره .

ويقول لنا محمود صالح ، قائد الشرطة العسكرية ، انه كان في جيش التحرير وانه لقي صعوبة بعد انتصار الثورة في دخول الجيش « الرسمي » حتى عندما قبل قحطان الشعبي طلبه . فقادة الجيش في أيام سيطرة الجناح اليميني كانوا هم أنفسهم الجهاز القديم الباقي من أيام الاستعمار . وكانوا يرفضون كل محاولة لزيادة نفوذ القوى التقدمية في الجيش .

الى جانب قصر الرئاسة نشاهد مراكز عسكرية كبيرة ومخازن ضخمة للاسلحة ، بعضها ما زال تحت الارض والبعض الاخر قصفه الطيران . والى جانب المخازن ، سجن خاص كان جماعة الرئيس يمارسون فيه التعذيب ضد كل من يتمرد على الاوامر التعسفية أو شبه القبلية . ونادرا ما كان يعرف مصير المواطن الذي يقع عليه « الاختيار » فيعتقل من قبل جهاز خاص تابع لرئيس مجلس الرئاسة مباشرة . وهناك عدد من الذين حاولوا انتقاد تصرفات « ربيع » الفردية لقوا مصرعهم بواسطة الاختطافات ، وكان بهذا يريد ان يوجد له هيبة ويزرع الخوف لدى منتقديه حتى لا يجرؤ احد على نقد تصرفاته . ومن بين الذين كان مصيرهم الاختطاف نجل الشيخ عبدالله محمد حاتم عضو مجلس الشعب .

وعند التلة ، بيوت صغيرة وخندق طويل موجود منذ ايام الاتراك ، ولا يمكن اصابته لا بالرماية المباشرة ولا بالمدفعية . وعلى التلة كان المدافعون عن القصر ، وعددهم لا يقل عن الخمسماية جندي ، قد وزعوا المسؤوليات في ما بينهم ، وكان « سالمين » قد اتخذ موقعا له عند مدخل ممر جوفي هو ايضا قائم منذ عهد العثمانيين . ومن هناك يعطي الاوامر الى القوة المقاتلة ، التي بدأت بقصف مقر اجتماع اللجنة المركزية في الثانية من صباح ذلك اليوم ، السادس والعشرين من يونيو . كما قصفت بيوت الضباط ، ومنزل رئيس الوزراء حيث كان المكتب السياسي يعقد اجتماعا اضافيا بعد انتهاء اجتماع اللجنة المركزية . وفي الاجتماع المذكور كان المكتب السياسي قد وافق على استقالة تقدم بها سالم ربيع علي الذي رفض حضور اجتماع اللجنة المركزية .

كان أعضاء المكتب السياسي يناقشون في ما اذا كانوا سيذهبون جميعهم الى المطار لتشييع رئيس مجلس الرئاسة في احتفال رسمي بعد قبوله بالسفر من البلاد . وقبلها كان علي عنتر ، وزير الدفاع قد اقترح على سالم ربيع ان يستقيل ويبقى مواطنا عاديا متمتعا بكل حقوقه او ان يغادر البلاد مكرما ومعززا .

وفي تلك اللحظة انهمرت القذائف على منزلي عبدالفتاح اسماعيل وعلي ناصر محمد ومكتب رئيس الوزراء ومقر اجتماعات اللجنة المركزية . ونجا أعضاء المكتب السياسي بعد انتقالهم بسرعة الى التلة حيث توجهوا الى مكان قريب وحولوه الى غرفة عمليات وأعطوا الاوامر بضرب القصر الجمهوري ومنطقته ومنع كل تدخل من خارج المدينة في هذا الاشتباك .

وفي الواقع فأجهزة التنظيم السياسي الموحد كانت تراقب منذ عدة أشهر الاستعدادات والنشاطات التي يقوم بها رئيس مجلس الرئاسة محولا قصره ومنطقته الى قلعة حصينة . والمعنيون بالامر بشكل مباشر كانوا يتخوفون من تصرفات خطرة ، لذا فالاستعدادات كانت قد اتخذت على سبيل اليقظة ولا سيما بعد اغتيال الغشمي وانكشاف الاهداف الداخلية التي يريد سالم ربيع بلوغها من خلال هذه العملية ، وأهمها أن يسيطر عسكريا على الوضع في أجواء من الاقتتال مع الشمال .

الرد كان قويا ، لكن مؤيدي « ربيع » قاوموا بعنف . وان لم يتمكنوا من استخدام كافة الاسلحة التي في حوزتهم . وكانت اول سرية خاصة بالرئاسة قد تشكلت ابتداء من سنة ١٩٧٣ ، ووصل عددها تدريجيا الى نحو من خمسماية مقاتل ، ولا ينتسب أي منهم الى هذه السرية الخاصة الا بعد مقابلة شخصية مع الرئيس حتى يكون سالم ربيع واثقا من معرفته الشخصية به او بأهله .

والاعتماد الاساسي كان ، بالطبع ، على المحافظة الثالثة ، والمديرية الجنوبية وهي منطقة سالم ربيع وكانت في السابق مقر سلطنة أحمد عبدالله الفضلي . وعندما قامت المعارك في عدن اعتقد سالم ربيع أن في الامكان الاستعانة بسرعة بقوات كبيرة من هذه المديرية ومركزها زنجبار (ابين) فتزحف هذه القوات على عدن وتطيل المعارك وتسيطر على الوضع ، أو تنشأ حرب اهلية يكون فيها مجال للتدخل الخارجي .

وكثيرون من أبناء هذه المديرية جاؤوا من بيوتهم بطلب من جماعة سالم ربيع بعد أن قال لهم هؤلاء ان الجمهورية تتعرض

لغزو من الشمال . الى أن تبين لهم أن هذه ليست سوى خدعة لتجنيدهم لصالح المحاولة الانقلابية .

الذي حدث ، هو أن أفراد الميليشيا الشعبية في المحافظة الثالثة ، وفي زنجبار بالذات ، نزلوا فورا عندما عرفوا بأن هناك محاولة انقلابية ضد التنظيم السياسي ، وفور تلقيهم الخبر بذلك من عدن قطعوا الطريق على جماعة « القبيلة » وخاضوا معركة طويلة معهم دون أن يتمكن أحد منهم من الوصول للدفاع عن قصر الرئاسة .

الرجل الاول لدى « ربيع » في المحافظة الثالثة كان جاعم صالح ، وهو من المقربين جدا اليه وقد جاءه ذات يوم في سنة ١٩٧٢ يطلب اليه ان يسمح له بالذهاب الى الخارج لاكمال دراسته.

فقال له صديقه « ربيع » : **لا تفعل** ، سوف نؤلف لجنة مركزية جديدة وسيكون **لك مكان في الصدارة** ، وليس مهماً أن تكون متعلما كثيرا ..

وربت على كتف « جاعم » وقال : سوف نحتاج الى العلماء والاكاديميين ، ولكنهم جميعا لن يكونوا سوى مكملين لنضالك !.

وهكذا كان . واصبح التلميذ « جاعم » زعيما للمحافظة الثالثة وعضوا في المكتب السياسي وفي اللجنة المركزية . واصبح هو المرجع في كل شاردة وواردة في المحافظة ، ويعود اليه البت حتى في أمور الزواج والطلاق ، فيطلق الزوجة أحيانا بدون رأي الزوج أو العكس .. وهو الوحيد الذي يعطي اذناً للاستهلاك أو للاستيراد .. وهو يشرف على عدة مؤسسات انتاجية ومنها معاصر للزيوت ومعامل للخياطة تابعة لرئاسة مجلس الرئاسة وغير خاضعة لاشراف اية وزارة . شأنها شأن مراكب الصيد التابعة للرئاسة ، ومراكز ومرافق معينة تكونت على هامش الوزارات .. وكل ذلك تحت غطاء ثوري وبحجة التفلت من المعاملات الروتينية و « البرجوازية » . الى أن تبين ان الهدف من خلق هذه المؤسسات هو الحصول على ارباح كبيرة لانفاقها على المناصرين وجماعة « القبيلة » ، ولا سيما من الضباط والضباط السابقين الذين عادت اليهم علامات الجاه والنفوذ .

و « جاعم » لم يكن وحده في قيادة هذه الجماعة التي تكثر من الكلام الثوري وتقوم بتصرفات في غاية التطرف . كان هناك علي صالح عباد (مقبل) وهو من أكثر العناصر ارتباطا بالنهج القبلي ، وعرف عنه ميله الى « التنظير » الدائم ، وقد عينه سالم ربيع علي سكرتيرا لسكرتارية اللجنة المركزية ، وعضوا في المكتب السياسي .

ومنصب « سكرتير سكرتارية اللجنة المركزية » معناه أن « مقبل » هو المشرف على رؤساء القطاعات الرئيسية في التنظيم السياسي الموحد . فيكاد يصبح هو الحاكم الفعلي للبلاد بمقدار ما يكون ارتباطه برئيس مجلس الرئاسة والامين العام المساعد ، سالم ربيع علي ، وثيقا ومضمونا .

وكان هناك مساعد أساسي آخر للرئيس ، لعب دوره في مجالات الحزب والدولة ، وهو علي سالم لعور ، سكرتير مجلس الرئاسة وعضو اللجنة المركزية ، وقد لعب دورا « يوميا » في العمل الذي مارسه الرئيس على الصعيد السياسي والقبلي .. وبقي الى جانبه في المعركة بالقصر الجمهوري الى آخر لحظة حينما استسلما ، ومعهما « جاعم » ، وأصدرت محكمة خاصة حكمها باعدام الثلاثة .

مساعد آخر ، هو سالم باجميل . وهو من المحافظة الثالثة وعضو لجنة مركزية وقد استلم مناصب عديدة اخرى ، ومنها انه كان المدير العام « لمؤسسة ١٤ أكتوبر » ذات الاهمية الكبيرة على صعيد الاعلام والصحافة وانتاج الكتب والمطبوعات . وكان يحرص على انتهاج سلوك قوامه البذخ والولائم الفاخرة ويصرف مبالغ عالية على المناصرين ويشتري ضمائر المعنيين .. وقد صرف على حاجاته الخاصة ، من بين ما صرف ، مبلغ ٢٠ ألف دينار كان مخصصا لانتخابات مجلس الشعب المحلي بالمحافظة الاولى .

وفي الواقع ، فان العطف الخاص على « سالمين » ولا سيما في المحافظة الثالثة كان له أسبابه التاريخية ودوافعه . ولكن ، عندما بدأت الامور تتوضح وبات النهج الانتهازي اليساري المرفق بالروح القبلية يهدد مصير الثورة ومصير البلاد ، عندها كان لا بد

لهؤلاء الثوار ، وللشباب الوطني في المحافظة بصورة عامة ، أن ينزلوا الى الشارع ويحملوا السلاح ضد « سالمين » الذي كانوا قد أحبوه وقدّروا دوره في الثورة .

ومن بينهم أبناء منطقة يافع الشجعان الذين امنوا له المأوى عندما كان فارا من مطاردات الجناح اليميني بعد انتفاضة ١٤ مايو ١٩٦٨ ضد قحطان الشعبي . هؤلاء اضطروا لحمل السلاح في سنة ١٩٧٨ ضد « قبيلته » في محافظتهم بالذات . ومن هؤلاء الشباب المناضلين ، فضل محسن ، وزير المالية وعضو اللجنة المركزية ، وقد حمل بندقية وذهب الى هناك لتادية دوره ، وكذلك علي شائع وهو عضو اللجنة المركزية ومن ابناء المحافظة الثانية ، ذهب الى منطقة زنجبار وقاتل ، ومحمد علي احمد ، محافظ المحافظة الثالثة بالذات وقد قاد المعركة ضد الجماعة المنحرفة .

ومن بين الذين لعبوا دورا في قمع تمرد الجماعة ، مناضل مثل قاسم الزومحي ، من جبال ردفان ، وهو من أوائل الذين فجروا الثورة في ردفان سنة ١٩٦٣ . فقد اخذ مجموعة معه وقال لهم : هيا بنا الى دار الرئاسة والى زنجبار ، فسلطة التنظيم السياسي في خطر !.

اما لماذا حمل اقرب الناس اليه السلاح ضده ، ولماذا وقف في وجه نهجه السياسي اكثر من ثلاثة ارباع أعضاء الهيئة الحزبية في المحافظة الثالثة بالذات ، فالاسباب كامنة في الاشمئزاز من تصرفاته رغم الغطاء الثوري واليساري الذي كان يستخدمه للتمويه عليها . الا ان ابرز سببين هما : الارتباط السياسي والتنظيمي بالحزب وبلجنته المركزية ، من جهة ، ورؤيتهم لمصالح الفئات الاجتماعية المتضررة من النهج الانتهازي اليساري من جهة ثانية . هذان الاعتباران يكادان يختصران مجمل الصراع بين خطين في الثورة : خط الخدمة الحقيقية والمسؤولة للطبقة العاملة انطلاقا من الارتباط الوثيق بالجماهير ، وخط القفز فوق الجماهير وقضاياها على كافة الاصعدة .

هذه المواضيع سوف ترافقنا في مراحل ونماذج مختلفة من الثورة ومن الانجازات . ولكن ، نقول منذ الان انه لم يكن من

السهل محاسبة رئيس مجلس الرئاسة على تصرفاته ، وعلى تعامله الخاطىء مع القطاعات الشعبية والانتاجية والعسكرية . ليس فقط بالنظر الى الهالة الشعبية التي يتمتع بها ، بل أيضا لأن البلاد كانت دائما تتعرض ، ولا سيما في السنتين الاخيرتين الى مخاطر خارجية تضاف الى الصعوبات الداخلية .

والجماهير لم تكن دائما تعرف سبب النواقص والتجاوزات التي تحصل . لم يكن المستهلك يعرف مثلا بأن سالم ربيع علي ذهب ذات يوم الى بيت علي ناصر ، رئيس الوزراء ، وقال اثناء الغداء ان هذا « الليم » ، اي البرتقال ، يجب التوقف عن استيراده بشكل واسع ، فهذه سياسة تموين برجوازية والليم نوع من الترف واستيراده يضر بالميزان التجاري .

فقال له علي ناصر : كيف نأكل الليم انا وانت ونحرم منه الشعب ؟

اجابه ربيع : انا اعرف ان ما تقوله تعبير عن سياسة برجوازية . من أين نؤمن العملة الصعبة ؟

فقال رئيس الوزراء : نحن حاليا نصدر سمكا الى الاردن . نستورد مقابل ذلك برتقالا .

فرفض سالم ربيع . وأصدر مرسوما بمنع الاستيراد .

الى هذا المثال البسيط كانت هناك مئات الامثلة في النقاش الذي دار خلال السنتين الماضيتين على صعيد الهيئات المسؤولة .

والمواطنون لم يكن يتاح لهم الدخول في جميع المشاكسات اليومية . خصوصا في القضايا الحساسة وأبرزها الموقف من الجيش ومن قطاعات انتاجية معينة ومن العلاقات مع اليمن الشمالي ومع الاتحاد السوفياتي .. وقضية مصادر الاسلحة .. وما الى ذلك من القضايا التي كانت تتفاعل بصورة يومية ، فتبرز من خلالها نزعة الى الاستئثار بالسلطة وبأساليب تعيد الى الاذهان النهج الذي سلكه زعيم الجناح اليميني قحطان الشعبي في الفترة الاولى من الاستقلال ، وان تكن قد اتخذت هذه المرة اطارا من التطرف اليساري .

لكن الجماهير كانت تدرك ، اما بصورة عفوية واما بعد

الاطلاع والمناقشة ان خطرا حقيقيا يتهدد مصالحها في حال استمرار النهج التعسفي والتدابير اليسارية المتطرفة . والضرر لـم يكن مقتصرا على منطقة معينة ، أو على قطـاع معين . لذا فعملية التغيير والتطهير كان لا بـد أن تشمل مختلف مرافق الحياة ومحـافظات البلاد .

والدورة السابعة للجنة المركزية في سنة ١٩٧٧ كانت حدثـا فاصلا من هـذه الناحية . على الاقل بالنسبة الى تـركيز الخط السياسي والتنظيمي للحزب واتخاذ تدابير معينة تحـد من الفردية ومن الشذوذ عن خط القيادة الجماعي .

انها الدورة التي نقلت قسما من الصراع الى حيز العلن . وان كان كثير من الامور بقي محصورا ضمن اطـار التكتم الذي تقتضيه مصالح الدفـاع عن الوطن والثورة .

قحطان الثاني

تطوّر الخلاف مع سالم ربيّع ورهان اليمين العربي على اليسار المتطرف

القانون دولتي :
الخوف حـارس السلطان
نام كل ليلة بحضن جارية
يشهـد القضاة :
بأنني أعف مـن حكم ! » .

(محمد ابراهيم أبو سنة)

كان ذلـك في احـدى دور الضيافة في المحافظة الثالثة ، على مسافة غير بعيدة عن مدينة عدن ، عندما جمعت الرئيسين سالم ربيع علي وعلي نـاصر محمد جلسة طويلة على انفراد تخللها نقاش حـاد ومصارحة في شؤون في غاية الاهمية .

كان ذلـك في نهاية أغسطس ١٩٧٧ ، قبيل انعقاد الـدورة السابعة للجنة المركزية . لجان حزبية كلفت باعـداد تقارير عـن مرافق العمل السياسي والقطاعي والتنظيمي . وكان سـالم ربيع قـد كلف ـ ونكاد نقول : كلف نفسه ـ باعـداد تقرير عن الجيش والوضع العسكري .

رئيس الـوزراء فوجىء عندما عرف مـاذا يحتوي هـذا **التقرير** . لـم يكن يتصور أن رئيس مجلس الرئـاسة والامين العام

المساعد سوف يصب على الجيش غضبا متراكما في نفسه لأسباب ليست كلها واضحة .

مشروع التقرير احتوى على اتهامات كثيرة للجيش ، قيادة وقواعد . الاتهامات لا تدعمها أية أدلة . كل بطولات الجيش في دفاعه عن الوطن ضد المرتزقة وفي صيانته للثورة قد تبخرت فجأة من ذهن « سالمين » . وتبخرت أيضا تضحيات رفاقه الشجعان في الحرب الشعبية ضد المستعمرين ، هؤلاء الرفاق الذين هم بناة الجيش وهم صانعو خطه السياسي وتجاربه العسكرية .

وبعد مناقشة طويلة قبل سالم ربيع « بالتخفيف » من كلمات محدودة أو شتائم معينة موجهة ضد الجيش . وهيَ اتهامات بعضها داخلي وبعضها خارجي .

وتشعّب النقاش الى امور عديدة . وفي اليوم التالي ذهب الاثنان لحضور مناورة عسكرية ضخمة بالاسلحة الحية قام بها الجيش وشاركت فيها جميع القطاعات ، واعتبرت حدثا في حياة القوات المسلحة وأعطت تأثيرا معنويا في أنحاء البلاد كما في الدول المحيطة .

اثناء المناورة لاحظ بعض قادة القطاعات أن رئيس مجلس الرئاسة يطلب من القادة تنفيذ مهمات معينة والتصويب على اهداف غير الاهداف الملحوظة في برنامج المناورات . ومنها أنه طلب اصابة نصب « ولي » . فاضطر القادة الى احداث تعديلات فورية تلبية « لمزاج » الرئيس .

وعندما انتهى الاحتفال وحقق نجاحا باهرا وتبادل الجميع التهاني ونقلت اجهزة الاعلام الوقائع ، وقف « سالمين » في الباحة والقى في المحتفلين وفي الجنود المرهقين من التعب كلمة « حياهم فيها » ولكنه هاجم فيها الجيش وتركيبه وقيادته واعلن ان هذا الجيش يجب حله فورا لأنه ليس جيش الثورة ولا جيش الجمهورية ولا جيش الطبقة العاملة وقيادتها الطليعية !

معظم الحاضرين اكتفوا بالتعبير الصامت عن دهشتهم . بعض المسؤولين والقادة تبادلوا النظرات دون أن يتمكنوا من طرح اي سؤال على بعضهم . فالمفاجأة كانت أكثر مما يعتقدون .

واقفل الجميع عائدين الى مناطقهم ، ولم يتمكن احد من البحث الصريح في خلفيات الخطاب .

بعدها بأقل من اسبوع في الاول من سبتمبر ١٩٧٧ ، اقيم احتفال عسكري في المحافظة الاولى ، بمناسبة عيد الجيش ، حضره كبار المسؤولين والضباط . فألقى رئيس الوزراء كلمة حماسية رد فيها بشكل ضمني على الكلمة الهجومية التي سمعها العسكريون من فم رئيس مجلس الرئاسة قبل ايام .

علي ناصر كان واضحا في أمور ثلاثة تناولتها كلمته :

ـ الاشادة ببطولة الجنود والضباط ودورهم المجيد في الحرب الشعبية وفي صيانة الاستقلال والدفاع عن الوطن والشعب .

ـ الارتباط الوثيق بين الجيش والتنظيم السياسي الموحد ، فالجيش هو القوة التي تحمي الثورة وتنظيمها القيادي ، وهو ينفذ قرارات اللجنة المركزية وتوجيهاتها .

ـ أما الفكرة الثالثة ، فهي انه لا يمكن لأحد ان يفكر بأي انقلاب عسكري في اليمن الديمقراطية .

هذه الفكرة الاخيرة بصورة خاصة فسرت ، في الاحاديث الجانبية ، تفسيرات شتى ، واعتبرها البعض دلالة على الاتجاه للتقليل من نفوذ اوساط معينة في الجيش ، واعتبرها البعض الاخر موجهة ضد المتعاونين مع الخط الانحرافي الذي كانت بوادره تظهر الى هذه الدرجة أو تلك ، والذي جاءت الدورة السابعة للجنة المركزية لتضع له حدودا .

الجميع ادركوا ، في كل حال ان خطاب رئيس الوزراء هو رد على اتهامات سالم ربيع وتهديد مبطن بأن أية قوة لن تستطيع أن تتجاوز التنظيم السياسي الموحد وقيادته اللجنة المركزية .

والمناقشة بين سالم ربيع وعلي ناصر كانت قد امتدت الى عدة جلسات ، بعضها مغلق وبعضها الاخر اشترك فيه واحد او اكثر من اعضاء المكتب السياسي أو من الوزراء .

وعندما كان نائب وزير الدفاع موجودا خارج البلاد استغل سالم ربيع هذا الواقع فاتخذ لنفسه الصلاحيات بصورة

الرفض الى هروب الكثير من الفلاحين التعاونيين من تعاونياتهم ووحداتهم الانتاجية ، وهذا قلص من الانتاج وعكس نفسه على متطلبات السوق واحتياجاتها .

ويورد الرفيق محمد سليمان ناصر امثلة اخرى على ممارسات القيادة الانتهازية اليسارية . ومنها ، اختيار مواقع بعض المزارع في بعض المحافظات بالرغم من ان هناك آراء واقتراحات بعدم فائدة هذه المواقع لأسباب موضوعية .. فيرفض سالم ربيع آراء الخبراء ويتصرف على مزاجه .

والغطاء لهذه التصرفات كان ، بالطبع ، الشعارات الثورية المتطرفة . ومنها انه يجب عدم تشجيع الملكية الفردية ، وعدم تشجيع الفلاحين الافراديين على كسب الربح ! مع العلم ـ على حد تعبير جريدة « ١٤ اكتوبر » ـ انه في الاتحاد السوفياتي الذي مر عليه ستون عاما من التطبيق الاشتراكي ما زال الفلاح يبيع ما تنتجه قطعة الارض التي تدخل ضمن ملكيته الشخصية في التعاونية ، والتي تحدد له بجانب منزله وبأسلوب حر .. بل ولهم أسواق لبيع منتجاتهم .

وما ذكر عن استهتار الطغمة « الرئاسية » بآراء الخبراء والاختصاصيين في مجال الزراعة ، توجد مثله نماذج كثيرة في المجال العسكري . وقد اخبرنا بعض القادة والمسؤولين في سلاح الطيران أن من جملة أسباب المشاركة الفعالة من جانب الطيارين في ضرب محاولة سالم ربيع الانقلابية ، انه كان لا يحترم آراءهم وكان يناقش ويعارض في كل قضية صغيرة وحتى في طريقة اقلاع الطائرة وتحركها .. ويصر على انه هو الذي يعرف بالتكنيك أكثر من كل اختصاصي في كل مجال من مجالات الدفاع والانتاج وسواهما .

هذا مع العلم بأن الطيارين هم اجمالا اكثر ثقافة من الرئيس ، ليس فقط في مجال اختصاصهم وانما أيضا في الثقافة العامة وكونهم متخرجين من معاهد رفيعة المستوى في الخارج .

وشيئا فشيئا ، اخذت النزعة الى التفرد تصب بشكل مفضوح في المشاريع المادية للبلاد على الصعيد الدفاعي بالذات ،

وليس فقط على مستوى الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

وفي بعض زيارات سالم ربيع الى مراكز عسكرية او في احتفالات ذات طابع عسكري كان يبدو عليه نوع من عدم الثقة بأنواع السلاح الموجودة لدى الجيش . وكثيرا ما قال لبعض الضباط ، كما قال للمقربين منه ، ان الاسلحة السوفياتية غير صالحة ولا تتلاءم مع ما يحتاجه البلد .

وحدث ذات مرة أن تكلم في تهكم مع اكثر من ضابط في مصانع أو مراكز عسكرية لمجرد انهم متخرجون من الاتحاد السوفياتي أو دول اشتراكية أخرى .

وشيئا فشيئا ، أخذت ترتبط في اذهان المسؤولين الحزبيين والعسكريين علاقة بين مجمل هذه التصرفات وبين ما يجري تحضيره على الصعيد العربي تجاه النهج التحرري الواضح الذي يسير عليه اليمن الديمقراطي .

لقد بدا أن ثمة خيطا رفيعا بين ادخال القبائل الى الجيش وبين الدعوات الى حل الجيش بحجة انه جيش فاشل ومتآمر و « غير كادح » .. كما بدأت تبرز تلميحات في مجالس « سالمين » الخاصة بشأن ضرورة تنويع مصادر الاسلحة و « عدم الاتكال » على الدول الاشتراكية .

واذا كان نهج الدورة السابعة للجنة المركزية قد ترسخ على كثير من الاصعدة كنهج ثابت للقيادة الجماعية رغم معارضة سالم ربيع ، غير أن أمورا متعددة ظلت تتصاعد فيها النزعة الفردية والتحايل على القرارات ، ومنها بعض الامور التي ظل سالم ربيع يتكتم عليها بحجة طابعها الامني أو الدفاعي او كونها تمس بالعلاقة بين شطري اليمن أو بالعلاقة مع الدول الصديقة .

وكان ذلك كله مجرد غطاء لقرارات وتدابير عملية كان يتخذها وجميعها تمس بوحدة اليمن وسياستها الخارجية وحلفائها ودفاعها الوطني .

ويقول بعض الضباط والمقاتلين ممن كانت لهم مهمات في مناطق قريبة من الحدود مع الشمال ، ان رئيس مجلس الرئاسة لم يستطع في اكثر من زيارة قام بها الى المراكز العسكرية هناك ،

أن يبرر التصرفات والظواهر الغريبة المتعلقة بالموقف من الحدود ومن المملكة العربية السعودية ومن الحركة الوطنية في الشمال .

وفي احدى الزيارات طرح عليه العسكريون أسئلة كثيرة ، كانت جميعها محرجة . ما هو موقفك من قضايا الخليج ؟ سمعنا أن مساعدات سعودية كبيرة هي في طريقها الى بلادنا ، فهل هناك شروط أو ظروف معينة تعطى على أساسها القروض والمساعدات ؟ ما هو موقفنا من الجبهات المناضلة في الشمال ؟ ما هو الموقف من حركات التحرير ، ومن الحركة الشيوعية العربية ؟.. وغيرها وغيرها من الاسئلة البديهية التي كانت تختمر في صدور هؤلاء المناضلين الواقفين على الحدود ويدهم على الزناد دون أن يعرفوا ماذا يجري في القاعات المقفلة بالنسبة الى جانبي الحدود .

وجاءت أجوبة الرئيس غامضة وملتبسة بما يتعلق من الموقف من السعودية . وكذلك بالنسبة الى التحركات العدوانية الاميركية في منطقة الخليج . لكن سالم ربيع كان موقفه واضحا تجاه مناضلي الحركة الوطنية في الشمال . قال : نحن نقدم لهم المساعدة بدون نتيجة وبدون طائل . انهم ليسوا مقاتلين . نحن نقاتل عنهم !

ويقول بعض هؤلاء العسكريين (وقد التقيناهم في منطقة القصر الجمهوري عند انتهاء المعارك واستسلام رئيس مجلس الرئاسة واعدامه) : كنا على ثقة بأن الجيش لا يمكن أن يوجه رصاصه ضد السلطة الشرعية التي هي القيادة الجماعية للتنظيم السياسي . فالحزبيون أقوياء في الجيش ، والتثقيف يجري بصورة منتظمة انطلاقا من أفكار الاشتراكية العلمية . وهذا قد غيّر الكثير من المعادلات . لقد تغيرنا وأصبحنا « جيشا آخر » ، جيشا للقيادة الجماعية وللطبقة العاملة وحلفائها ، وليس جيشا للقيادة الافرادية والمنحرفة .

وعاد هؤلاء العسكريون الى مواقعهم عند الحدود . فالتهديدات السعودية والرجعية ازدادت بعد فشل محاولة سالم ربيع الانقلابية . والمراقبون في الوطن العربي دهشوا لمجرى الحملة

الاعلامية والنفسية المتعلقة بهذا الموضوع بالذات .

قبلها بيومين كان أنور السادات ومناحيم بيغن والرجعية السعودية قد جندوا أجهزة اعلامهم للقول ان سالم ربيع هو الذي قتل الرئيس الغشمي ويجب انزال العقاب حفاظا على الامة العربية وعلى الاخلاق في التعامل بين الدول .

بعدها بيومين ، وبعد أن عوقب سالم ربيع ووضعت الامور في نصابها حفاظا على الاخوة بين جنوب اليمن وشمالها ، انطلقت الاصوات نفسها ، في القاهرة وفي تل أبيب وفي الخليج لتعلن ان عبدالفتاح اسماعيل والقيادة السياسية التي أعدمت سالم ربيع علي ، هم المسؤولون ويجب معاقبتهم .

واعلن الحداد في القاهرة على سالم ربيع علي بالذات .

واستمرت أعمال التحضير التي تبين أنها تستهدف شعب اليمن كله . وتكشفت ، وبسرعة مذهلة ، جوانب مجهولة من العلاقة بين نهج سالم ربيع اليساري المتطرف وبين اليمين العربي الاكثر تخلفا في رجعيته وفي ولائه للامبريالية .

وعادت الذاكرة بمسؤولي التنظيم والدولة الى الكلمات التي كانت تحكى أحيانا بعفوية ظاهرة ، والتصرفات التي كانت تؤخذ على أنها من قبيل الصدفة ، والاحاديث التي تدور وراء الكواليس بين عدن وعواصم عربية رجعية معينة .

وتبين أن الضابط المرافق الشخصي لسالم ربيع ، الذي اعتقل قبل أحداث يونيو ١٩٧٨ بأكثر من شهرين بتهمة التعامل المستمر مع السعودية (دون أن يعترض رئيس مجلس الرئاسة على الاعتقال لان في فمه ماء) ، هذا الضابط الكبير الذي كان يشغل منصب « ياوران الرئاسة » كان جزءا من اللعبة الكبيرة التي لعبتها الاجهزة الرجعية والاميركية في المنطقة ، مستفيدة من تخبطات سالم ربيع ومن نهجه المغامر وروحه القبلية ، ومستفيدة أيضا من كونه لم يمانع في أن يتزعم القوة أو الطغمة المؤهلة لمنع تحول اليمن الديمقراطية الى « بؤرة شيوعية وسوفياتية » على حد تعبير السعوديين .

وقد تبين بالوقائع وفي نتيجة التحريات أن الكثير من

المعلومات المتعلقة بأسرار الدولة وخططها ومشاريعها قد جرى تسريبه وعلى مستوى رفيع جدا الى الاجهزة الخليجية والامبريالية .

وفي كثير من المناسبات لم يكن السعوديون يخفون أمام ضيوفهم هذا الحرص على تشجيع « جناح » سالم ربيع حتى يتفرد بالسلطة ويمنع تطور التحالف السياسي الحاكم في اليمن الديمقراطية الى حزب طليعي وعلى الاسس « التخريبية » و « الملحدة » التي يسير عليها عبدالفتاح اسماعيل وعلي ناصر محمد وأعضاء اللجنة المركزية والحكومة .

وفي نشرة اسمها « أنباء اليمن الجنوبية » تصدرها المخابرات السعودية والاميركية باسم منظمة مزعومة اسمها « منظمة النداء العالمي لتحرير اليمن الجنوبي » ، نقرأ ما يلي في العدد السادس الصادر في شهر سبتمبر ١٩٧٧ ، اي قبل تسعة أشهر كاملة من عملية سالم ربيع الانقلابية :

« يبدو أن ردود الفعل السوفياتية ازاء المحاولات التي بذلتها السعودية خلال الاشهر القليلة الماضية لاقناع حكام اليمن الجنوبية للتخلي عن السياسات المعادية للدول العربية ، كانت ردود فعل مقرونة بقلق متزايد . ولقد قررت موسكو الان أن الوضع يتطلب اتخاذ اجراء ايجابي » .

ويتحدث المقال عن زيارة علي ناصر محمد مع وزير الصناعة عبدالعزيز عبدالولي الى الاتحاد السوفياتي وأن الروس حذروه من أي محاولة للانتقاص من صداقة السوفيات من جانب السلطة في اليمن الجنوبي .. وتتابع النشرة :

« وهكذا فان سالم ربيع يجد نفسه في موقف صعب للغاية . فهو من جهة يعرف انه لا بد من الحصول على مساعدات مالية كبيرة اذا اريد لنظامه المعرّض الخطر بصورة متزايدة البقاء . وهو من ناحية أخرى يرى أن الاتحاد السوفياتي الذي يتبع عن قصد سياسة ابقائه مقيدا باعتماده الكلي على السوفيات للحصول على السلاح وغير ذلك من المساعدات التي بدونها لا يمكنه أن يحافظ على قبضته على البلاد .. »

وتتحدث النشرة عن « كفاح » رئيس مجلس الرئاسة ضد « خصمه الموالي للسوفيات عبدالفتاح اسماعيل ، الامين العام للحزب الحاكم » ، وتضيف :

« ان سالم ربيع لن تعيقه اية موانع ايديولوجية في مناوراته للبقاء في الحكم . فهو قبل كل شيء رجل محنك وكل همه هو البقاء في الحكم . والدليل على ذلك هو القوانين الصارمة التي أصدرها والتي استطاع بواسطتها أن يقوي سيطرته على اليمن الجنوبية مع أنها قوانين مغلفة بعبارات ماركسية » .

وتتابع هذه الشهادة الوثائقية السعودية فتقول :

« وعلى سبيل المثال فان سالم ربيع أشاد في حفلة خاصة اقامها ، بفوائد « حكم الاسرة » ، وتطبيقه على دولة جمهورية عربية اشتراكية . وعلى الرغم من انه يقر على تفكيك النظام القبلي الذي يتمسك به شعب اليمن الجنوبية ، فان أفراد قبيلة الفضلي ، وهي القبيلة التي ينتمي اليها قد عينوا في مناصب رئيسية في المؤسسات السياسية والامنية .. وأحد التنازلات التي قام بها سالم ربيع لارضاء حلفائه السوفيات الذين يشكون في نواياه ، هي أنه منع ، حيثما كان ذلك ممكنا ، الصحف من نشر أخبار المساعدات المالية التي تلقاها في الاونة الاخيرة من المملكة العربية السعودية .. »

ويضيف تعليق النشرة المذكورة أن سالم ربيع اضطر ، بالمقابل ، الى السماح بتزويد المنظمات المؤيدة للسوفيات في افريقيا بالسلاح الروسي عبر ميناء عدن . وتقول النشرة : وهو على يقين بأن أعماله في المستقبل سوف تظل تحت رقابة شديدة ، وانه كلما زاد اعتماده على مصادر أخرى للمساعدة فان الثمن الذي سيطالبه به الروس سيكون أكبر . وأبناء الشعب في اليمن الجنوبية ينتظرون الان ، ببعض الشك ، رؤية ما اذا كانوا سيحصلون على أي من فوائد المساعدات المالية السعودية .

هذه الوثيقة السعودية ، اذا كانت تدل على صحة ما ذكرناه بالنسبة الى المراهنة السعودية على نهج سالم ربيع منذ فترة طويلة ، فهي انما تكشف أيضا المعنى الحقيقي للمساعدات التي

تقدمت بها السعودية الى جمهورية اليمن الديمقراطية ولا سيما في العام ١٩٧٧ .

الوثيقة تدل ، بما لا يقبل الشك ، أن المساعدات القليلة التي أعطاها السعوديون لم تكن عونا للشعب اليمني بل كانت جزءا من مخطط لمنع تطور نظام الحكم في اليمن الديمقراطية الى الشكل والمضمون الاكثر تقدما . وكانت عونا لجناح معين في السلطة هو الجناح الذي يقوده سالم ربيع ، وكان السعوديون يأملون توظيف هذه المساعدات في سبيل انقاذ سالم ربيع من « خصمه الموالي للسوفيات » ومن حكاية الحزب الطليعي لأنها حكاية مزعجة لأسياد « الاسرة » .

وليس من قبيل الصدفة ايضا ، اعتراف السعوديين بأن صديقهم سالم ربيع يحب تحويل السلطة الى « حكم الاسرة » . وكذلك ، حديثهم عن قبيلة الفضلي .

كان هذا الكلام ، اذا ، في سبتمبر ١٩٧٧ . والاحداث اللاحقة ، المعروفة منها والمجهولة ، اثبتت صحة ما ذكرناه وما اعترف به السعوديون بالذات . فالمساعدات السعودية أخذت تشح وتتقلص بمقدار ما كان الامل يضعف في ضرب او احباط الخط السياسي للقيادة الجماعية المتمثلة في اللجنة المركزية للتنظيم السياسي الموحد . الى ان اختفى هذا الدعم المالي وتبخرت الوعود ، واخذت السعودية ترسل بدل الفلوس اسلحة ومرتزقة وتحرض على اثارة البلبلة والاقتتال بين شطري اليمن ، أو بين أبناء اليمن الجنوبية بالذات .

وقد عبر لنا المقدم علي عنتر ، وزير الدفاع ، عن هذه القصة المتعلقة بالمساعدات بمثل طريف على طريقته الشعبية الجميلة : السعوديون قدموا لنا « حق الخطبة » حتى يأخذوا العروس . وكان ذلك مثل الطعم ، او المادة التي ترسل الى البحر حتى يلتقط بواسطتها السمك الكبير . ما فعلناه نحن في اليمن الديمقراطي ، هو اننا التقطنا طرفا من اللحم ورمينا الباقي عندما شعرنا بأن هناك خطرا بأن تسحبنا الصنارة .

ويضيف الوزير عنتر : نحن شعرنا بأن المساعدات لها

أهداف سياسية ولكن على الامد الطويل . ولكن ، قلنا بيننا وبين أنفسنا : اذا بدهم يعطونا مساعدات لشرائنا ، فهذا صعب جدا . أما كلامهم عن اتفاقياتنا مع السوفيات « الملحدين » ، فجوابنا عليه بسيط : هؤلاء الملحدون يساعدوننا بدون شروط ، أما المسلمون أو الناطقون باسم الاسلام في جوارنا فلم يقدموا لشعبنا شيئا . أموالهم تملأ صناديق سويسرا ولندن والولايات المتحدة وتقطع عن الشعب العربي . يدعمون اليمين الايطالي حتى لا ينجح الحزب الشيوعي في ايطاليا ويقطعون اللقمة عن المواطن اليمني الجائع ولا يقدمونها الا اذا كانوا سيسحبون مع اللقمة كرامة الشعب .

ويضيف : السوفيات ساعدونا عندما كنا نمشي حفاة وكنا مبعثرين ويقتلنا التخلف . اليمن الجنوبي كان ثلاثين دولة في دولة . الملحدون قدموا لنا المساعدات والمسلمون رفضوها . وفي الجنة نرجو أن يكون هنالك مجال للمحاسبة .

ويصل علي عنتر الى العوامل التي منعت نجاح المشروع المعادي لليمن . فيقول : لقد جاءته وعود بأن حركته ستنجح . ولكنه راهن على الجيش معتبرا أنه قادر على توجيهه ضد القيادة الجماعية . كما راهن على القبائل . وانا قلت له اياك ان تمشي في هذا الخط . واياك أن تتعالى على الحزب والا فسوف تسحق . وفي الواقع ، كانت لدى « سالمين » خطة لقتل كل عنصر قيادي في التنظيم . وشعرنا ، بعد استمراره في تصرفاته المشبوهة ، اننا نكاد نقع في الفخ ، فقد وضعنا في معركة مع الشطر الشمالي نحن غير مقتنعين بها . وكان همنا أن نضع الجميع امام مسؤولياته تجاه مسألة اغتيال الغشمي وتجاه التآمر على الثورة في اليمن الديمقراطي من الداخل . وكان همنا ان يعرف الجميع قدرة التنظيم على محاسبة كل من يرتكب جرائم باسمه ضد الاخرين . وعقدنا اجتماعا للجنة المركزية للبحث في الموضوع . وكنت قد قلت له : يمكنك في حال الاستقالة ان تذهب من البلد معززا مكرما أو أن تبقى مواطنا موفور الكرامة .

ولكن ، تبين عندما نزلت علينا القذائف في تلك الليلة ان

غرض أصحاب المخطط لم يكن تغيير النظام في الشمال وانما القضاء على النظام في الجنوب . أخواننا السعوديون ، وقابوس « أبو المشدة » أتيحت لهم ، كما ظنوا ، الفرصة للانقضاض على نظامنا . فقالوا ان ربيع ليس هو المجرم وانما الاخرون . نحن كنا امناء مع كلامنا . فقد ضربنا المحاولة الانقلابية وحكمنا بالاعدام على ربيع حتى نكون صادقين مع شعبنا وحتى نعلن لشعبنا في الشمال والجنوب وللشعب العربي وللعالم كله ، ان المجرم مجرم والعقاب عقاب . لكنهم هم لم يكونوا صادقين فلبسوا ثياب الحداد على المجرم وأعلنوا حربهم علينا في الجامعة العربية وفي غير الجامعة العربية . ونحن نستخدم كل امكانياتنا لتجنيب شعبنا اليمني الموت . نحن نريد امانا ونريد خبزا ، لا سلاحا . ولكننا سنضطر الى التضحية بلقمة عيشنا حتى ندافع عن ارضنا ونحولها الى مقبرة للغزاة . وانا ، المسؤول العسكري ، اقول انني اكره الحرب . وشعبنا الذي تحرق جسمه الشمس الحادة يحتاج الى قمصان ويحتاج الى مصانع . الم يخبرك مسؤولو الاقتصاد الوطني كيف أننا نفتش عن ارخص الاغذية في هذا الكون حتى نسد رمق الجوع .. أما الامراء السعوديون فانهم يفتشون عن اغلى الملاهي واكثر المراكز الاوروبية بذخا حتى يتباهوا بانهم يتكارمون ويدفعون ملايين الدنانير على الغواني وعلى مختلف ضروب اللهو .

ثم ـ يضيف وزير الدفاع ـ هناك شعبنا في الشمال . لقد شبعنا تمزقا وشبعنا حروبا . ولن نحقق الوحدة بالحرب أو بالاغتيالات . نحققها بالعمل البناء والحوار . وهناك مسألة التعايش . نحن وضعنا خطة للتعايش مع جميع الانظمة في المنطقة . فلا نريد أن نتدخل في شؤون احد . وليس اليمنيون هم الذين سيغيرون النظام في السعودية او حتى في عمان . كل شعب هو الذي يقرر مصيره . ونحن مقتنعون بهذا الخط . ولن نتدخل في شؤون أحد ولا نريد أن تستمر المهاترات والحرب النفسية . فنحن نفتش عن الحياة المطمئنة والكريمة . من يساعدنا في هذا المجال نقبل مساعدته بدون شروط . ولم نعقد معاهدات لا مع السوفيات ولا مع غيرهم كما يدعون . ولا نفتش ولا السوفيات

يفتشون عن قواعد عسكرية في المنطقة . نحن نفتش عن مستقبل لأطفالنا . ونعرف أن أبناءنا الكادحين يعبدون طرقات السعودية ويغسلون السيارات الفخمة ويرتبون قصور الامراء ، لأن شعبنا ما زال عاريا وفقيرا . وبفضل كادحي اليمن وكادحي السعودية يقيم أثرياء العرب ثرواتهم وموائدهم ويمارسون ملذاتهم .

لقد عبّر العديد من المناضلين ومقاتلي القوات المسلحة عن هذه الروح التي تحدث بها علي عنتر . ولا واحد منهم كان يبحث عن طريقة لتفجير الصراع . وذلك رغم تمادي جماعة سالم ربيع في خطواتهم المعادية للمنطق السليم والمنافية لاحتياجات نمو الجيش بالذات . كانوا واثقين بأن الممارسة الديمقراطية الجارية في قيادة التنظيم السياسي الموحد وقواعده ستاخذ طريقها الى تركيز أسس الدولة والتنظيم والقيادة الجماعية .

لكنهم كانوا دائما في يقظة . عين على التجربة الطليعية المؤدية الى بلورة قيام حزب من نوع جديد ، وعين أخرى على الحدود بالنظر الى ضخامة التحرك المعادي . وكم كان تأثرهم شديدا عندما اضطروا لحمل السلاح حتى يحسموا الوضع لصالح القيادة الجماعية . وكم كان تأثرهم شديدا عندما راوا القبلية والتسلط عائدين ، في لباس ثوري ويساري متطرف هذه المرة ، بعدما كانا قد سيطرا على الوضع قبل الاستقلال ثم في ايام هيمنة الجناح اليميني في الفترة الاولى من الاستقلال .

ويكتب أحد محرري جريدة « ١٤ اكتوبر » :

« كلنا يتذكر كيف وجهت البنادق الى صدور الفلاحين والعمال لبناء حصون رؤساء القبائل وقصورهم فوق الجبال والهضاب المرتفعة .. »

وقد أخذ الناس يستنتجون ، اثناء سنتي ١٩٧٧ و ١٩٧٨ بشكل خاص ، أن النافذين المحيطين بسالم ربيع يعيدون الكرة الى التجربة القبلية ، ولكن بصيغة اخرى .

وكثيرون يتذكرون كيف لجا قحطان الشعبي ، بعد الاستقلال مباشرة ، الى محاولة تكريس السلطة واجهزتها في يده متحايلا على التنظيم السياسي ومعتمدا على الدعم القبلي ، وكيف ادى ذلك

الى بلبلة في البلاد كلها والى استغلال واضح من جانب الاعداء وبداية حرب أهلية داخلية ، لولا أن الجناح الثوري في الجبهة القومية عاد وحسم الامور في ٢٢ يونيو ١٩٦٩ .

وهم يتذكرون أيضا كيف أن الجناح التقليدي في الجبهة القومية حاول منذ السنة الثانية بعد الاستقلال ان يطرح مشروعا يركز جميع الصلاحيات في يد الرئيس ، وذلك في المؤتمر الرابع المنعقد في زنجبار سنة ١٩٦٨ . وهي التجربة التي حاول سالم ربيع أن يكررها بعد عشر سنوات وكأنه لم يستفد شيئا من كل ما حصل .

الجناح التقليدي في الجبهة القومية طرح ، في ذلك المؤتمر التاريخي ، مشروع دستور يعارض فيه الوثائق الديمقراطية التي تقدم بها الفريق الاكثر تقدما في التنظيم . وفي ما يلي بعض عناوين الدستور المقترح ، على سبيل المثال لا الحصر :

- يتولى رئيس الجمهورية السلطة التنفيذية .
- لرئيس الجمهورية ان يعين نائبا لرئيس الجمهورية ويعفيه من منصبه .
- يضع رئيس الجمهورية بالاشتراك مع الحكومة ، السياسة العامة للدولة في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والادارية ويشرف على تنفيذها .
- يعين رئيس الجمهورية رئيس الوزراء ويعفيه من منصبه . ويعين رئيس الجمهورية اعضاء الحكومة من الوزراء ويعفيهم من مناصبهم .
- ... لرئيس الجمهورية حق اقتراح القوانين والاعتراض عليها ، واصدارها .
- اذا حدث ، في ما بين ادوار انعقاد المجلس الوطني ، أو فترة حله ، ما يوجب الاسراع في اتخاذ تدابير لا تحتمل التأخير ، جاز لرئيس الجمهورية أن يصدر في شانها قرارات تكون لها قوة القانون .
- ... يصدر رئيس الجمهورية القرارات اللازمة لترتيب المصالح العامة .

- يصدر رئيس الجمهورية لوائح الضبط واللوائح اللازمة لتنفيذ القوانين ، وله أن يفوض غيره في اصدارها . ويجوز أن يعين القانون من يصدر القرارات اللازمة .
- رئيس الجمهورية هو القائد الاعلى للقوات المسلحة .
- رئيس الجمهورية هو الذي يعلن الحرب بعد موافقة المجلس الوطني .
- رئيس الجمهورية يبرم المعاهدات ... وتكون لها قوة القانون .
- يعلن رئيس الجمهورية حالة الطوارىء على الوجه المبين بالقانون .
- لرئيس الجمهورية حق العفو عن العقوبة أو تخفيضها .
- يعين رئيس الجمهورية الموظفين المدنيين والعسكريين ، والممثلين ، ويعزلهم على الوجه المبين في القانون .

هذا فضلا عن المواد المتعلقة برئاسته لجلسات مجلس الوزراء ، وحقه في الاحوال الاستثنائية في أن يصبح هيئة تشريعية أيضا ، وما الى ذلك .

كان من الطبيعي أن يحدث مثل هذا الاقتراح دويا من المعارضة من جانب « القوة الثالثة » أو « المجموعة الثالثة » كما سمي آنذاك الجناح المتقدم من التنظيم السياسي ـ الجبهة القومية . وسقط مشروع الدستور ، وأقر المؤتمر رغم البلبلة والصراع العنيف وسيطرة الجناح اليميني على السلطة مجموعة من القرارات تشكل تطويرا ايجابيا الميثاق الوطني الصادر في يونيو من عام ١٩٦٥ . وقد جاءت رغم « حدودها » ، تشكل انتصارا للجناح الذي يرغب فعلا في التغيير الاقتصادي السياسي ـ الاجتماعي الجذري ، والذي يريد أن يتحول التنظيم الذي قاد الثورة المسلحة الى قوة قيادية ومنظمة لحياة البلاد ومؤسساتها ومرافقها بعد الاستقلال .

وجاء في القرارات ، ورغم ارادة الجناح اليميني الحاكم والمهيمن ، تركيز على تأميم الاحتكارات الاجنبية وتطبيق شعار « الارض لمن يفلحها » ، وانشاء الميليشيا الشعبية ، واقامة مجلس الشعب ، وتصفية اجهزة الدولة القديمة واعادة بناء الدولة على

أسس جديدة ، وانتهاج سياسة داخلية وخارجية واضحة تقوم على أساس الحفاظ على السيادة الوطنية ومعاداة الامبريالية والاستعمار الجديد ودعم ومساندة حركات التحرر الوطني .

الجناح التقليدي الذي فاجأته هذه القرارات لم يقبل بأي تنازل عن فكرة الهيمنة ، ولم يقبل بمبدا القيادة الجماعية ولا بالانصياع لراي الاغلبية . فاستخدم الاساليب الملتوية ، من الاجراءات الادارية والعسكرية الى الانقلاب العسكري لمنع هذه العملية الديمقراطية ضمن هيئات التنظيم السياسي من التحول الى العنصر اليومي في حياة التنظيم والسلطة والمؤسسات والهيئات الشعبية .

وكأنما التاريخ يعيد نفسه ، وبعد عشر سنوات ، ولكن بوجود رئيس جمهورية ذي اتجاه يساري متطرف بدلا من قحطان الشعبي ذي الاتجاه اليميني . وبوجود تيار يضرب مبدأ القيادة الجماعية ومبدأ الديمقراطية المركزية مغلفا ذلك بشعارات من « الثورية » القصوى والمزايدة في القضايا الداخلية والقومية ، بينما كان الجناح المتسلط في سنة ١٩٦٨ يغلف شذوذه عن القيادة الجماعية وعن الديمقراطية بعبارات ذات طابع « قومي بحت » وعلى أساس توحيد البلاد بشتى فئاتها وطبقاتها .

وفي الحالتين ، هناك سلطة تعمل على تحويل التنظيم الى مجرد ملحق بالدولة وتحت قيادتها .

وفي الحالتين هناك محاولة لضرب الانجازات التقدمية ولمنع أو تقليص المبادرات الشعبية . سواء كان ذلك عن طريق التحجر والنزعة التقليدية المعادية للتغيير ، أم كان عن طريق القفز فوق المراحل وطرح شعارات تعجيزية والتعالي على الجماهير من منطلق التنظير الثوري .

وفي الواقع ، فكما كان للجناح التقليدي وبالتالي النزعة اليمينية المحافظة جذوره وظروفه التاريخية ، كذلك كان للجناح الانتهازي اليساري المتطرف وبالتالي النزعة الى المغامرة ، جذوره وظروفه التاريخية . وان كان تطور هذا الاتجاه الاخير اكثر التباسا من تطور الفكر اليميني والنهج الرجعي التقليدي . وغالبا

ما تكون الانتهازية اليسارية صعبة التمييز ومعقدة المظاهر ، على نقيض النزعة اليمينية المحافظة ، وحتى الانتهازية اليمينية ضمن الفكر التقدمي والتي غالبا ما تكون سهلة الانفضاح .

ومنذ سنة ١٩٦٨ تعرضت الثورة في اليمن الديمقراطي الى عدة أنواع من الصراعات ، بما في ذلك ما حدث ضمن الجناح الاكثر تقدما في التنظيم السياسي . وقد طرحت ضمن ما سمي « المجموعة الثالثة » نظرتان في التعامل مع الفريق التقليدي المهيمن على السلطة في تلك الفترة من سنة ١٩٦٨ :

الاولى ، حرب تحرير شعبية من خلال قيام بؤر ثورية ، واعداد الكادر من خلال عملية طويلة وشاقة بهدف اقامة دولة العمال والفلاحين .

والثانية ، ايجاد تحالفات وطنية وبرنامج عمل وطني كمدخل لاحداث تغييرات لصالح القوى الشعبية صاحبة المصلحة في الثورة السياسية والاجتماعية .

على أن الاحداث السريعة طغت على مجمل الاراء ، فقامت حركة تآمرية ضد مجموع الجبهة القومية في ٢٧ يوليو ١٩٦٨ ، مما جعل « المجموعة الثالثة » تقر وثيقة للمصالحة مع المجموعة الاخرى على أساس برنامج يستكمل التحرر الوطني . . فساهمت المجموعة الثالثة بشكل حاسم في المعارك ضد المرتزقة في عدد من المحافظات ، واستفادت من الفرصة لتنظيم نفسها وتنسيق كوادرها . فشعرت « المجموعة الثانية » ، اي الكادر التقليدي بالخطر فحاولت القيام بانقلاب عسكري في ليلة ٢١ يونيو ١٩٦٩ ، لكن قوى التنظيم التقدمية الجذرية كانت اقوى ، وتحققت خطوة ٢٢ يونيو التصحيحية(١) .

والنقاش لم ينته ، في الواقع ، عندما بدات الثورة المنتصرة بوضع وتنفيذ برنامج التغيير الجذري للمجتمع وبرنامج بناء المؤسسات والمرافق على أسس جديدة ولتصفية جهاز الدولة القديم .

(١) مجلة « الثقافة الجديدة » ، العدد الاول ، السنة الاولى ، اغسطس (آب) ١٩٧٠ . والمجلة تصدرها وزارة الثقافة في جمهورية اليمن الديمقراطية .

ورغم الوضوح الطبقي والسياسي الذي تحلى فيه التنظيم السياسي ـ الجبهة القومية ، ورغم التأييد الشعبي والمشاركة الشعبية الديمقراطية في أعمال التغيير وفي المنجزات الثورية ، ولا سيما من جانب العمال والفلاحين والجماهير المسلحة ، فان تخبطات عديدة كان لا بد أن تحصل ، لعدة أسباب ومن بينها الضعف الثقافي وقلة التجربة في حقول البناء والتخطيط والبرمجة وفي العمل الشعبي والقطاعي .

وقد حدثت عدة تصرفات لا تخلو من التطرف أثناء انتفاضات الفلاحين التي قامت بتشجيع من السلطة الثورية في الفترة التي أعقبت صدور قوانين الاصلاح الزراعي الجذري سنة ١٩٦٩ . وأبرز أهداف هذا القانون كان اشراك الجماهير في انتزاع حقوقها وتعويدها على العمل التعاوني وعلى تنظيم نفسها .

واذا كانت أعمال اللجان الفلاحية قد تحلت بالروح الديمقراطية والشعبية ، فانه في كثير من الحالات تم الاعتماد على الحماس الفوضوي وقامت أعمال انتقام لا تخلو من الوحشية وليست كلها مبررة ، خصوصا ضد بعض الملاكين الذين لم يبدوا أية مقاومة والذين ليست ملكياتهم ذات طابع اقطاعي أو ذات أهمية تذكر .

وقد سبق وذكرنا الظروف التي نشأت فيها « القوات الشعبية » ، وهي القوات التي قامت بتنفيذ وصيانة الاجراءات الثورية لتحرير الفلاحين وشغيلة الريف . وذكرنا ايضا كيف أن سالم ربيع قد حرص على ابقاء هذه القوات من دون ارتباط وثيق ومتكامل بالقيادة الحزبية وبالتنظيم بصورة عامة . وهذا جزء من ممارساته شبه القبلية التي تبين في ما بعد انها تهدف الى وضع عائق أساسي في وجه جميع محاولات ارساء التنظيمات الشعبية والدفاعية على أسس متينة وبقيادة التنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية .

ويبدو أن الاتجاه اليساري المغامر كان من البداية غير متحمس للتجربة المثمرة التي انطلقت بشكل خاص في مارس ١٩٧٣ بالحوار بين فصائل العمل الوطني الثلاثة والتي أدت الى قيام

الاتفاق في ما بينها في فبراير ١٩٧٥ والمؤتمر التوحيدي الذي انعقد في نفس السنة .

ورغم الخطابات التي القاها سالم ربيع تأييدا لهذه الخطوة التاريخية ، فهو في الحقيقة كان متحفظا تجاهها . ليس فقط لانها تفسح في المجال أمام المشاركة الشعبية الديمقراطية في صنع القرار ، مما يقلل من امكانيته على التفرد ، وانما أيضا بما أعطته من ترسيخ لخطة القيادة الجماعية وتطوير للعمل التثقيفي ولنشاط الكادرات ، حيث أصبحت المدرسة العليا للعلوم الاشتراكية هي المختبر الحقيقي لبناء الاسس التنظيمية والفكرية للانتقال الى مرحلة الحزب الطليعي .

وعلى حد تعبير جريدة « ١٤ اكتوبر » ، فان سالم ربيع « رأى في حل مسألة وحدة العمل الوطني الديمقراطي خطرا سيقود الى سحب الحصيرة التي تقف عليها نزعته الفردية ، ووسيلة ستؤدي الى تقليم اظافره التي رباها طويلا لكي ينقض على منجزات الشعب والثورة في الوقت المناسب .. كما راى في وحدة العمل الوطني الديمقراطي خطرا آخر سيحول مواقعه الجامحة التي تأبى روح القيادة الجماعية الى مواقف ـ دونكيشوتية ـ خالية من أية قاعدة يمكن ان تستند أو تتكىء عليها .. فحاول جاهدا أن يضع العراقيل والعقبات امام انجاح الحوار لكي لا تصل وحدة الفصائل الوطنية الديمقراطية الى مشارف الوحدة الاستراتيجية .. ولكن المبررات الموضوعية والذاتية لوحدة العمل الوطني الديمقراطي كانت أقوى من القرارات التخريبية »(٢) .

على أن التجربة الوحدوية استمرت ، رغم الصعوبات التي وضعت في طريقها ، وانتقل سالم ربيع وجماعته الى وضع عراقيل غير مباشرة ، وغير معلنة في معظمها ، ومنها ما ذكرناه من تسريب للعناصر القبلية أو غير المؤمنة بالقيادة الجماعية الى مراكز مسؤولة على أكثر من صعيد .

وهو قد أعلن ، قبل الاتفاق بين الاحزاب الثلاثة ، معارضته على هذا النحو أو ذاك للنهج الذي يسير عليه الحوار بين الجبهة

(٢) جريدة « ١٤ أكتوبر » ، ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٧٨ ، ص١ .

القومية والاتحاد الشعبي الديمقراطي وحزب الطليعة الشعبية .

كان ذلك في خطاب ألقاه في الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٧٤ . الخطاب جاء حافلا بالروح العدائية ، وكان هاجسه فيه هو البحث عن نقاط الخلاف وتوسيعها ، مرفقا ذلك بضروب من التهديد والوعيد تجاه القوى الديمقراطية .

وكثيرا ما صارح المقربين منه ، بعد الاتفاق وبعد المؤتمر التوحيدي في نوفمبر ١٩٧٥ ، بأنه غير مؤمن بجدوى هذا الخط التنظيمي والجبهوي ، وبأن الحياة لن تكتب له النجاح .

ومما يلفت النظر ـ وهذه من خصوصيات الانتهازية اليسارية ـ ان هذا الجناح الذي زايد ثوريا ويساريا وماركسيا ولينينيا في كل شيء تقريبا ، هو نفسه راح يبتدع المبررات والحجج التي مفادها أن « الواقعية » و « الرصانة » تقتضيان بأن لا نتسرع بالتحرك نحو الحزب الطليعي لان الظروف لا تسمح ، بعد ، بهذه الخطوة !

وقد قال لنا الرفيق انيس يحيى ، عضو المكتب السياسي ورئيس الدائرة الاقتصادية في اللجنة المركزية ، ان نوعين من الاراء كانت تطرح ، في سنة ١٩٧٧ بشكل خاص ، لعرقلة قضية الحزب الطليعي . الاول يقول ان وضع الطبقة العاملة اليمنية لم يصل بعد الى ما يؤهلها لعب دورها القيادي ، بالنظر الى ضعفها وحداثة سنها ، والثاني يقول ان الظرف العربي ولا سيما الخليجي لا يسمح بهذه الخطوة التي ستعتبرها الرجعية العربية استفزازا !

وما قيل عن الموقف من وحدة العمل الجبهوي في الشطر الجنوبي يقال عن الموقف من القوى التقدمية في الشمال اليمني . فكل عرقلة للجهود الجبهوية في الجنوب كانت تنعكس بشكل أو بآخر على العلاقة بين الفصائل الوطنية التي تسعى الى التحالف في الشمال .

وفي الاتجاه المعاكس ، فالمساعي التي تكللت بالنجاح في تعزيز القيادة الجماعية والعمل الموحد في الجنوب ، ولا سيما بعد الدورة السابعة للجنة المركزية في العام ١٩٧٧ ، قد أعطت تأثيرها الايجابي على التعاون والتحالف بين مناضلي الشمال .

واليمنيون المطلعون على تفصيلات النشاط السياسي كانوا يدركون حقيقة موقف سالم ربيع من قضية الوحدة .

مزايدات في قضية العمل الوحدوي أحيانا ، ونصائح فوقية متعالية على الشماليين أحيانا أخرى ، ثم نبش وتعزيز النزعات القبلية .. آراء وخطب وتدابير كانت كلها تصب في اتجاه ضعضعة الموقف على الساحة الوطنية في الشمال ، من جهة ، وايجاد المزيد من التمزق في العلاقة بين الشعب اليمني في شطري البلاد من جهة ثانية .

والتطورات اللاحقة ، ابتداء من مقتل الرئيس الحمدي بضغط من جماعة السعودية وما أعقبه من موجة رجعية وقمعية وانتهاء بمقتل الرئيس الغشمي بعبوة ناسفة آتية من الجنوب ، وما أعقبه من موجة عنيفة معادية لليمن الديمقراطي ومن دعوات رجعية وصهيونية الى الغزو ، هذه التطورات أكدت بشكل ساطع المخاوف التي كانت لدى مسؤولي التنظيم والدولة عندما كانوا ينظرون الى ما يمكن ان يؤدي اليه النهج الانتهازي اليساري .

هذا النهج كانت له تأثيرات كثيرة . وأدى الى بعثرة الكثير من الجهود وتخريب الكثير من الانجازات .. لكن الثورة استمرت . واستمرت معها الانجازات . في الاقتصاد والتربية والصحة والتخطيط الاجتماعي والعمراني . كما في الضمانات الاجتماعية وسياسة الاجور . وفي مجال صيانة وتعزيز الديمقراطية والمشاركة الشعبية .. بل حصل انتعاش في قطاعات ومجالات وفئات شعبية متعددة ، بالنظر الى زوال الكابوس المرهق عن أكتافها .

والتجربة الديمقراطية التي كانت تسير بصورة عادية و « بطيئة » لتطهير التنظيم والدولة والمؤسسات من معرقلي التطور الجديد ومن العناصر الفاسدة ، هذه العملية أخذت منطلقا جديدا واتجهت الى التنفيذ السريع والحاسم بعد القضاء على المحاولة الانقلابية في يونيو ١٩٧٨ .

ذلك ان التنظيم السياسي الموحد لم يكن قد انطلق من الصفر ولم يكن طري العود عندما اضطر لمجابهة التآمر الداخلي

والخارجي في يونيو ١٩٧٨ .

كانت لديه انجازات تراكمت منذ سنة ١٩٦٩ ، في الحياة العامة والمرافق والوزارات والقطاعات ، وفي التنظيم والتعبئة الشعبية ، وأيضا في مجال اعادة تربية الانسان .

ماذا نعني باعادة التربية ؟ وكيف عملت الثورة على اعادة بناء نفسية الانسان وتقاليده وأفكاره ، تمهيدا لاشراكه في تسيير البلاد وصنع المستقبل ؟

القصة غنية ، ومتنوعة ، وغريبة نوعا ما . وقد تحتاج منا أن نتسلق ، من جديد ، الجبال والهضاب التي تهيمن عليها آثار « بركان » التغيير وآثار ما قبل البركان .

العلم في الكبر مهمة ثورية غير مستحيلة

« .. هل تُخرج الثورة الوطنَ الطفلَ
من شهقات الثكلى ،
من صفحات الكتاب المغلق
في آخر
صف على الرف ؟. »
(علي الشرقاوي)

عند مرتفع صخري يطل على مدينة الضالع في المحافظة الثانية يقوم مبنى حولته الثورة الى مدرسة من نوع خاص ، والى منطلق لتجربة جديدة في الحياة اليمنية .

انها « مدرسة جيش التحرير » . وهي تعنى باعادة تربية المقاتلين الذين سبق وشاركوا في الحرب الشعبية بين عامي ١٩٦٣ و ١٩٦٧ . وبعضهم سبق وشارك في انتفاضات قبل الانطلاقة الشاملة للثورة .

الفكرة جاءت بمبادرة من رفاق المحافظة الثانية . وهي تنطلق من ان الكثيرين من المشاركين في الثورة اعتبروا ، لسبب أو لآخر ، ان دورهم قد انتهى بمجرد حصول البلاد على استقلالها . عندما كان هناك قتال واستشهاد في سبيل الوطن وفي سبيل الانسان ، قاتلوا وقدموا كل ما لديهم . وبعضهم قدم حياته .

أما وقد تحررت البلاد ، فعدد كبير من الثوار اعتقد أن مهمته انتهت . أو أنه لم يتح له المجال للقيام بأي دور في المجتمع المستقل . سيما وأن المستوى الثقافي لمعظم هؤلاء المقاتلين هو في درجة متدنية للغاية .

وهكذا ، كانت المبادرة . ودخل المناضلون القدامى الى المدرسة . دخلها بعضهم وكأنها بداية حياته . حتى الذين كانت لديهم نسبة معينة من التحصيل العلمي ، دخلوا الى المدرسة أيضا لتجديد معارفهم وربطها بالواقع وبمهمات الحياة الجديدة .

كانت الفكرة أن تضم المدرسة شباب جيش التحرير في المديرية الشمالية من المحافظة الثانية . على أن قيادة التنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية سارعت الى تعميم هذه الفكرة على صعيد الجمهورية كلها . قال المسؤولون للوفد الذي ذهب اليهم ليطرح الفكرة : انها لفكرة عظيمة ويزيد في أهميتها أنه لم يفكر أحد بها غيركم ، انتم ابناء المديرية .

وبدأ التدريس . العدد كان في البداية حوالي خمسين دارسا . ثم توسع . ولاقت المدرسة من البداية ثلاثة أنواع من الصعوبات :

الاولى ، أن الأمية كانت منتشرة في صفوف الوافدين الى المدرسة ، فكانت البداية من نقطة الصفر .

والثانية ، أن تعليم الكبار ليس في سهولة تعليم الصغار .

أما الثالثة ، فهي عدم قدرة معظمهم على التفرغ للدراسة ، خصوصا وأن بعضهم لا يزال في القوات المسلحة ، والمديرية محاذية للحدود مع اليمن الشمالي ، والمهمات كثيرة .

ثم ان الالتحاق بالمدرسة لم يكن في وقت واحد .

لكن الدراسة تطورت ، وأصبح هناك صف ثان وثالث ، وتدريجيا حتى السادس .. وطرحت فكرة متابعة الدراسة في منطقة أخرى من جانب الذين أنهوا السنوات القائمة هنا .

وتطور العدد من خمسين دارسا الى مئة وعشرة . بعضهم نجح أكثر من البعض الاخر . وأنشىء ، حديثا ، صف سابع ، والمشرفون على المدرسة يفكرون حاليا ماذا سيفعلون بالنسبة الى

الصفوف التالية .

ويلاحظ أنه اعتمد مبدأ التفرغ الدراسة مع منحة مدفوعة للجميع . ولدى الحديث مع الكثيرين من الدارسين يتبين أنهم بالفعل تغيروا تماما . وقد قال لنا أحدهم انه حمل البندقية فترة طويلة دون أن يعرف الابعاد السياسية والطبقية والقومية للثورة التي قام بها . كانت بالنسبة له مجرد ثورة مسلحة لطرد الانكليز والسلاطين . أما في ضوء المهمات الجديدة ، وفي ضوء العمل التثقيفي الجديد فأصبح يدرك مكانه من بين ثورات العالم كله ، وأصبحت الاشتراكية العلمية في النظرية وفي التطبيق ، سلاحا ومرشدا لعمله اليومي .

ومع تغير عقلية المقاتلين ، كانت تتغير علاقاتهم مع البشر . وقد قال لنا محمد راشد ناصر ، مأمور المديرية الشمالية ، ان بعض المناضلين القدامى عاد وحمل السلاح واستشهد بعد الاستقلال ، وبعضهم أصبح قادرا على تحمل المسؤوليات القيادية ، من تنظيمية وسياسية وادارية .

ويضيف الرفيق محمد أن الاصلاح الزراعي في المديرية ، مثلا ، انما تحقق بهدف سياسي ومعنوي أكثر من كونه قضية انتزاع مكاسب ملموسة لجماهير الريف . كان المطلوب انشاء علاقات جديدة وتغيير عقلية الفلاح وتحريره من ذهنية التبعية لمالك الارض . ومع أنه لم يكن يوجد اقطاع بكل معنى الكلمة ، فكان لا بد من القيام بهذه التدابير التي شارك فيها الفلاحون بتشجيع من السلطة بالذات . في حين ان ثورة الفلاحين في لحج (المديرية الجنوبية من المحافظة) قد وجهت ضد اقطاع عميق الجذور ومسيطر على مساحات كبيرة من الاراضي ، فكان الكسب كبيرا في المعنيين المعنوي والمادي .

وفي الواقع فالتركيز بعد حركة ١٩٦٩ التصحيحية كان على بناء الانسان بناء سليما وعلى أسس تقدمية وثورية . والجيل الجديد كان محط أنظار السلطة . ليس فقط لان قادة البلاد هم من الشباب بشكل عام رغم تجاربهم الطويلة في الكفاح الوطني . بل كذلك لان التجارب اثبتت ضرورة ارساء قاعدة

صلبة لتربية الجيل الجديد حتى لا يقع في المشاكل والتخبطات كما حصل في مراحل كثيرة في السابق ، وحتى تكون لديه مناعة وصلابة تتيحان له مقاومة الرياح العاتية .

وقد سبق وأتينا على ذكر المدارس التي انشأها الانكليز وأعوانهم في مناطق معينة من الولايات والامارات المتشرذمة ، وكيف أنها اكتفت بتعليم اللغة الانكليزية والحساب حتى تخرّج جيلا من الكتبة والموظفين الصغار في دوائر المستعمرين . وقد اصبح واضحا مدى تأثير ذلك في القيادات التي استلمت العمل السياسي والشعبي والنقابي على فترات معينة . وكذلك ، مدى تأثيره على الحركة العمالية حيث جاءت القيادات النقابية في معظمها عناصر انتهازية ومستعدة للمساومة ، الى أن حصلت التغييرات في المؤتمر العمالي لعدن بفضل النضال العمالي الدائب وبفضل نشاط الجناح المتقدم من الجبهة القومية ونشاط القوى التقدمية الاخرى .

وكان لهذا الواقع نتائج سيئة أيضا في ما يتعلق بالموظفين الكبار نسبيا ، والذين ركزت عليهم سلطات الاستعمار واحاطتهم بامتيازات كبيرة حتى يلتصقوا بنظام الاحتلال وينشروا فكرة التبعية واليأس والامية في الاوساط الشعبية .

ومن النتائج أيضا ، انه حتى الاحزاب الثورية الاكثر تقدما كان وعي أعضائها محدودا ومستواهم الدراسي متدنيا بصورة عامة ، الى أن بدأت الاعمال الفكرية والنشاطات والندوات التثقيفية والدورات التي أقيمت في اليمن الديمقراطية وفي البلدان الاشتراكية وسواها .

وواضح تأثير الوضع الاجتماعي والتخلف والتقاليد البالية ، على امكانيات المباشرة باعادة البناء الانساني والاجتماعي .

ويكفي أن نشير الى الصعوبات التي اعترضت عمل « مدارس أبناء البدو الرحل » .

كان قيام هذا النوع من المدارس واحدا من اهم اعمال الثورة بعد الحركة التصحيحية سنة ١٩٦٩ ، وبعد المباشرة بتنفيذ الاصلاح الزراعي وتحرير الفلاح بتشجيعه على القيام بالانتفاضات المسلحة ضد الاقطاع .

لقد وجدت القيادة الثورية أن فئة واسعة من السكان ممن لا يزالون يعيشون في حالة من التنقل بين الجبال والسهول والوديان ، لا تزال محافظة على البداوة ولا تزال تقاليدها تشدها الى عدم الاستقرار .

لذا فقد بذلت جهود كثيرة لاتاحة مجال الاستقرار للبدو الرحل ، من حيث المكان ومن حيث العمل . فأقيمت مؤسسات زراعية ومراكز لتربية المواشي والاغنام ، وما الى ذلك من المشاريع التي اشتملت عليها الخطة الثلاثية الاولى للاقتصاد الوطني ثم الخطة الخمسية المنتهية بانتهاء العام ١٩٧٨ . .

واحتلت مسألة التعليم حيزا مهماً في هذا الصدد .

وقد اعتبرت الهيئات المختصة في التنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية وفي مجلس الوزراء أنه يجب عدم انتظار الانتهاء من المشاريع الصناعية والزراعية حتى يبدأ تعليم أبناء البدو الرحل . فأقيمت مدارس خاصة لهذه الغاية ، من مبادئها تفريغ الاولاد للدراسة وتأمين السكن والكتب وسائر المستلزمات بصورة مجانية ، واعطاؤهم برامج اجتماعية وتربوية الى جانب البرنامج الدراسي العادي ، وتعويدهم على الحياة العصرية وجعلهم يؤثرون في حياة آبائهم ويسهمون في ترسيخ ارادة الاستقرار فيهم .

المدارس حققت نتائج قوية جدا . وأصبحت مضرب المثل في داخل البلاد وفي بلدان كثيرة في الخارج . ولاقت تجاوبا في كثير من المحافظات والمديريات ، وأعطت تأثيرا شديدا على حياة الالوف من العائلات الريفية . ولكن ، بقيت صعوبات عديدة ناتجة عن طبيعة الحياة التي تعيشها هذه الفئة الاجتماعية . من حيث عدم فهم ضرورة التعلم أحيانا ، ومن حيث الحاجة الى عمل الطفل أو الصبي ، وأيضا من حيث التقاليد الدينية والقبلية التي تشكل نوعا من « المناعة » ضد أي تطور جدي .

وهنالك أيضا ، الدور السيء الذي مارسه الانكليز والسلاطين والمشايخ خلال عهود طويلة من السنين . وما الى ذلك من العوامل التي رغم صعوبتها لم تحط من عزيمة المسؤولين من هذه التجربة النموذجية .

في الفترة الاولى كان معظم أهالي التلامذة يقبلون بارسالهم بتحفظ شديد .. ثم عندما يصل التلميذ الى السنة الخامسة مثلا ، نجد أن أباه قد « سحبه » من المدرسة حتى يذهب الى الحقل ويرعى الاغنام .

وحالة التلميذات هي الاكثر صعوبة . فمن جهة كانت مشكلة المرأة بالغة التأثير وبشكل مأساوي على وضع الجيل الجديد منذ الطفولة (وهذه قضية بالغة الاهمية سنأتي عليها في ما بعد) ، ومن جهة ثانية فالاهل كانوا في غالب الاحيان يجبرون ابنتهم على مغادرة المدرسة منذ السنة الرابعة أو الثالثة مثلا ، لتشغيلها في رعي الاغنام أو لابقائها في المنزل و « تزويجها » . وكثيرات هن اللواتي كان يعقد عليهن الزواج أو الخطوبة منذ سن الحادية عشرة وما دون .

ورغم كل ذلك فمدارس البدو الرحل نجحت واعطت ثمارا مهمة . وحققت هذه المدارس في مستواها الدراسي بالذات نوعا من المنافسة مع المدارس القائمة في المدن .

مع العلم بأن النتائج كانت تتفاوت بمقدار ما تكون فيه التقاليد شديدة ، أو بمقدار ما تنجح الاجراءات والضمانات الإقتصادية والاجتماعية التي يجري تأمينها للبدو الرحل .

والمعروف أنه ليس جميع مناطق اليمن الديمقراطية متساوية من حيث التقاليد الاجتماعية . وفي بعض الاماكن فالمراة البدوية تتمتع بحرية اكثر من المراة التي تعيش في القرى او في المدن ذات التقاليد المتزمتة . والاسباب كثيرة ، ومنها ان المراة البدوية تشارك بصورة مباشرة في العمل والانتاج ، وهي التي تتولى في كثير من الاحيان تأمين معيشة الاسرة . فضلا عن صعوبة وضع قيود شديدة عليها في ظروف انتقالها الدائم مع الاغنام .

ومن مدارس البدو الرحل الى جانب آخر من عملية بناء الانسان الجديد ، عنينا به محو الامية . وهنا لا بد من القول ومنذ البداية ، أن برنامج محو الامية في اليمن الديمقراطي قد تميز ببعض الصفات التي لم تتوفر في مجموعها ودفعة واحدة في أي بلد من بلدان المنطقة حسب علمنا .

أبرز هذه الصفات : الطابع الشعبي ، والاجواء الديمقراطية ، والدور الطليعي للتنظيم السياسي وللمنظمات الجماهيرية ، والتخطيط المتكامل لجعلها قضية الشعب كله .

في شهر فبراير من العام ١٩٧٠ بدأ العمل في تنظيم محو الامية في المحافظة الاولى . وفي يناير ١٩٧٦ وجهت دائرة الشؤون الثقافية والايديولوجية في سكرتارية اللجنة الحزبية للمحافظة الاولى ، استمارات احصاء عن العمل المحقق في هذه المحافظة ، وقد انتشر منها الى جميع انحاء البلاد .

النتائج جاءت غنية . وان كانت زاخرة بالتفاصيل عن الاخطاء والنواقص . وشملت خمسة وثلاثين مرفقا .

وقبل الدخول في نتائج الاستمارة لا بد من التعريف بنوع العمل الذي نسميه « محو الامية » .

لقد أعطيت التوجيهات في العام ١٩٧٠ لموظفي ومستخدمي كل وزارة أو مؤسسة أن يتولوا تعليم العاملين في وزارتهم او مؤسستهم . كل بحسب قدرته واستعداده التطور . وبذلك فالمتعلمون في قطاع معين يعلمون الاميين الموجودين في قطاعهم ، بعد انتهاء دوام العمل .

المبدأ الاول كان الزامية هذا التعليم للذين تتراوح اعمارهم بين ١٢ سنة و ٤٥ سنة .

وخارجا عن المرافق والمؤسسات ، تقوم الدراسة في الاحياء السكنية وفي القرى والمراكز الريفية . وتؤخذ بعين الاعتبار الظروف المحلية ، ومنها اعتماد صفوف مخصصة للاناث في المناطق التي يصعب فيها التدريس المختلط . وعندها يتولى الاتحاد العام لنساء اليمن الاشراف والتنفيذ .

ومن البداية حدد واضعو الخطة أنه يجب الاخذ بعين الاعتبار التفاوت في الامية . فالبعض سبق وتعلم قليلا اثناء طفولته أو شبابه ولم يتمكن بعدها من المتابعة . والبعض الاخر لم يعرف في حياته ماذا يعني المقعد الدراسي .

النتائج في المحافظة الاولى (عدن وضواحيها) بينت أن ٤٩٠٥ دارسين يتابعون ويواظبون في الخمسة والثلاثين مرفقا التي

شملتها الاستمارة .

وهذه المرافق ليست سوى عينة صغيرة من عملية التدريس الواسعة في المحافظة .

وقد تبين أن النتائج في المحافظة الاولى كانت جيدة بصورة عامة في المرافق والقطاع العام ، حيث بذل شغيلة هذا القطاع جهودا كبيرة في تعليم زملائهم . بينما كانت النتائج غير مرضية في الصفوف الجماهيرية .

بينما في مديرية ثمود ، بأقصى الشمال الشرقي ، فقد أنجز تعليم ٢٤٩٦٠ شخصا ، والصفوف الجماهيرية لعبت دورا بارزا هناك .

وقد تبين وجود عدد كبير من الصعوبات التي اعترضت تنفيذ الاستمارة بالذات ، وليس فقط تنفيذ عملية التدريس .

بعض هذه الصعوبات ناتج عن التخلف الاجتماعي والتقاليد في أوساط واسعة المواطنين ، ومنها عدم الاهتمام بالشؤون التربوية . وقد زاد في هذا الضعف ، هزالة المدرسة الابتدائية في أيام السيطرة الانكليزية وبالتالي عدم الثقة لدى الجمهور الواسع بأن الحال قد تغيرت بهذه السرعة .

وهنالك سبب يرتبط بتخلف عمل بعض مرافق الدولة ، وقلة عدد المتعلمين القادرين على ممارسة هذا العمل التعليمي الذي ليسوا مدربين عليه .

هذا عدا عن رسوخ فكرة التقليد واللامبالاة لدى قسم من الموظفين والشغيلة الذين يطلب منهم ان يدخلوا هذه الصفوف . فيضعون أعذارا من نوع « خاص » . ومنها ان « قلبي أعمى » أو « الجمل او كبر ما يتبحراش » .. ومنهم من يقول للهيئة النقابية أو الحزبية : أعصاب يدي وأصابعي تصلبت طوال عمري ولم تعد قادرة على مسك القلم .. وهناك المشاكل المتعلقة بالاشراف على سير العملية . ومنها عدم وجود اللوائح الكافية ، في بعض المناطق ، بشأن انضباط وفاعلية المدرسين . وكذلك ، سيادة الاعتقاد أحيانا بأن محو الامية هو مهمة مقتصرة على مكاتب الاشراف أو مسؤولي التنظيم السياسي الموحد والمحافظين ، دون سواهم .

كما أن بعض الفئات الاجتماعية وجدت الهيئات المسؤولة صعوبة في تعليمهم ، ولا سيما بسبب عدم استقرارهم ، كالصيادين المتنقلين والبدو الرحل . فضلا عن التسرب المستمر من الدراسة بسبب ظروف العمل .

وهنالك ، بالطبع ، النقص في عدد المدرسات ، وقلة عدد الدراسات في المدارس المسائية أو صفوف ما بعد الظهر .

لكنه قد لوحظ ، بالنسبة الى المرأة ، ان أكثرية المشاركين في الصفوف الجماهيرية في الاحياء هم من الاناث . وهذه ظاهرة جيدة . أما في المؤسسات والمرافق فالاكثرية من الذكور . وعلى صعيد المحافظات لوحظ في مديرية ثمود مثلا ، بحدود « الخامسة » ، أن اكثرية الدارسين هم من الذكور ، أما في المحافظة الاولى بصورة عامة فالاكثرية من الاناث .

وقد اتخذت عدة تدابير وترتيبات تشجيعية لزيادة عدد الدارسين والدارسات ولتنظيم هذه العملية الطليعية بمزيد من الفعالية . ومن هذه التدابير :

— اعطاء خمس علاوات « للمتحررين » في نهاية خطة محو الامية . وهذا عامل تشجيعي كبير للمستخدم والموظف ، وللمواطن بصورة عامة .
— الزام المنظمات القاعدية في التنظيم السياسي الموحد — الجبهة القومية بأن تكون مسؤولة مباشرة عن تنفيذ الخطة في اطار المؤسسة او المرفق التابع لعملها .
— تشجيع ربات البيوت على الانخراط بشكل مباشر ومتزايد في الصفوف .
— ايجاد مراقبة وانضباط على وجه أفضل ، وتنظيم نوع من المباراة الاشتراكية في من يعطي أفضل النتائج على صعيد المناطق أو المرافق .

والجهود التثقيفية والتنظيمية أثناء أعمال التحضير لبناء الحزب الطليعي أدت وتؤدي بصورة تدريجية الى زوال فكرة التعالي على الكادحين وبالتالي التعالي على تعليمهم .

وتلعب المنظمات الجماهيرية دورا فعالا في تشجيع الاهالي

والشغيلة والشبيبة على الانخراط في الصفوف ولا سيما في الاحياء والقرى . ولا بد أن نذكر في هذا المجال ، دور الاتحاد العام للعمال والاتحاد العام للفلاحين واتحاد الشباب الديمقراطي ــ اشيد ــ والاتحاد العام لنساء اليمن ، وذلك ضمن الدور التوجيهي والتعبوي والاجتماعي الذي تمارسه هذه الهيئات . ودورها ازداد أهمية مع انتقال التنظيم السياسي الموحد ــ الجبهة القومية الى حزب طليعي من طراز جديد .

وذلك على نقيض ما كان يعتقده البعض من ان دور هذه التنظيمات يتدنى بمقدار ما تتركز قضية التنظيم القائد وقضية السلطة السياسية . فقد ثبت أن هذه المنظمات هي صلة الوصل بين التنظيم (وبالتالي الحزب الطليعي) وبين مجموع الفئات الشعبية والجماهير التي ليست كلها مؤهلة (وليس مطلوبا ان تكون كلها مؤهلة) للنشاط التنظيمي السياسي المباشر ضمن الحزب الطليعي ونشاطاته .

وهذا الدور هو ، على كل حال ، جزء من النقاش الديمقراطي ، الحزبي والشعبي ، الذي شهدته انحاء البلاد . وهو النقاش الذي أعطى ثماره الواضحة في انجاز البناء الجدي للحزب الطليعي .

مدرسة جديدة ومخطط تربوي ذو أهمية عالمية

« يا حبيبي انتظرني اذن
سوف آتيك ــ لا جثةً في كفن
سوف آتيك في ثوبيَ المدرسي
وعلى منكبي
طرحة من دمائي وورد الوطن » .
(سميح القاسم)

الذين ما زالوا يدعون أن الانسان العربي لا يعيش الا في الماضي على عكس الانسان الاوروبي الذي يعيش في المستقبل ، هؤلاء ندعوهم ليزوروا معنا مركز البحوث التربوية في اليمن الديمقراطي ، ندعوهم للدخول الى أي مكتب من مكاتب التخطيط والتنفيذ في وزارة التربية ، أو أي معهد من المعاهد التي تنطلق الى عوالم الاجيال المقبلة .

ان ما يجري بين جدران الغرف المتواضعة في مركز البحوث التربوية ستكون له نتائجه على صعيد يتخطى اطار التربية الوطنية أو الخلاص من فكرة التخلف ، ليصل الى نتائج نوعية تتعلق باعادة بناء الانسان اليمني منذ نعومة أظافره .

المركز تأسس في صيف ١٩٤٥ . كان يومها عبارة عن قسم في وزارة التربية والتعليم اسمه قسم المناهج التعليمية .

انه اليوم مركز قائم بذاته ، يضم ثمانين باحثا ومعاونا ، ويستفيد من خبرات مختلف بلدان العالم ليضع رؤية مستقبلية منسجمة مع طبيعة الشعب اليمني ومع حاجات المجتمعات الحديثة .

الدكتور حسن سلامي ، مدير المركز ، يقول ان المهمة الرئيسية هي من حيث المبدأ متواضعة : اعداد المناهج والكتب الدراسية لمرحلة التعليم العام ما قبل الجامعي ، برامج وكتب مرحلة ما قبل المدرسة . وهنالك مهمة أخرى هي وضع بحوث ودراسات نظرية وميدانية حول مشكلات المدارس وبعض ما يعانيه حقل التربية والتعليم .

لقد أجريت مجموعة من التغييرات في المناهج منذ سنة ١٩٦٩ . لكن الاستراتيجية الكاملة والشاملة لم توضع الا في « المؤتمر التربوي الاول » المنعقد في سبتمبر ١٩٧٥ . كان الهدف هو اجراء تغيير جذري في شكل المدرسة ومضمونها .

من حيث الشكل ، لن يعود هنالك مدرسة ابتدائية ثم تكميلية أو متوسطة .. لقد أنشئت مدرسة موحدة لثماني سنوات . وبعدها يختار الطالب بين المجالات الثلاثة الاتية :

- اما ثانوية عامة لمدة أربع سنوات .
- واما معاهد مهنية ، لثلاث سنوات .
- واما أن يدخل أحد المراكز التكنيكية الفنية حيث تتراوح الدراسة بين سنتين وثلاث سنوات (زراعة ، خراطة ، حياكة ، الخ) .

يجري استكمال المناهج الجديدة والكتب الجديدة لتكون هناك مدرسة متكاملة من السنة الاولى وحتى الثامنة . ويكون التعليم الزاميا ومجانيا لثماني سنوات .

القانون الحالي لا يلزم جميع الاطفال والاولاد بالبقاء في المدرسة حتى صف معين . وانما كان يكتفى بالجهود الحثيثة التي تفرض على الاهالي احتراما للمدرسة ورغبة في متابعة تدريس أولادهم ، بصورة عامة ، كما تبذل جهود من جانب المدراء حتى لا يغادر التلامذة المدرسة بمجرد انتهاء الدراسة الابتدائية . اما

القانون الجديد فيجعل الثماني سنوات الزامية للجميع . وهذا يتطلب ، بالطبع ، تأمين الصفوف الدراسية الكاملة والتجهيزات الكافية لان الازدحام الحاصل على المدارس كان يضطر المدراء لابقاء قسم من طالبي الدراسة الى السنة التالية .

هذا عدا عن وجود ألوف الاولاد من قرى ومناطق اليمن الشمالي يأتون للدراسة في قرى الجنوب القريبة من مناطقهم ، فيتعلمون نهارا ويجتازون « الحدود » على الدواب يوميا . وهذا يزيد في المتطلبات لكنه يزيد في التفاؤل .

ومن التدابير المتعلقة بشكل المدرسة ننتقل الى المضمون . لقد أقر المؤتمر التربوي في العام ١٩٧٥ كتبا ومناهج جديدة . انجاز هذه الكتب يستغرق أربع سنوات بالنسبة الى المدرسة الموحدة ذات الثماني سنوات ، وبعدها بأربع سنوات أخرى تكون قد تبدلت مناهج وكتب المدرسة الثانوية التي مدتها أربع سنوات .

واعتمدت في المدرسة الموحدة بالذات خطة تدريجية لاحلال الكتب الجديدة مكان القديمة(1) .

المبادىء التي تحكم المناهج جميعها هي كالاتي ، انطلاقا من مقررات المؤتمر التربوي الاول :

أولا ــ جميع المناهج والكتب الدراسية توضع وفقا لتعاليم ومبادىء الاشتراكية العلمية .

ثانيا ــ تأخذ الكتب والمناهج بعين الاعتبار آخر منجزات وتطورات العلم والتكنولوجيا المعاصرين .

ثالثا ــ المناهج والكتب الجديدة تأخذ بالحسبان الواقع اليمني الملموس ومتطلبات خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

---

(1) سنة ١٩٧٦ أدخلت الكتب والمناهج الجديدة الى صفين هما الاول والخامس . وفي العام الدراسي ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ اعتمدت في صفين آخرين ، هما الثاني والسادس . أما الثالث والسابع ففي السنة الدراسية ١٩٧٨ ــ ١٩٧٩ ، وفي السنة الحالية تبدل كتب ومناهج الصفين الرابع والثامن . فتكون المدرسة الموحدة قد اكتملت بشكلها الجديد ومضمونها الجديد ، ويكون قد بدأ فورا (العام الدراسي ١٩٨٠ ــ ١٩٨١) تغيير كتب ومناهج المدرسة الثانوية ، ابتداء من الصفين الاول والثاني . وفي العام الدراسي ١٩٨٣ ــ ١٩٨٤ تكون المدرسة الثانوية قد اكتملت .

المبدأ الاول يخص ، في الدرجة الاولى ، العلوم الاجتماعية ، كالتاريخ وقضايا المجتمع وما اليها . وهذه توضع وفقا لمبادىء المادية التاريخية ، في لغة علمية ومبسطة . ويأخذ المركز التربوي تجارب أكثر من بلد عربي وأجنبي ويضعها في قالب مبتكر ويطورها وفقا لمتطلبات أوضاع اليمن .

واعتمدت مادة جديدة هي البوليتكنيك . وتعتمد ، في جميع الصفوف والمراحل الدراسية ، انطلاقا من الربط بين النظرية والتطبيق والربط بين العمل اليدوي والعمل الذهني . لكنها لا تسمى « بوليتكنيك » في الصفوف الاولى . فمن السنة الاولى الى الثالثة تسمى « أشغالا يدوية » ، على أساس أعمال الورق ثم أعمال الطين ثم الخزف .. وفي الصف الرابع هناك « البستنة » . وفي الخامس يسمى البوليتكنيك باسمه : « درس البوليتكنيك » . لكنه يقسم الى بوليتكنيك زراعي في المناطق الريفية ، وصناعي في المدينة . ويستدرك مسؤولو المركز التربوي فيقولون : لكن هذا التقسيم مؤقت . فعندما تنشأ ورش ومصانع كبيرة في الريف فعندها نقيم كتابا موحدا في هذا الصدد .

حاليا بدأ في الريف تدريس قضايا معالجة التربة والنبات والادوية الزراعية .. وفي المدن فالبوليتكنيك يشمل النشارة والمعادن والكهرباء وما اليها . وهذا حتى الصف الثامن . وفي المدرسة الثانوية يأتي تدريس الرسم الهندسي ، كالتدرب على التصاميم الهندسية . وهناك الاشتراك في العمل الانتاجي المباشر خلال أسبوع أو أسبوعين من السنة ، فيتعرف الطلبة على عمل المنشآت الصناعية الكبيرة والمرافىء والمشاريع المختلفة ..

حتى الان أصبح أكثر من مئتي كتاب مدرسي جاهزا . ومعدل اعداد الكتب حوالي الخمسين كتابا في السنة الواحدة . هذا عدا عن قصص الاطفال وعدا عن البرامج المخصصة لرياض الاطفال والتي يؤمل ان تعطي نتائج في غاية الاهمية ، وقد استفيد في هذا المجال من تجربة المانيا الديمقراطية وسواها من الدول ذات التجربة الخلاقة في رياض الاطفال .

ونصل في أعمال مركز البحوث الى مسألة اعداد المعلمين .

البرنامج المستقبلي يقضي بوجود ثلاثة أنواع من اعداد المعلمين :

١ ـ دور المعلمين ، وهي موازية تقريبا للثانوية العامة ، وتؤهل معلمين للصفوف من الاول الى الرابع .

٢ ـ ديبلوم كلية التربية العليا ، ويعطى بدراسة سنتين بعد الثانوية العامة . فيؤهل معلمين للصف الخامس حتى الثامن .

٣ ـ بكالوريوس كلية التربية العليا (٤ سنوات بعد الثانوية العامة) ، ويؤهل مدرسين للمرحلة الثانوية .

هذا بالنسبة الى البرنامج المستقبلي . لكن الواقع الحالي هو أن الكتب والمناهج الجديدة قد اعتمدت تدريجيا قبل عملية بناء المعلمين الجدد الذين يستطيعون التدريس على الاسس الجديدة . فما الحل وكيف يتأمن المعلمون بسرعة ؟

المركز التربوي اعتمد طريقة مبتكرة لحل المشكلة . اختار مئتي معلم ومعلمة من كل الجمهورية . مئتان من أفضل المعلمين وأكثرهم عطاء وتطورا . اطلق عليهم تعبير « الرواد » . أجريت لهم دورة تدريبية ثانوية ، تتضمن محاضرات علمية ونظرية يلقيها مؤلفو الكتب المدرسية الجديدة وسواهم من الاختصاصيين . فيناقش في البرامج الجديدة والكتب وأساليب التدريس . وبانتهاء الدورة يصبح « الرواد » محاضرين في دورة خاصة لتأهيل المدرسين الذين يعملون في شتى المدارس .

« الرواد » يدرسون شهرين في الشتاء على يد كبار الاختصاصيين ، ويقومون أثناء الصيف باعداد معلمين آخرين ، وهؤلاء ينزلون فورا الى الصفوف وينقلون معارفهم الى التلامذة . وبعدها يتحول « الرواد » المئتان الى مراقبين لعمل المدرسين ، ولكيفية ايصال البرامج الجديدة الى التلامذة .

وتقام بين الحين والاخر دورات تنشيطية لهؤلاء الرواد بالذات . وتأخذ طابعا شخصيا .

ومرة أخرى يستدرك مسؤولو مركز البحوث التربوية : هذا كله مؤقت ، ريثما تكون دور المعلمين وكلية التربية على مرحلتيها قد أعطت ما يكفي من المعلمين المدربين والمؤهلين وفقا

للاسس المتكاملة في عملية الاعداد .

يبقى أن نشير الى أمثلة بالغة الدلالة في البرامج والكتب الجديدة .

الرياضيات المعاصرة مثلا . اعتمدت منذ السنة الاولى الابتدائية . فلاقى المعلمون صعوبة في ذلك . ثم بدأت الحال تنتظم . الى أن جاءت الكتب الجديدة تساعد في حل المشكلة للاساتذة والطلاب معا .

مثل آخر : الموسيقى . هي أيضا اعتمدت منذ الصف الاول ابتدائي . والصعوبات هنا كبيرة ، لعدم وجود نسبة كافية من المعلمين الذين يتقنون الموسيقى . فجرى اختيار خمسة اختصاصيين من بين « الرواد » المئتين ، ويقومون حاليا بتدريس المعلمين الذين يدرّسون بدورهم في المدارس . وقد وضعت كتب وتجهيزات لهذه الغاية بالنسبة الى جميع الصفوف .

وهنالك التربية البدنية والتدريب العسكري للتلامذة والطلبة . وهذا يسهم في بناء المواطن الذي يستطيع القيام بدوره الاجتماعي والوطني ويتمتع بصحة سليمة .

والشعار الرئيسي الذي رفعه المؤتمر التربوي الاول في سنة ١٩٧٥ هو « خلق الشخصية الوطنية المتطورة من جميع الجوانب » . فلا يكفي تدريس الفروع العلمية والبوليتكنيك . ولا يكفي تكوين شخصية التلميذ على أسس علمية وانطلاقا من الفهم المتكامل للتاريخ وللمجتمع وللتطور وشؤونه . وانما المطلوب جعل الشخصية متكاملة أيضا ، ومن شتى الجوانب .

ومن الابحاث الميدانية التي يجريها مركز البحوث التربوية ، بحث في منطقة « تور الباحة » بالمحافظة الثانية . ففيها تبين أن نسبة الفتيات بالمدارس أقل نسبة في الجمهورية . الدراسة الميدانية تتولى التدقيق في هذه الظاهرة وشرح أسبابها واقتراح حلول جذرية لها ، على الصعيد التربوي والاجتماعي والاقتصادي .

وهنالك بحث آخر يتناول منطقة سيون ــ تريم في المحافظة الخامسة ، يتناول سبب تدني نسبة الفتيات في المرحلة الثانوية . وكلا المشروعين يتمان بالتنسيق مع منظمة الاونيسكو العالمية .

ويصدر المركز مجلة باسم « التربية الجديدة » كل ثلاثة أشهر ، توزع على كافة المعلمين والمعلمات في الجمهورية . وهي مجلة غنية بمحتوياتها وتسهم في تطوير معلومات الجسم التعليمي بالنسبة الى البرامج والافكار الجديدة والبحوث الميدانية والنظرية وحاجات التطور .

ونشير ، طالما نحن في حقل التربية ، الى أن عدد الطلبة كان سبعين الفا سنة الاستقلال (١٩٦٧ ــ ١٩٦٨) فأصبح العدد ٣٥٠ الف طالب وطالبة .

كما نشير الى أن جامعة عدن ، التي قامت وتطورت وتكاملت بجهود حثيثة و « فاجأت » المراقبين في مستواها الرفيع رغم الظروف الصعبة وانتقال الطلاب من أنحاء الجمهورية الى عدن بهدف الدراسة .. وقد أصبح العديد من كليات الجامعة ، الادبية منها والعلمية ، مركزا للندوات المتخصصة وللمساعدة في البرامج والمشاريع المتعلقة بهذا أو ذاك من فروع الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

ونذكر ، في هذا المجال ، النمو الذي حصل في كلية التربية العليا منذ تأسيسها في اكتوبر ١٩٧٠ ، وكلية الاقتصاد والادارة التي افتتحت في مارس ١٩٧٤ ، وكلية الطب التي تقيم ندوات مهمة وتنسق مع وزارة الصحة ضمن برنامج متكامل ، صحي ــ تربوي .. ولا بد ان نذكر كلية ناصر للعلوم الزراعية ، في مدينة لحج بالمحافظة الثانية (وتعطي بكالوريوس في العلوم الزراعية) .

كما قامت سلسلة من المعاهد الفنية والتقنية والتأهيلية في طول البلاد وعرضها ، في مجال الثروة السمكية ، والارشاد البحري ، والطيران المدني ، وتطوير الايدي العاملة الصحية ، والارشاد الزراعي ، والتعاونيات ، والبيطرة ، ومعالجة المكفوفين ، والحقوق والدراسات الاجتماعية ، واللغات الحية ، والموسيقى ، والتدريب الاحصائي ، والتدريب المهني ، والتدريب الاداري والمالي .

هذا عدا عن التركيز الخاص على اعطاء المنح الدراسية

الطلبة للدراسة في الخارج ، ولا سيما في التخصص العالي . وفي أيام الانكليز كانت المنح قليلة جدا ومحصورة جدا من حيث البلدان ومن حيث اقتصارها على أبناء الاسر البرجوازية وكبار المسؤولين والجاليات الاجنبية . ويتندر اليمنيون في الاساليب التي كانت السلطات الاستعمارية تلجأ اليها في استغلال العلم نفسه لأغراضها « الهمجية » . ومنه أن الانكليز كانوا يأخذون أولاد السلطان أو الامير الى لندن للدراسة حتى يكون رهينة دائمة في يدهم فلا يعود هذا الحاكم قادرا على مخالفة أوامرهم !

وحاليا يرسل الطلبة الى الخارج ضمن خطة تنمية اقتصادية ـ علمية ـ اجتماعية متكاملة .

العسكر والميليشيا يعطيان الدروس في الدفاع عن وطن الحضارة

« .. وفي ٩٥٣هـ (١٥٤٦ ـ ١٥٤٧م) قتل الخواجا ظفر في معركة بين المسلمين والبرتغاليين في « ديو » . وكان البرتغاليون قد فكوا الحصار الذي اقامه المسلمون حول قلعتهم الساحلية . واستشهد في هذه المعركة حوالي الفين من المسلمين . ومن الجانب البرتغالي حوالي الف وسبعمائة قتيل .. » .

(اضواء على تاريخ اليمن البحري ،
تأليف حسن صالح شهاب)

طرح المؤتمر التوحيدي الذي انعقد بين الحادي عشر والثالث عشر من أكتوبر سنة ١٩٧٥ المهمات الملحة أمام التنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية المتكون من فصائل العمل الوطني الثلاثة . المرحلة الانتقالية اسمها مرحلة « الثورة الوطنية الديمقراطية » . مهماتها الكبرى ثلاث : الدفاع عن الوطن ، تنفيذ الخطة الخمسية ، بناء الحزب الطليعي .

والشعار لم يكن من قبيل الصدفة . والايام والسنوات التي أعقبت قيام التنظيم السياسي الموحد أكدت أن المهمات

المرحلية الثلاث هي ، بالضبط ، الجوانب الثلاثة الرئيسية من حياة الشعب والوطن .

نقرأ في الباب الاول من البرنامج الذي أقره المؤتمر التوحيدي ، ما يلي :

« ان اصالة الشعب اليمني لا تكمن في قدراته على البذل والتضحية عبر التاريخ القديم من أجل تشييد الحضارات وصنع اليمن الخضراء ، اليمن السعيدة فحسب ، ولكن اصالته تكمن أيضا في نضاله الدائم ضد كل أنواع الاضطهاد والظلم .

« لقد خاض شعبنا اليمني في الاقليم كله نضالا شاقا وعنيدا ، ودون يأس ضد كل الغزاة والطامعين الذين توالت حملاتهم للسيطرة عليه ومحاولة استعباده ، بدءا بالمقاومة ضد الغزو الروماني والحبشي والفارسي والبرتغالي ، واستمر في نضاله المتكرر ضد الاستعمار التركي .. في العصر الحديث قاوم الاحتلال البريطاني الجنوب مقاومة متقطعة عبر التمردات والانتفاضات .. وفي عام ١٩٤٨ كانت أول حركة انقلابية اصلاحية للاحرار اليمنيين ضد الحكم اليمني الاستبدادي .. » .

المهمة المرحلية التي أقرها التنظيم السياسي الموحد كانت ، اذاً ، ثمرة نضال طويل وشاق قدم فيه شعب اليمن الشهيد تلو الشهيد ، فكانت الحضارات العريقة وكانت المعارك القاسية في حماية هذه الحضارات .

لكن تحرير البلاد من الاستعمار لم يكن معناه أن مهمات الدفاع الوطني قد انتهت . ويحرص المسؤولون في اليمن الديمقراطية على ادخال معارك الماضي ، المؤلمة منها والظافرة ، في حياة الناس اليومية حتى تظل عيونهم مفتوحة جيدا وتظل اليقظة سلاحا الصمود .

وفي مدينة « الشحر » في المحافظة الخامسة على بعد حوالي سبعمائة كيلومتر عن عدن كان لنا لقاء مع قصة ملحمية تعيش حتى اليوم في حياة المواطنين .

فهناك يقوم ضريح « الشهداء السبعة » . والشهداء السبعة هم أبرز الابطال الذين سقطوا دفاعا عن أرض الوطن ضد الحملة

البرتغالية لنهب مدينتهم وتدميرها .

كان ذلك أيام الجمعة والسبت والاحد ، ٢٧ و ٢٨ فبراير وأول مارس من العام ١٥٢٣م ، الموافق ١٠ و ١١ و ١٢ ربيع الثاني من العام ٩٢٩هـ .

أجل . العام ١٥٢٣ . الربع الاول من القرن السادس عشر . الصيادون والفلاحون ينزلون الى الساحات ويستشهدون بالمئات دفاعا عن كل شبر من ارضهم .

في الضريح نجد ، الى جانب قبور « الشهداء السبعة » ، لوحة كبيرة الى الجدار تمثل جانبا من المعركة .

الغزاة يصوبون الرصاص لأن في أيديهم بنادق . اما الاهالي فيحملون الحجارة والعصي . لم يتراجعوا ولم يرضوا بأن يمر الغزاة الا على أجسادهم . انها لوحة مصغرة عن ملحمة لينينغراد في العصر الحديث عندما نزل أبناء المدينة وقدموا أكثر من مليون شهيد ، من بيت الى بيت ومن شارع الى شارع ، في مواجهة الدبابات والطائرات الهتلرية في العام ١٩٤٢ .

الفارق الزمني كبير ، ولا شك . والبرتغاليون لم يكن قد أصبح لديهم دبابات وطائرات مثلما فعل المستعمرون الجدد في القرن العشرين ومثلما فعل الاستعمار الانكليزي ضد اليمن الجنوبي بالذات . لكن أبناء مدينة الشحر ، وأبناء اليمن المقاتلين بشكل عام ، لم يكونوا قد حصلوا على أكثر من الحجارة والعصي . ومع ذلك ، كانوا راسخين في عنادهم . وكانوا يتوارثون حب الاستشهاد صونا للكرامة الوطنية .

لم يكن لديهم قوة منظمة تعبىء طاقاتهم وتجعلها تصب في خطة واضحة للتحرر الشامل . على أن الروح التعاونية وجدت لديهم ولو بشكلها البدائي . وكما يضطر الصياد اليمني للتعاون مع سائر الصيادين في مقاتلة سمكة القرش المتوحشة واصطيادها ، كذلك فهو يتعاون مع رفاقه حتى ينتزع من قلب الطبيعة صخورها الموشحة بالسواد ويصنع منها بيتا في أعالي الصخور متحديا الريح ومتحديا القيظ . وعندما تمس ارضه قدم همجية فهو يهبط اليها من الصخر ويزلزل الارض تحت أقدام

الغزاة . بالعصي ، بالحجارة ، بأدوات الصيد أو الحراثة ، لا فرق . وأحيانا بأسنانه .

والملحمة تعيش . تأكل مع الناس وتشرب . في كل محافظة وفي كل مدينة وقرية .

ويشير الينا أبناء مدينة الشحر بأسماء الشهداء السبعة :

- الفقيه العلامة الشيخ يعقوب بن صالح الحريضي ، مدير مدرسة باهارون .
- الفقيه الشيخ فضل بن رضوان بافضل ، مدير مدرسة بابهير .
- الامير مطران بن منصور ، حاكم مدينة الشحر .
- الشيخ سالم بن صالح باعوين ، تاجر .
- الشيخ حسين بن عبدالله الجمحي ، الملقب بالعيدروس ، تاجر .
- الشيخ أحمد بن رضوان بافضل ، وهو تاجر أيضا .
- الفقيه الشيخ أحمد بن عبدالله بالحاج بافضل ، مدير مدرسة بافضل . وهذا الاخير دفن في مكان آخر ، أما شواهد قبور الشهداء السبعة الاخرين فباقية في هذا المكان الذي دفنوا فيه ، والبناء الجديد المحيط بها أعادت انشاءه حكومة الثورة ، وافتتح المقر بشكله الجديد في سنة ١٩٧٧ .

والابطال السبعة هم جزء من قافلة كبيرة لا يعرف أبناء البلد عددها تماما . يكتفون بالقول أن مئات قد استشهدوا في تلك الايام الثلاثة من العام ١٥٢٣ .

لكن ما لا يقوله أبناء الشحر ، تقوله الصخور وتقوله أمواج البحر التي تأخذنا مع الذكريات الى المكلا ..

وفي المكلا نجد أنفسنا في قصر السلطان القعيطي ، وهو قصر في غاية الاناقة ، يشرف على أجمل مشهد لمدينة المكلا ، وقد أصبح جناح منه متحفا للاثار ويحتوي جناح آخر على حوائج السلطان وقاعات جلوسه واستقبالاته ونومه ، وقد حافظت على كامل رونقها . وعرف عن سلاطين القعيطي انهم كانوا متأثرين بالحضارة الهندية ، وقد أحضروا معهم من أقاصي الشرق الاسيوي بعضا من التحف البالغة الاهمية . وفي القصر القائم

عند مداخل المكلا نجد آثارا لعبادات الثالوث الفلكي (الشمس والقمر والزهراء) ، كما نجد آثارا ونماذج لمواقع بحرية وجدت في وادي حضرموت مع أن هذا الوادي يبعد أكثر من ٣٠٠ كيلومتر عن البحر ، ويعلو بين جبلين ويقرب من الربع الخالي . ويقول المؤرخون أن البحر كان هناك في أزمنة سحيقة في القدم ثم جف . كما نجد آثارا من ثمود من الفترات التي انفصلت فيها السلطة الروحية عن السلطة الزمنية في حضرموت ، فضلا عن نقوش وقرابين وتعاويذ كانت تقدم الى الالهة .

ونجد أيضا لوحة قيّمة كتب عليها ، بأحرف غريبة جرى تفسيرها ، انها مهداة من أربعة مواطنين من أبناء مملكة شبوة الى الاله « س » .

وفي هذه الانحاء ، ووسط الجلسة الحالمة بين أعرق حضارات الدنيا وقد وجدت في اليمن وبين جناح السلطان الذي اضطر الهرب تحت لهيب الثورة في العام ١٩٦٨ ، يقطع علينا المؤرخ الكبير محمد بن عبدالقادر بامطرف هذا التأمل ويقص علينا حكاية ما جرى مع سلطان المنطقة الذي ربطه الانكليز ب « معاهدة استشارة » في العام ١٩٣٧ بعد اخضاع القبائل بفعل الطائرات الحربية ..

الحادثة جرت في ديسمبر ١٩٥٠ . كان السلطان يريد تعيين وزير سوداني يتولى الشؤون الادارية في سلطنته . وجهاء المدينة كانوا قد اقترحوا ستة أشخاص للقيام بهذه الوظيفة . وعندما علم السلطان بأن الوجهاء والاهالي ناقمون بسبب تعيين أجنبي ، عندها طلب ارسال وفد اليه من « الحزب الوطني » وهو حزب كانت تربطه صداقة مع السلطان رغم بعض التوجهات الوطنية التي اتسم بها أحيانا .

ذهب عشرة من الحزب للتباحث مع السلطان في أمر هذا التعيين . ونزلت الجماهير بشكل عفوي الى باحة القصر . ومكثت الناس في الباحة في انتظار خروج الوفد .

وفي الداخل كان المندوبون العشرة قد وافقوا مع السلطان على تعيين الوزير المذكور ، حتى انهم وعدوه بأن يخففوا من غضب

الجماهير أو بأن يقنعوها بمغادرة الباحة .

لكن المندوبين العشرة نزلوا ساكتين . فأدركت الجماهير ، بمجرد سكوتهم ، بأن هناك تواطؤا . فقامت الهتافات ضد السلطان وضد الانكليز الذين يقومون بدور خفي ويشكلون السلطة الحقيقية . فاتصل مكتب المستشار الانكليزي في القصر ، بقيادته فجاءت فرقة من عشرات الجنود الى ساحة القصر وأمرت الناس بالتفرق فرفضوا فأطلقت النار عليهم . وسقط من سقط ونجا من نجا . وبالطبع ، فلا الانكليز ولا السلطان كشفوا من هو الذي أطلق النار . لكن الاستاذ بامطرف يؤكد ، انطلاقا من الوثائق الموجودة لديه ، أن الانكليز هم الذين أمروا . وتثبت ذلك وثائق وزارة الدفاع البريطانية التي يذكرها الدكتور غفرن في كتابه « عدن تحت الحكم الانكليزي » . ويرجح المؤرخون أن عدد القتلى من الجمهور حوالي الثمانية عشر ، مضافا اليهم عشرات الجرحى .

وشوارع مدينة المكلا أسماؤها اليوم هي أسماء العديد من الشهداء الذين سقطوا في تلك الحادثة .

ويرجح الاستاذ بامطرف أن المستشار الانكليزي كان خائفا وهذا من دواعي اللجوء الى الشراسة في القمع . والسلطان بدوره كان يخاف أن يظهر بمظهر من ليست في يده الامور . والمستشار الانكليزي كان يخشى أن يحصل للسلطان مكروه فتؤنبه حكومة عدن لأنه لم يوفر للسلطان الحماية اللازمة .

لكن هذه الامور عادت وحسمت ، وكانت الظروف مهيأة بفضل الثورة المسلحة في اليمن الجنوبي ، كي يطرد السلطان من المكلا ومعه الانكليز دون أي طلقة رصاص(١) .

وبقيت المدينة وبقيت فيها الشوارع والاسماء والبطولات . وبقيت الحناجر القوية تسمع في الشوارع الصغيرة .

وهكذا هي اليمن . وهكذا ينطلق التنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية من تجارب كفاحية عمرها مئات السنين فيدعو

(١) وسوف نعود الى أوضاع المحافظة الخامسة وتطور الحركة الشعبية فيها ، ضمن فصل خاص من الكتاب .

الجماهير ، في أبرز شعارات المؤتمر التوحيدي في العام ١٩٧٥ ، الى الدفاع عن الوطن .

والشعب اليمني محب للسلام . ولدى تجوالنا في انحاء اليمن الجنوبي ، ولا سيما في القلاع الوطنية الممتدة من عدن وكريتر وجبال المحافظة الثانية وصولا الى حدود عمان والروابي المطلة على الربع الخالي ، كنا دائما نتذكر كلمات المقدم علي عنتر عندما قال لنا أن شعبنا لا يحتاج الى أسلحة وانما يحتاج الى قمصان ترد عنه الشمس المحرقة . وكنا نتذكر قصة اليمنيين الذين يضطرون للبحث عن لقمة العيش في السعودية فيشيدون قصور الامراء .. ولكن ، كنا نتذكر أيضا كيف أنه لولا القلاع الوطنية ولولا الحجارة والعصي والبنادق ، ولولا تسلق الجبال في الضالع وردفان وبيحان ويافع وجبل الفحمان ، لما كانت بقيت الشمس . ولما كانت بقيت الهامات مرفوعة تحت الشمس وفي وجه الرياح والاعاصير .

والمهمة التي طرحها المؤتمر التوحيدي بشأن الدفاع عن الوطن ترتكز الى رسوخ ارادة البطولة لدى أبناء اليمن . لكنها ترتكز أيضا الى الموجبات التقنية والتنظيمية والفكرية الحديثة التي تؤهل الانسان والجماعة أن يخوضوا بشكل صحيح في مهمة الدفاع عن الوطن والثورة .

والمؤتمر التوحيدي لم يبدأ من الصفر في طرحه لضرورات الاستعداد على الصعيد التنظيمي والتقني ، فضلا عن الصعيد الشعبي .

كان التدريب العسكري قد بدا قبل عدة سنوات للشباب الذين يختتمون المرحلة الثانوية من دراستهم . وكانت اعمال التدريب الحديث للقوات المسلحة مستمرة في داخل البلاد وخارجها . والنجاح الذي حققه الضباط اليمنيون كان ملفتا النظر في كثير من الاحوال . وقد جمعوا الى المعرفة العسكرية في المجالين النظري والتطبيقي معارف متنوعة في الحقول العلمية والانسانية .

وجاءت الصدف أو الظروف الخارجية لتزيد في التجارب

العسكرية وفي المعلومات الميدانية لدى الضباط والجنود . وخصوصا في الحروب المحدودة وفي مجابهة المرتزقة على الحدود .. ومن المعروف أن الضعف العلمي والثقافي لدى المواطنين اليمنيين بشكل عام كان عنصرا سلبيا عملت القيادة السياسية والعسكرية على تلافيه ، انطلاقا من كون الدفاع عن الوطن والثورة علما متكاملا يتطلب ، في ما يتطلبه ، استيعاب العديد من المعارف المتعلقة بالعلوم الاخرى .

وقد أثبتت المناورات الحية التي اقيمت في أكثر من مناسبة امكانية الضباط والجنود على الخوض في المجابهات المعقدة .

لكن عقبات كثيرة ظلت تحول دون قيام القوات المسلحة بدورها على أكمل وجه . ومنها ما رأيناه بشأن العرقلة المقصودة من جانب جماعة سالم ربيع علي والفريق المتشبث بالسلطة الفردية وغير المؤمن بالقيادة الجماعية للبلاد وقطاعاتها ومؤسساتها .

لكن هناك نواقص نابعة أيضا من العمل الحزبي والسياسي في القوات المسلحة بالذات . وقد أشارت بعض الهيئات المختصة الى وجود ضعف أو بطء في أعمال التثقيف التي يقوم بها الحزبيون ضمن القوات المسلحة ، وهذا كان من شأنه أن يقلل من المناعة تجاه النزعات الفردية أو تجاه الاتكالية والتعالي على الجماهير .

لكن تدابير مهمة اتخذت على أكثر من صعيد وأدت خلال السنوات الماضية الى زيادة التركيز على العمل الفكري والسياسي بين الجنود والضباط . وعلى الرغم من المضايقات ذات الطابع الفردي أو القبلي فالعملية استمرت ، وخصوصا بعد الدورة السابعة للجنة المركزية في العام ١٩٧٧ .

ومما يقوله الضباط والجنود ـ تأكيدا لأهمية الارتباط الوثيق بالتنظيم السياسي الموحد وتأكيدا لأهمية القيادة الجماعية ـ ان سالم ربيع علي كانت لديه قوات عسكرية مهمة وأسلحة وذخيرة ومستودعات ضخمة ولكنه لن يتمكن من استخدامها على الوجه الناجح حتى ينتصر في محاولته الانقلابية ، وذلك لأنه اعتمد على القيادة الفردية ولم يأخذ بعين الاعتبار الضرورات العصرية ولا موجبات التنسيق بين القوات . عدا عن مراهنته الخاطئة

على امكانية وصول جماعته من المحافظة الثالثة الى القصر الجمهوري في عدن لمتابعة المعركة وضرب القوات المؤيدة للقيادة الجماعية .

وهذا دليل آخر ـ يضيف الضباط والجنود ـ على عدم قدرة الانتهازية اليسارية على القيام بأي عمل منسق وناجح حتى من الناحية التقنية . فكيف من الناحية الاجتماعية والسياسية ومن حيث الاستراتيجية العسكرية العامة ...

وما يقال عن ارتباط الضباط والجنود بالقيادة السياسية للثورة يقال أيضا عن الميليشيا الشعبية . ومنذ أن افتتحت مدرسة الشهيد الرائد عمر علي ، في ٢١ فبراير سنة ١٩٧٣ ، بدأت الميليشيا الشعبية تقوم بدورها في المجالين العسكري والشعبي ، كما اعتبرت الميليشيا سلاحا في يد الطبقات المتحالفة والمشاركة في السلطة ، لكبح جماح الطبقات التي قضي على مصالحها .

ومما يقال عادة في التوجيهات المعطاة الى شباب الميليشيا وشاباتها ، أنه لا نريد أن من شغيلة بلادنا أن يتدربوا ويحملوا السلاح بصورة مجردة بدون وعي سياسي . والا فانهم قد يستعملون السلاح ، في أي لحظة ، ضد مصالحهم الطبقية والوطنية . والمعروف أن البرجوازية أو الطبقات المستغلة لا تبقى مسيطرة ماديا وروحيا بواسطة العنف الذي تلجأ اليه ضد الطبقة العاملة وعموم الشغيلة والكادحين وحسب ، وانما تبقى في سيطرتها وبغيها وعدوانيتها بفضل رتابة الجماهير وطلائعها وهمود همتها وعدم وعيها وعدم تنظيمها .

هذه الفكرة اللينينية أصبحت راسخة في العمل اليومي للقوات المسلحة . وكذلك في العمل اليومي للميليشيا ولجان الدفاع الشعبي . وهي أيضا من أسس عمل المنظمات الجماهيرية ، وتنسجم مع طبيعة الشعب اليمني الذي كان يحاول ، حتى قبل قيام تنظيمات سياسية تقود نضاله ، أن ينتصر على الرتابة وعلى همود الهمة وعلى الامية الابجدية والسياسية ، وأن ينتصر على التشتت والبعثرة والتقاليد شبه الاقطاعية وبالتالي تقاليد الخضوع للاقطاع أو لمشايخ القبيلة . وعندما أصبح هناك قيادة

سياسية ، وتكونت امكانيات انتقال هذه القيادة الى حزب طليعي من طراز جديد ، كان لا بد للتقاليد العسكرية أن تترسخ على وجه ينسجم مع التوجه الجديد ، فتكون تقاليد واعية وثورية .

فهي واعية لأنه يمكن اجبار أي فرد على عمل أي شيء لا يرغب فيه ولا يعي أهميته ، ولكن نتائج هذا العمل سوف تكون حتما عكسية ، والمطلوب هو أن يعي هذا الفرد مسبقا أهمية ما يقوم به من نشاط .

وترى المنظمات الدفاعية الشعبية من واجبها العمل على انقاذ الفرد من العزلة واليأس والعجز ، وجعله يمتلك المعرفة لقوانين التطور ، وجعله أيضا يطبق تلك المعرفة تطبيقا فعالا وخلاقا . وهنا تدخل ، بالتالي ، مسألة الموقف من العمل ، ومسألة القدرة على استيعاب الفكر الاشتراكي العلمي .

والملاحظ أن مدرسة الشهيد عمر علي ، التي تعتبر هيئة أركان للميليشيا الشعبية ، قد اكتسبت رغم حداثة سنها قدرة على تكوين كادر يمني مؤهل بمدارك متعددة وقادر على استقبال الشباب والكادحين واعداد دورات لهم . كما أن الكوادر تتعلم ، هي نفسها ، وتتلقى دروسا عسكرية خاصة جنبا الى جنب مع الاعداد الذاتي . وقد بدأت المدرسة باعتماد التخصص في مراحل معينة . كما تقوم المدرسة بمحو الامية بين صفوف طاقمها العامل في مجال الخدمات . وفيها صفوف لرفع المستوى الدراسي الدارسين فيها . ويقوم قادة الثورة والبلاد بالقاء محاضرات بهذه المدرسة تتناول تطور الثورة والمهمات المنجزة والمهمات المطلوب انجازها .

والبرنامج التدريبي والتثقيفي يمتد الى ست عشرة ساعة يوميا . وهذا يصلب القوى الجسدية والذهنية ويكسب الفرد قدرة حديدية في تحدي الكسل والخمول . وهناك مبادرات تطوعية تقوم بها المدرسة في مجالات انتاجية واقتصادية على صعيد البلاد . وفي كل واحدة من هذه المبادرات كان يشترك حوالي ٤٥٠ مدرسا ودارسا على الاقل . ومنها مبادرات قامت في مصنع الغزل والنسيج ومشروع تطوير الملح ، وبعض مزارع الدولة .

وحقق هؤلاء الدارسون والمدرسون أرقاما قياسية في الانتاج في أغلب الحالات .

ويلاحظ أن المرأة لها مكانها منذ الدورات الاولى في مدرسة الشهيد عمر علي . وقد أقيمت دورات لعضوات اتحاد نساء اليمن في المحافظات . وهي تشتمل على دروس وتدريبات عسكرية وسياسية ، فضلا عن تشجيع للمرأة على كسر الطوق والصمود أمام مشاق الحياة العسكرية والمدنية .

ومنذ الاستقلال كان قيام منظمة الميليشيا الشعبية هدفا ناضل من أجله التيار التقدمي في التنظيم السياسي ـ الجبهة القومية . وكان من المسائل التي فجرت الصراع مع اليمين الانتهازي وخاصة جناحه داخل القوات المسلحة . الجناح التقليدي عارض قيام الميليشيا حرصا منه على مستقبل مصالحه الشخصية . كان يردد على مسامع الناس ، في الخفاء وفي العلن ، أن قيام الميليشيا سوف يلغي دور الجيش . وكان في الوقت نفسه ينوي ابقاء سيطرته على الجيش واستخدامه كأداة تخويف وتهديد ضد التيار التقدمي .

ويقول عبدالفتاح اسماعيل أن انقلاب مارس سنة ١٩٦٨ بعد قرارات المؤتمر الرابع للجبهة القومية في زنجبار ، هذا الانقلاب الرجعي الذي قام به قحطان الشعبي كشف القناع عن الجناح اليميني الانتهازي وأكد انه لا يثق بالشعب ، بل يخافه ويخشاه عندما يحمل السلاح ويقيم منظماته العسكرية والشعبية .

وهذا نفسه قد تكرر ، الى حد بعيد ، في يونيو من العام ١٩٧٨ مع التيار الانتهازي اليساري . كان سالم ربيع يحاول منع الميليشيا الشعبية من تأدية دورها بشكل فعال ، بحجة أن قيامها به يلغي دور الجيش . وكان في الوقت نفسه يحلم بأن يسيطر على الجيش ويستخدمه ضد القيادة الجماعية وضد التنظيم السياسي الموحد بشكل عام .

التجربة نفسها تتكرر ، بعد عشر سنوات ونيف . المرة الاولى كانت تحت راية الجناح اليميني . أما الثانية فبقيادة الجناح اليساري المتطرف .

وفي المرتين ، كان الرد يأتي من جانب القوى الاكثر ارتباطا بالقواعد الشعبية .

ولم يكن من قبيل الصدفة أن تلعب الميليشيا الشعبية دورها البارز في سحق المحاولة الانقلابية سنة ١٩٧٨ . سواء في عدن أم في المحافظة الثالثة .

ولم يكن من قبيل الصدفة أيضا أن يبادر الشباب المسلح في زنجبار بالذات ، الى تطويق القوى شبه القبلية التي شاركت في المحاولة الانقلابية .

وعلى حد تعبير عبدالفتاح اسماعيل في مهرجان شعبي أقيم في الثاني من يونيو من العام ١٩٧٦ ، فان تجارب البلدان الحديثة الاستقلال تثبت أن السلطة السياسية عندما لا تثق بالشعب وبقدراته الدفاعية من أجل صيانة الاستقلال الوطني والمضي في طريق التقدم الاجتماعي ، فانها تخلق الظروف المناسبة لنمو واتساع المغامرة العسكرية ..

وهذا ما ثبت بعد سنتين ، في يونيو ١٩٧٨ . وقد تبين ان السلطة الحقيقية النابعة من الثقة الكاملة بالشعب وبقدراته الدفاعية ، هي التي انتصرت .

لكن هذا لا يعني أن القوات المسلحة والقوات الدفاعية الشعبية « لم يعد لديها شغل » . فالمخاطر أصبحت أكبر . والتحديات الخارجية باتت أشد عنفا . وثوار اليمن الديمقراطية أصبح عندهم الكثير الكثير من المنجزات التي تستحق أن يستشهدوا دفاعا عنها عندما يدعو الواجب .

وعندما انتصر شعار « الحزب يوجه البندقية » فهذا معناه أن الموجبات المتعلقة بالدفاع عن الوطن والثورة قد ترسخت امكانيات الجماهير المسلحة على تحقيقها . ولكن ، بمقدار ما تترسخ القيادة الحقيقية للشعب وللثورة ، فكرا وسياسة ودفاعا ومنجزات ، بمقدار ما يزداد خوف الاعداء ونشاطهم العدواني .

اقتصاد ومجتمع يتغيران في سباق مع النواقص

« جزيرة العشاق ترنو من بعيد
تحلم بالفجر الجديد
بوردة
تهدى لها .. حمراء
بقبلة عذراء .. »

(فريد بركات)

تنفيذ الخطة الخمسية : انه الشعار الثاني الذي رفعه المؤتمر التوحيدي في العام ١٩٧٥ . فبرنامج مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية قد نص على احداث تغيير حقيقي في بنية المجتمع التحتية وفي البناء الفوقي السياسي والتنظيمي والاداري والعسكري .

وما أن حلت قضية السلطة السياسية بأفق تقدمي في ٢٢ يونيو وبدأت القيادة الجماعية تركز أوضاع السلطة الجديدة وتطهر أجهزة الدولة من العناصر المرتبطة بالاستعمار والاقطاع والمشايخ والكومبرادور وتستبدلها بعناصر ثورية من أبناء الطبقات الكادحة ، حتى بدأت مهمة التخطيط الاقتصادي تأخذ مجراها .

الخطة الثلاثية كانت انطلاقة جيدة وأسهمت في حل الكثير من الصعوبات . وقد سبقتها في سنة ١٩٦٩ بالذات قرارات

تأميم قطاعات المصارف والتجارة والملاحة والتأمين وتوزيع النفط . ونما القطاع العام وشمل فروع الاقتصاد الوطني المختلفة ، وأنجز خمسة عشر مشروعا صناعيا لم يكن موجودا مثلها قبل ١٩٦٩ ، واعتمدت وسائل جديدة في انتاج الاسماك وتصنيعها والقضاء على علاقات الانتاج الاستغلالية السابقة في هذا المجال .

الخطة الثلاثية شملت شتى قطاعات البلاد . وكان من حق قادة البلاد أن يعرضوا ، أمام مؤتمر الفصائل الثلاثة المتحالفة في العام ١٩٧٥ ، النتائج المتحققة في السنوات الثلاث من الخطة وما يجب تحقيقه في السنوات الخمس المقبلة .

وجاء في التقرير السياسي المقدم أمام المؤتمر التوحيدي أن الخطة الثلاثية استهدفت تحقيق التطور في البنية الاقتصادية للبلاد وان الحكومة رصدت ٤٠٫٣ مليون دينار لكن عوامل جديدة برزت خلال التنفيذ مما حال دون تنفيذ بعض الخطط السنوية ، مما جعلنا نقوّم انجازات كل سنة وندخل التعديلات في حجم ونوع الاستثمارات حسب واقع اقتصادنا . وذلك أدى الى تعديل في التوظيفات الاستثمارية للخطة لتصل الى ٣٢٫٤ مليون دينار حسب القطاعات التالية : ٦٫٩ ملايين في الصناعة ، و ٣٫٧ ملايين للزراعة ، و ١٢٫٨ مليونا في النقل والمواصلات ، أما الخدمات الاجتماعية فخصص لها ٢٫٧ مليون دينار والبحث الايديولوجي ٢٫٧ مليون .

وبعد تقويم الخطة الثلاثية يتضح أن التنفيذ الفعلي من قبل الوزارات والهيئات جاء بنسبة ٧٧٫٤٪ .

ويورد التقرير لوحة تفصيلية عن الوزارات ، حيث يتبين أن بعضها قد تخطى أرقام الخطة بكثير وبعضها الاخر حالت ظروف عديدة دون تمكنه من الوصول الى رقم المئة بالمئة .

الهيئة العامة للثروة السمكية ، مثلا ، رصد لها حوالي ٧٧٥ الف دينار فنفذت فعلا استثمارات بمليون و ٨٣٥ الف دينار ، أي بنسبة ٢٣٦٫٨ بالمئة . وحققت وزارة الصحة نسبة ١٤٠٫٥ بالمئة بالمقارنة مع المبلغ الملحوظ مسبقا ، ووزارة الاعلام ١١٠ بالمئة ، اما وزارة الاقتصاد والصناعة فـ ٧٠٫٦ بالمئة ، ووزارة

الزراعة والاصلاح الزراعي ٨٦٫٣ بالمئة ، ووزارة الثقافة والسياحة ٤٨ بالمئة ، والهيئة العامة المياه ٣٦٫٦ بالمئة ، الخ .

ومن أبرز النواقص والصعوبات التي يوردها التقرير ، ما يلي :

أولا : نقص وضعف الكوادر ذات التخصصات الفنية والمحاسبية والادارية والاشرافية .

ثانيا : عدم توفر الاحصائيات والدراسات والمسوحات الخاصة بمصادر الثروات الطبيعية .

ثالثا : الشح في مصادر التمويل الداخلي مما يضطر الدولة الى الاعتماد كثيرا على المصادر الخارجية في تمويل الخطة الثلاثية .

رابعا : غياب المؤسسات والمنشآت والخبرة المتخصصة والتي تمتلك الامكانيات في مجال الانشاء والتركيب .

خامسا : تعثر بعض الالتزامات بموجب الاتفاقيات المعقودة والبرامج المتفق عليها خلال فترة الخطة .

ومن ناحية أخرى فقد أصبح برنامج الاستيراد الاطار الموجه لتلبية حاجات البلاد ورسم سياسة توزيعها نوعيا ، أكانت سلعا انتاجية أم استهلاكية حسب الجهة التي تقوم بالاستيراد ، أكانت قطاعا عاما أو خاصا . وتقوم وزارة التجارة والتموين بتحديد مخصصات برنامج الاستيراد سنويا وفق توجيهات اللجنة العليا للاستيراد بصورة مرنة ، آخذة في الاعتبار حاجة السوق الى السلع المستوردة ، مع وجود تناسب بين البرنامج والاتفاقيات الاقتصادية والفنية مع البلدان الشقيقة والصديقة .

ويضيف التقرير أن خطة التنمية الثلاثية أسهمت في احداث تغييرات ملموسة في القطاعات الاقتصادية الانتاجية . وقد ازداد الانتاج الصناعي من ٩٫٣ ملايين دينار في عام ١٩٧٢ ــ ١٩٧٣ الى ١٠٫٢ ملايين دينار في عام ١٩٧٣ ــ ١٩٧٤ . كما أن قيمة الانتاج الزراعي والسمكي قد ازدادت أيضا من ٣١٫٢ مليون دينار الى ٣٣٫٣ مليون دينار خلال سنة واحدة . وذلك يؤكد أن الاقتصاد الوطني قد استطاع استعادة نشاطه ومقدرته على النمو النسبي

والحركة الدائبة(١) .

وعلى الصعيد الزراعي اتسعت مزارع الدولة ، وهي الشكل الاعلى من بين الاشكال الثلاثة التي اتخذتها الثورة في اليمن الديمقراطي ، ويعتمد بشكل أساسي على الاراضي الجديدة المستصلحة . أما الشكل الاول فهو التعاونيات التي يحتفظ فيها كل فلاح بأرضه ولكن مجموع الفلاحين يتعاونون في مجالات معينة . أما الشكل الثاني فهو يقضي بالعمل المشترك ضمن تعاونية واحدة بتكوين « فرق عمل » انتاجية مشتركة ، مع احتفاظ كل فلاح بقطعة معينة من الارض ضمن المجموع .

أما الشكل الثالث وهو مزارع الدولة ، فهو يقضي بايجاد تغيير نوعي . فيملك الفلاح ملكية اسمية على مساحة معينة من الارض غير محددة في مكان معين من التعاونية ، ويكون الربح مشتركا والانتاج مشتركا . ولوحظ أن مزيدا من الفلاحين قد انضموا الى الشكل الثاني من التعاون ، وان مزيدا من الفلاحين ولا سيما في الاراضي العائدة للاقطاع وكبار الرأسماليين السابقين ، قد انتقلوا الى شكل « مزارع الدولة » . وتم ، بفضل انتفاضات الفلاحين ابتداء من أكتوبر سنة ١٩٧٠ ، تحقيق منجزات كبيرة في الريف ومنها استيلاء الفلاحين على حوالي ١٣٥ ألف فدان من الارض انتفعت بها حوالي ٣٠ ألف أسرة . وحتى سنة ١٩٧٣ كان قد تشكل ٣٨ تعاونية بلغ عدد أعضائها ٢٦ ألف فلاح ، وسبع تعاونيات حرفية وعدد وافر من تعاونيات الصيادين ، واربعون تعاونية لأغراض الخدمات والاستخدام . وأقيمت ٢٨ مزرعة من « مزارع الدولة » حتى نهاية الخطة الثلاثية .

وبادر الفلاحون انفسهم الى تقويم حصيلة استيلائهم على الارض وعملهم التعاوني . وعقدوا « مؤتمر الفلاحين الفقراء » في يوليو ١٩٧١ ، و « مؤتمر التعاون الاول » في نوفمبر ١٩٧١ ، وأصدروا قرارات عديدة عززت من نضالهم وحددت أفق العلاقات الجديدة في الريف . وانعقد في ابريل ١٩٧٣ مؤتمر التسويق

(١) التقرير السياسي الذي قدمه عبدالفتاح اسماعيل الى المؤتمر التوحيدي المنعقد بين ١١ و ١٣ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٥ ، ص٤٦ — ٧٩ .

الزراعي ، وخرج بعدة قرارات تسهم في تحرير التسويق الداخلي للانتاج الزراعي من المضاربات وفوضى السماسرة .

وجرى الاهتمام بتطوير الثروة الحيوانية ، وأنشئت مراكز كبيرة لتربية الابقار الحلوب والعجول والعجلات الصغيرة في مزارع الثروة الحيوانية التابعة للدولة ، فضلا عن الاهتمام بتربية وتسمين الضأن والماعز .

وفي الزراعة لعبت محطات التأجير للاليات الزراعية دورا بارزا في احداث التصنيع الريفي وفي امداد التعاونيات بالاليات التي تحتاجها .

ولقد لعب الالوف من عمال محطات التأجير دورهم في حل قضية الاغذية ، كما لعبوا دورا في بناء طبقة عاملة قوية وواعية في المناطق الريفية .

ومن الريف الى المدينة حيث كان للتأميمات دورها الحاسم على كافة الاصعدة .

وهنا تطرح ، كما بالنسبة للزراعة ، أهمية الانتقال التدريجي الى شكل واحد للملكية هو ملكية الدولة .

وحاليا هناك الى جانب ملكية الدولة لبعض المؤسسات الصناعية والسمكية والمرافق والموانيء وسواها ، أشكال من الملكية المختلطة . ومنها المختلطة بين الدولة والافراد ، أو بين هيئات حكومية والرأسمالية المحلية ، أو بين الدولة والرأسمال الاجنبي .

هذه الاشكال هي ، بالطبع ، من خصائص المرحلة الانتقالية .

ويجري شيئا فشيئا تقليص عدد أشكال الملكية . وذلك جنبا الى جنب مع النمو السريع للقطاع العام وتأثيره . وقد شمل القطاع العام أيضا النقل والمواصلات ، حيث تحسنت نشاطات النقل البحري ، وجرى تعميق ميناء عدن وتزويده بالمعدات اللازمة لتحسين الخدمات فيه وأنشئت مؤسسة عامة للطيران وارتفعت حركة الطيران في مطار عدن الدولي ويصار الى تحسين المطارات المحلية في المدن والمحافظات . وأقيمت وتقام شبكة من الاتصالات الهاتفية بالاضافة الى الاتصالات اللاسلكية بين أنحاء البلاد .

وقد حرصت قيادة التنظيم والدولة ، بالنسبة الى الخطة

الجديدة وهي خطة خمسية (١٩٧٤ ــ ١٩٧٨) على تلافي النواقص واطلاق المبادرات في شتى الحقول . وتحققت تجارب في غاية الاهمية .

واذا كان لا بد من الدخول في جانب حساس من الجوانب المطروحة ، فان مسألة اعداد الكادرات اليمنية ترتدي طابعا مميزا .

والامثلة على هذه العملية رأيناها قائمة في جميع المحافظات . وكذلك في جميع الوزارات وقطاعات العمل والانتاج .

اليمننة «تجتاح» مرافق البلاد

« سوف تبقى دائما جبالنا وانهارنا
سوف يبقى دائما شعبنا
وعندما تلحق الهزيمة بغزاتنا الاميركيين
سوف نعيد بناء الارض لنجعلها اكثر جمالا بعشر مرات » .

(هو شي منه)

عنوان كبير من عناوين عملية التغيير في حقول الاقتصاد والانتاج والبناء ، اسمه : اليمننة .

ومنذ انتصار الثورة طرحت فكرة استبدال ما امكن من الاجانب المسؤولين عن قطاعات الانتاج او الاختصاصيين في شتى الفروع ، بعناصر يمنية .

لكن الطريق لم يكن سهلا . كانت تعترضه حواجز ضخمة ، بعضها داخلي وبعضها خارجي وجميعها نابع من تراكم طويل .

والخطة الخمسية التي بدأ تنفيذها في العام ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ كانت تقضي بالاستعانة بالمساعدات العربية والصديقة على مختلف الاصعدة ، ولا سيما في مجال تقديم الخبراء والاختصاصيين لمساعدة الشعب اليمني في النهوض من التركة الثقيلة الناتجة عن مئات السنين من التجويع والافقار والنهب التي مارستها القوى الاستعمارية والاقطاعية .

لكن الخطة الخمسية نصت ، في الوقت نفسه ، على الاستغناء التدريجي عن المساعدات الخارجية ولا سيما عن الكادرات العاملة في الاقتصاد اليمني .

كيف التوفيق بين الناحيتين ؟

بعض المبادىء الرئيسية التي اعتمدت :

- دعوة الاختصاصيين الاجانب الى اعداد المزيد من الشباب اليمني القادر على الحلول مكانهم .
- ارسال أكبر عدد من العمال والتقنيين والطلبة اليمنيين الى عدة بلدان لتطوير امكانياتهم الفنية والانتاجية أو لتعلم اختصاصات يحتاجها تطور البلاد .
- فتح عدة مراكز ومعاهد للتدريب والتأهيل في اليمن بالذات .
- اعطاء المنظمات الجماهيرية الصلاحية والقدرة على الاسهام بتعميم هذا الاعداد وهذا التدريب .
- العمل لتوظيف القدرات الجديدة بشكل سريع في ميادين الانتاج المختلفة ، أي الانتقال فورا من المدرسة أو المعهد الى المصنع والحقل والمؤسسة لتطبيق المعارف التي حصل عليها المتخرج .

هذه المبادىء اعتمدت بشكل متسارع . وانتشر الشباب اليمني في أنحاء المعاهد والورش والمراكز العلمية والاختبارية في البلدان العربية وفي البلدان الاشتراكية وسواها . ووضعت امام الخبراء الاجانب مهمة ملحة هي تكوين الكادرات اليمنية بسرعة في المؤسسة المعنية أو الفرع المعني . ونشطت وزارة التخطيط ورئاسة مجلس الوزراء في مجال التنسيق بين الفعاليات ومعرفة احتياجات البلاد للسنوات المقبلة ومحاولة تخطي الارقام الموضوعة في الخطة .

وفي الحقيقة فالكثيرون من الاختصاصيين أو المسؤولين كانوا يناقشون بينهم وبين أنفسهم ، في مدى صحة الاقدام السريع على خطوة بهذه الخطورة . فبناء جيل متخصص وقادر على الحلول مكان الاجانب ليس مثل بناء أي « مشروع » آخر . والتعامل

مع البشر ليس مثل التعامل مع الارقام والمصانع والنباتات . والمعروف أن الاستعمار الانكليزي خلق لليمن ، من جملة ما خلفه من مشاكل ، مشكلة ضخمة هي الاقليات الاجنبية أو المستوطنون الاجانب .

لقد اعتمد الانكليز في كثير من أعمالهم ولا سيما في عدن ، على جيش كبير من العمال الهنود الذين تسلم قسم منهم مناصب قيادية . كما استغل الانكليز وجود عشرات الالوف من الافارقة أو المهاجرين الباحثين عن عمل في عدن الميناء ، أو ممن حطت بهم الاقدام خلال القرون الماضية على هذا الساحل فكونوا تجمعات بشرية لا يستهان بها .

ومن عادة الانكليز في البلدان التي استعمروها أن لا يرحلوا من أي بلد الا وقد اصطنعوا عدة مشاكل ديموغرافية تضاف الى المشاكل القديمة والمتوارثة . حتى اذا رحل المستعمرون يصبح شبه مستحيل أن يتمكن أبناء البلد المعني من الحلول في الوظائف وغيرها ، محل الاقليات أو الاقوام التي شجعها الانكليز على التمرس بمختلف الاعمال .

هذا عدا عن ظروف اليمن وتقاليد البداوة ، وانعدام التجهيز الدراسي والتقني والفني .

لكن أشواطا مهمة من اليمننة قد قطعت حتى الان . والمبادرات الجريئة تعطي ثمارها وتعطي دفعا جديدا للتغيير الشامل .

وعلى سبيل المثال ، فقد شهدت الزراعة نموا متزايدا في الكادرات الوطنية . وأنشىء مركز الارشاد الزراعي واعداد الكادرات ، في جعار في المحافظة الثالثة وقام بتخريج ١٢٧٩ شخصا بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٥ ، مدربين على العمل التعاوني ، وعلى الاشكال « العليا » لا سيما مزارع الدولة . واستطاع هؤلاء الخبراء الشباب أن ينزلوا فورا الى التعاونيات ومزارع الدولة وينقلوا الى الفلاحين وشغيلة الريف الخبرة التي اكتسبوها قبل أسابيع . وهنا يلفت النظر المرونة التي عمل في اطارها هؤلاء الشباب . لقد تحولوا ، فور انتهاء دوراتهم بمدرسة الارشاد

والتدريب ، الى مدربين ومدرسين للفلاحين على أرض الواقع .
ما يحتاجه هذا من « ترجمان » : من تبسيط كلي ووسائل ايضاح .. وبعضهم تمكن من ابتكار أشكال وطرق للانتاج تشكل سبقا في الاختبارات الزراعية وفي كيفية تطبيقها على الواقع اليمني .

وقد لمسنا في منطقة « غيل باوزير » في المحافظة الخامسة ، وفي اطار مشروع التبغ الذي تشرف عليه الدولة ، سلسلة من الاختبارات التي تسترعي الانتباه من حيث الجرأة في القيام بها والجرأة في منافسة كبار الاختصاصيين الاجانب في نفس المشروع وعلى نفس الارض .

في هذه البقعة الغنية بالمياه الجوفية وبالجداول أدرج ضمن مشروع التبغ ، ومنذ الخطة الثلاثية (الاولى) ، مسألة الاهتمام بالتبغ القديم على صعيد الابحاث ، فضلا عن اجراء أبحاث لتطوير التبغ الجديد . وما أن بدات الخطة الخمسية حتى كانت الابحاث قد أعطت نتائج ملموسة .

لقد تبين ، نظرا لوجود الكالسيوم بكثرة في التربة وفي الماء ، أن النتائج غير مقبولة بالنسبة الى التبغ العادي (السجائر) اذ اتضح أن اشتعال السيجارة أقل سهولة من العادة . في حين تبين أن المواصفات « المورفولوجية » متوفرة وأن التنباك يمكن أن يعطي نتائج عظيمة .

استفاد واضعو المشروع من خبرة الامم المتحدة ، ومن الخبرة الكوبية . فزرع خبراء الامم المتحدة قطعة معينة من الارض بشكل معين وعلى أساس معالجة معينة ، واعتمد الخبير الكوبي في قطعة مجاورة أسلوبا آخر . ولكل من الاسلوبين حسناته . ثم بادر اختصاصيون يمنيون باشراف عمر المعاني ، مدير المشروع ، الى اعتماد طريقة ثالثة اعتبروا أن لها أفضليات معينة على الطريقتين السابقتين .

وانتاج التبغ في هذا المشروع يتميز بالوفرة والجودة . وأصبحت له شهرة في البلاد العربية وفي الهند وسواها . والتركيز يجري حاليا على الصنف المحلي . فيعطى التنباك في أثناء

تجفيفه حرارة معتدلة ، ويوجد موسمان ، صيفي وشتوي .

وتقوم تعاونية غيل باوزير ، التي قامت على أنقاض « جمعية الفيل الزراعية » المؤسسة سنة ١٩٥٦ ، بتطبيق الاصلاح الزراعي تطبيقا خلاقا . في حين كانت « الجمعية » تستخدم كوسيلة ابتزاز ونهب ضد الفلاحين تحت أوهام « التعاون » و « التطوير » . وكانت العضوية في مجلس الادارة محصورة بمالكي النسبة الكبرى من الاسهم ولم تكن القروض تقدم الا لمالكي العقارات . وكانت الجمعية المذكورة ترهق الارض في عملية التزريع وتشهد موازنتها عجزا دائما بسبب الضعف التقني وبسبب الولائم التي كانت تقام باسم الجمعية على شرف الضابط البريطاني المسؤول عن « التعاون » .

الاصلاح الزراعي بشكله الجديد حقق تغييرا جذريا في هذه البقعة .

أول فرقة انتاجية من الفلاحين تألفت في أغسطس ١٩٧٣ من أربعة أعضاء وعملت على مساحة خمسة أفدنة فقط . وكانت نموذجا يبرهن على أفضليات الانتاج التعاوني .

ولدى انعقاد المؤتمر الاول للفلاحين التعاونيين في المركز ، في ١٥ يوليو ١٩٧٤ ، أصبح هناك ١٠٥ فرق عمل ، على مساحة ٨٠٠ فدان ، فيها ثماني آبار وباقي الارض تروى بمياه العيون المتدفقة .

وحتى ذلك التاريخ كان ٩٥ بالمئة من الفلاحين قد اعتمدوا الشكل الاول فقط من الانتاج التعاوني . فيعملون في ملكياتهم بينما تقدم لهم التعاونية برامج الدعم والتسويق وتضع لهم برامج انتاجية .

لكن قيام الفرق الانتاجية ومردودها العالي ، والتوجيه السياسي المركز من قبل القيادة الحزبية والقواعد الناشطة في المنطقة ، قد أدى الى اقبال الفلاحين على تشكيل الفرق الانتاجية بكثرة ، الى أن حل النموذج الثاني ، المعتمد على العمل المشترك في الفرق الانتاجية ، مكان النموذج الاول بصورة شبه شاملة .

وتزرع التعاونية ٩٢٠ فدانا ، وفيها ١٤ وحدة انتاجية

تضم ١٢١ فرقة ، وتزرع تبغا وحبوبا وخضارا وتمورا وحنة ، وتربي الاغنام والمواشي .

ولدى التعاونية مجموعة من المزارع النموذجية الخاصة بانتاج البذور . وهي تهتم برفع مستوى أعضائها ، وبمحو الامية ، وتشجع المرأة على دخول الانتاج من الباب الواسع كما تشجع الجيل الجديد على الانخراط في الميليشيا الشعبية وفي لجان الدفاع الوطني .

ومن المبادرات التي لمسناها في « الغيل » ، أن أحد الشباب اليمنيين اطلع ، من قراءاته الشخصية على طرق جديدة في زراعة الشمام ، فعرض الامر على المسؤولين فشجعوه أن ينفذ على الصعيد العملي المشروع الذي فكر به . فخصصت له قطعة من الارض وزرعت شماما . فأعطت نتائج جيدة جدا وبدا التفكير بتعميم التجربة .

ونصل الى قطاع له دور خاص في الريف . وله دور خاص في عملية اليمننة .

محطة تأجير الاليات الزراعية في سيون في قلب وادي حضرموت ، هي محطة نشأت في الاساس منذ الخمسينات لكنها لم تكن ذات أهمية قبل المباشرة بتنفيذ الخطط الجديدة . والمحطة اليوم عبارة عن ورشة مزدوجة : ورشة لتصليح أو انتاج ما يلزم التعاونيات والفلاحين من معدات وقطع ، وورشة لتطوير المحطة بالذات وامدادها بالماكينات الجديدة والاجهزة الحديثة .

لكن الامر الاكثر أهمية ، هو أن الشباب اليمني يتأقلم بسرعة وفعالية مع التكنيك الحديث ومع الالات الاختبارية المتشعبة واللوحات والارقام المعقدة ، خصوصا في مجال اختبار المخارط الجديدة واختبار الزيوت وقوة الدفع المطلوبة للمحركات . هذا فضلا عن شعبة المخارط (وحدة ٢٢ يونيو) ووحدة القص والتشكيل واللحام (١٥ يوليو) وقسم السمكرة (لحدادة السيارات) وقسم صناعة الخزانات ، وميكانيك الحارثات والمجنزرات ، الخ ...

ويلاحظ أن الفلاحين ومسؤولي التعاونيات في المنطقة

أصبحوا يفضلون الصناعة المحلية التي تنتجها محطة التأجير ، على الصناعات والقطع المستوردة .

والكلام عن اليمننة هو كلام عن عدن أيضا . وهو كلام عن الحلول التدريجي مكان الخبرة البريطانية التي لديها تقاليد بحرية من مئات السنين ، ولا سيما في تشييد المرافيء وصناعة السفن والخدمات البحرية . وهو أيضا كلام عن مصافي عدن .

في العام ١٩٧٢ تم افتتاح المعهد البحري في اليمن الديمقراطية . وتخرجت من المعهد دفعة من ١٧ ضابطا بحريا . وهم يواصلون الان على ظهر السفن الاجنبية الفترة الاخيرة من التأهيل ، حتى يكونوا بعدها قوة ارشاد السفن في الميناء . وفي الوقت نفسه وقّع بروتوكول التعاون الثقافي والفني مع مصر حتى ترسل المؤسسات المصرية خبراء ومعدات لميناء عدن . ثم تبين أن مساعدات قليلة قد وصلت وذلك بارسال خبراء دون المعدات .

ويقول المسؤولون في ميناء عدن أن تلك المساعدات جاءت في نفس الوقت تقريبا مع المساعدات السعودية والخليجية الى اليمن الديمقراطية ، وانها ظلت محدودة جدا ومشروطة على الصعيد العملي . كان المصريون يريدون ، على ما يبدو ، الخروج من الحصار العربي على سياسة السادات ، وكانت تجري بعض الاتصالات المباشرة أو غير المباشرة مع رئيس مجلس الرئاسة سالم ربيع علي لتشجيعه على اعتماد « المرونة » مع السياسة السعودية ومع سلطنة عمان . وعندما تقلصت المساعدات الخليجية تقلصت معها الوعود المصرية بالمساعدة . اذ تبين أن اليمن الديمقراطية لن تتنازل بشيء على الصعيد السياسي المبدئي .

وعلى كل حال فالطلاب اليمنيون القلائل الذين كانوا يدرسون في معهد النقل البحري في مصر قد طردوا منذ مدة ، ونقلوا الى الجزائر . وكان اليمن الديمقراطي قد أغلق المعهد البحري عند تأسيس الاكاديمية العربية للنقل البحري سنة ١٩٧٤ في الاسكندرية والتي اشترك اليمنيون في تأسيسها .

وحاليا هناك ضباط بحرية وطلبة من اليمن الديمقراطية في

عدة دول اشتراكية ، في ارشاد السفن والهندسة البحرية والهندسة اللاسلكية ، ويدرس البعض في العراق وفي دول عربية أخرى .

وبالنظر الى تطورات السياسة المصرية فالمسؤولون في اليمن الديمقراطية يفكرون حاليا باعادة فتح المعهد البحري . وتقوم تدابير أخرى لانشاء مركز للتدريب المهني يعطي دورات للعاملين حاليا في ميناء عدن .

ونكتفي حاليا بهذه الفكرة الاولية من نشاط الميناء ، وهي تتناول اليمننة والصعوبات المحلية والخارجية التي تعترضها ، فسوف نعود فيما بعد الى الحوار والتجوال مع مسؤولي هيئة الموانىء والملاحة اليمنية ومع الرفيق عبدالله عزيز نائب المدير العام لهذه الهيئة العليا المشرفة على اكمال وتعزيز التقاليد البحرية لهذا البلد الذي استطاع أبناؤه منذ ألوف السنين أن يمخروا البحار ويكتشفوا أسرار الكون في مراكبهم المبتكرة ويحاربوا قراصنة البحار من جميع الانواع ، ناشرين لواء الحرب على المجهول وناشرين أيضا أريج البخور واللبان والمر ..

ونترك الميناء لننتقل الى الشقيقة الصغرى للعاصمة اليمنية ، الى « عدن الصغرى » ، الجزيرة الجميلة التي يفصلها عن عدن « الاساسية » بعض من الموج والذكريات والالام . وهي جزيرة قامت ، في الحقيقة ، على أساس المصافي .

وفي هذه البقعة كانت شركة الزيت البريطانية قد أقامت المصفاة التي سميت ، في الخمسينات ، « شركة مصافي الزيت البريطانية في عدن » ، وتعود ملكيتها الى الشركة الام في لندن ، وهذه الاخيرة لا تلتزم بأية خسائر أو موجبات الا في محدودية الممتلكات الموجودة في عدن . أما الارباح فانها لهذه الشركة الأم مهما كان حجمها .

الشركة أقيمت في عدن بهدف تزويد البواخر المارة في هذه البقعة عبر البحار ، وأيضا لتلبية حاجات السوق القريبة في مناطق كبيرة واقعة آنذاك تحت السيطرة الانكليزية .

نصف الكمية المكررة تكون، عادة ، وقودا للبواخر . والمنتجات

غير المرغوب فيها تسوق في الميناء . وهناك الوقود الثقيل ، وهو رخيص في الغالب ، فكان الانكليز يسوقونه في نفس البواخر الموجودة في عدن .

الحد الاقصى للسفن بلغ ٦٢٥ سفينة في الشهر ، قبيل اغلاق قناة السويس في العام ١٩٦٧ .

وكانت شركة تسمى « شركة الزيت البريطانية العدنية المحدودة » تتولى تزويد السفن بالوقود على صعيد المهمات التنفيذية . وهي أيضا ، شأنها شأن شركة المصفاة ، تابعة للشركة الام في لندن .

وحرص الانكليز على تحسين وحدتي التكرير بحيث بلغت طاقة المصفاة الاجمالية ثمانية ملايين طن في السنة . كما أقاموا مختبرا مزودا بالاجهزة اللازمة لتحديد النفط الخام وجميع المنتجات . وانشأوا ثلاث وحدات أخرى مساعدة ، لمعالجة المنتجات وتخفيض كمية الكبريت . لكنهم لم يحرصوا على رفع مستوى الكادرات اليمنية العاملة في المصفاة الا في حدود معينة . كانوا لا يريدون لليمنيين دورا مقررا ، لا كأفراد ولا كحكومة ، في تسيير أمور المصفاة وأمور المستعمرة بصورة عامة .

كانت الامور تجري في المصافي قبل الاستقلال على الوجه الاتي :

العاملون في الادارة وفي النواحي الكتابية أجورهم أعلى بكثير من العاملين في المجال التقني والفني .

« الطبقة العليا » اذا صح التعبير ، وتتكون من المدراء وكبار المهندسين ، هي من الانكليز .

المشرفون والمهنيون ومعظم المهندسين كانوا من الهنود ، حتى أوائل الستينات حيث بدأ اليمنيون يدخلون بنسبة معينة في العمل المهني والتقني لكنهم كانوا ، نظرا لسوء الظروف المعيشية ، يتجهون الى العمل الكتابي والاداري لان الاجور أعلى .

وفي العام ١٩٦٥ تقريبا بدأ عدد الهنود يتناقص مهنيا ، الى حد ما ، بسبب الثورة وعوامل أخرى . وذلك في عدة قطاعات ومنها المصفاة . بينما ظلوا مسيطرين على البنوك مثلا حتى

الاستقلال .

والتميز ضد اليمنيين كان واضحا في الشركة حتى في مجال الوضع الصحي . والمستشفى التابع للمصافي كان مقسما الى « عنبر رقم واحد » لموظفي الدرجات العليا ، ثم الرقم «٢» للموظفين الذين يأتون بعدهم مباشرة في الامتيازات .. الى أن يأتي العامل أو المهني اليمني في العنبر رقم ٦ أو ٧ أو ما بعدهما .

وكانت هذه المعاملة لليمنيين الافراد هي ترجمة ملموسة للمعاملة الانكليزية للسلطات المحلية في عدن .

وعندما قام الاستقلال أصرت الشركة البريطانية على ان لا تدفع ضرائب للدولة الا على إساس ما كانت تدفعه سابقا ، اي بحسب كمية الانتاج وليس كمبالغ مقطوعة . وفي الماضي كانت الشركة لا تخضع للاشراف المحلي الا فقط من حيث خدمات الميناء . والميناء كان يقع تحت اشراف مصلحة ميناء عدن التي كان رئيسها هو الحاكم العام الانكليزي بالذات !

ثم انتقلت مصلحة ميناء عدن الى الحكومة فأصبحت دائرة حكومية منذ الاستقلال . وفرضت الحكومة تطبيق القوانين الوطنية التي تمنع توظيف أي أجنبي عندما يكون هناك عنصر يمني قادر على تأدية الوظيفة المطلوبة .

مشكلة أخرى اعترضت استلام مقاليد الامور واحلال اليمنيين تدريجيا محل الاجانب في المصافي : فالحسابات لم تكن واضحة ، والمدراء الانكليز هنا في عدن لا علاقة لهم بأي تعاقد مع اطراف اخرى متعاملة مع المصفاة . فالمرجع هو دائما لندن . والمقرر هو دائما لندن . وباسم الادارة المركزية في لندن تجري جميع العقود .

لذا نشأت صعوبة في المحاسبة . الى أن اضطرت الشركة أن تدفع على أساس مبلغ مقطوع .

وعندما انتقلت المصفاة الى الدولة عقد اتفاق جديد ، يقضي بأن تتولى الشركة الانكليزية الاستمرار في ادارة شؤون المصافي تحت مسؤوليتها ولكن تحت توجيه مؤسسة يمنية حكومية

هي شركة مصافي عدن . وبموجب هذا الاتفاق الجديد فالشركة تأتي بالحد الادنى من المهندسين البريطانيين ، على أن تكون مسؤولة عن جميع ما يمكن أن يحدث في المصفاة في حالة العطل أو غير ذلك .

والقسم الثاني من الاتفاق ينص على اعطاء المشورة الفنية في الحالات التي تستوجب الحصول على رأي متخصص من المقر الرئيسي للشركة في لندن . ويتم التشاور في كل عام حول عدد الفنيين المطلوب تقديمهم من جانب الادارة الانكليزية .

ويلاحظ حاليا وجود تقلص في عدد الوظائف التي يشغلها الانكليز ، وذلك بالنظر الى تطور « اليمننة » في المصفاة . والعدد هو ٣٥ موظفا بريطانيا فقط في نهاية ١٩٧٨ . وهنالك برنامج خاص من ضمن برامج تدريب اليمنيين وتأهيلهم لاختصاصات النفط والمصافي . هذا البرنامج الخاص يقضي بتدريب عناصر يمنية على استلام المراكز العليا في الشركة .

وتتولى شركة مصافي عدن (الشركة الوطنية) الحصول على عقود التكرير . بينما تتولى الشركة الانكليزية ادارة المصفاة من حيث كفاءة العمل ومستوى المعدات وملاءمتها للانتاج المطلوب ، أما حجم الانتاج فتقرره الشركة الوطنية في ضوء عقود التكرير الموجودة .

وتحدد الدولة العلاقات الخارجية للمصفاة . وينطبق على هذه المؤسسة في مجموعها نظام العمل المتعلق بالشركات الخاصة ، من حيث وضع الموظفين والعمال وحقوقهم ، ويؤخذ بعين الاعتبار الحفاظ على الانضباط السابق في العمل .

لكن العديد من المشاكل يعترض هذه التدابير المرتبطة بحقوق العاملين في الشركة وموجباتهم . فهناك حوالي ١٧٠٠ عامل وفني من اليمنيين . والتطور الذي أحدثته الدولة في أجهزة المصافي وفي نوعية عملها أثّر ايجابيا في مستوى العمل الفني والتقني . وبالتالي زاد في مسؤولية الشباب اليمني الذي أزيحت من طريقه الحواجز والمضايقات التي كانت قائمة في أيام السيطرة الاستعمارية على المصفاة . لم تعد الترقيات خاضعة لتقديم الولاء لهذا أو ذاك من

المستشارين أو عملاء الاجانب . كما توفرت ضمانات عقلانية وحقوق نقابية وسياسية كاملة للعمال والموظفين . لكن الذي يحصل ، هو بعض الاختلال الناتج عن عدة عوامل تلتقي في وقت واحد :

الاول ،هو الميل الى عدم الانضباط أحيانا ، وذلك باعتبار أن السلطة القمعية قد زالت . وكان ثمة اندماج في أذهان الكثيرين ، بين الانضباط المهني وبين القمع . وفي الحقيقة فالقطاع العام في اليمن الديمقراطية يعاني حاليا من هذه المشكلة في بعض مؤسساته ومرافقه . وكأنما يشعر البعض بأنه لم يعد ملزما بالتقيد بالدوام بصورة دقيقة مثلا ، باعتبار أن المؤسسة هي للدولة وللجماهير وللعمال !

والعنصر الثاني ، هو وجود تفاوت في الاجور وعدم التمكن حتى الان من ايجاد تخطيط للاجور شامل ودقيق على الصعيد الوطني . وهي ، في كل حال مهمة ليست سهلة . مع أن وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ووزارة التخطيط تقومان باعداد تنسيق متزايد في هذا المجال . وهو الموضوع الذي كرست له عدة ندوات مهمة ، بينها الحلقة الدراسية بشأن تخطيط القوى العاملة ، التي عقدت في يونيو ١٩٧٨ وقدمت فيها عدة تقارير وافية ولا سيما من جانب الرفيق عبدالعزيز عبدالولي ، عضو اللجنة المركزية ووزير الصناعة ووزير التخطيط بالوكالة .

ومن مشاكل الاجور وأمثلتها البارزة ، فالملاحظ أن الذي يعمل سائقا في مصلحة الاوتوبيس ، مثلا ، ينال اجرة هي أعلى بكثير من اجرة الاختصاصي المتوسط في مصافي عدن . وهناك ميل لدى العديد من الموظفين لترك وظيفتهم والالتحاق بمصلحة الاوتوبيس ليعملوا كسائقين . وبالطبع ، فلهذه المصلحة ظروفها ونشأتها الخاصة . وقد اضطرت الى اعتماد رواتب وضمانات تشجيعية للراغبين في دخول المصلحة . بينما الاجور والرواتب في مؤسسات أخرى لم يكن من الضروري أن تمر بنفس الظرف . شركة المصافي مثلا ، كانت لديها درجات في الرواتب تزيد على العشرين درجة . وهي حاليا من الدرجة الاولى الى الرابعة

عشرة .

أما العنصر الثالث فيتناول العلاقة بين الاجور في القطاع العام وبينها في القطاع الخاص . وقد لاحظت الهيئات المسؤولة ، الحزبية والحكومية ، وجود تفاوت شديد لصالح القطاع الخاص من ناحية الاجور والتقديمات . فاعتمدت ضريبة على الاجور في القطاع الخاص ولا سيما الاجور العليا .

قبل ذلك ، كانت الرواتب في القطاع العام قد خفضت على الصعيد الوطني كله . فلقد تبين أن رواتب خريجي الجامعات هي أعلى مما يحتمله وضع الاقتصاد الوطني ، وانها تفوق رواتب الاختصاصيين العاملين في الكويت والاردن مثلا .

وأنشئت بالتالي ضريبة خاصة على أجور العاملين في القطاع الخاص حتى يحصل بعض المساواة مع القطاع العام . ثم أن التزامات الدولة وبرامجها الانمائية أصبحت أكبر بكثير . يكفي أن نشير الى أن أسعار المواد الغذائية قد ارتفعت عالميا في العام ١٩٧٤ وفي مقاييس كبيرة ، ومع ذلك فانها بقيت مستقرة في اليمن الديمقراطية بشكل عام بفضل تدابير الدولة في مجال الحماية .

لكن الضريبة الخاصة على الاجور والرواتب بالقطاع الخاص أدت الى اجحاف بحق فريق من الموظفين والشغيلة ، كما يعتقد بعض الخبراء . فالمهندس في وزارة الزراعة مثلا يصل راتبه الى ٦٠ دينارا بعد حوالي خمس سنوات من دخول الملاك . أما في مصافي عدن ، المعتبرة شركة خاصة من هذه الناحية ، فيحصل المهندس فور دخوله للعمل على حوالي ٧٣ دينارا . أي المئة دينار بعد التخفيض . لكن هذه الافضلية ، بالنسبة الى المهندسين في القطاع الخاص ، لا نجدها لدى بعض أصحاب الرواتب المتدنية ، بما في ذلك أصحاب الدرجات الاولية في شركة المصافي . فالحد الادنى هو حوالي ٢٨ دينارا أحيانا . الا أن ثمة ضمانات معينة في المصفاة ، على الصعيد الاجتماعي ، متوفرة بنسبة أعلى مما هي عليه في بعض المؤسسات الرسمية .

يبقى أن نشير ، في مجال « اليمننة » ، الى أن الشغيلة

اليمنيين حققوا نتائج مهمة في الدورات والاختصاصات النفطية التي يشتركون بها في أكثر من بلد . وقد أصبحت كفاءة العامل اليمني معروفة في هذا المجال . كما هي معروفة في حقل البناء مثلا ، حيث يحصل عامل البناء اليمني في المملكة العربية السعودية أكثر من شغيلة العديد من البلدان في نفس المكان ونفس العمل .

وهنا تدخل ، وبشكل ملح ، مسألة الهجرة ونسبة الاستفادة المحلية من الطاقات والكادرات اليمنية . وموضوع الهجرة وخصوصا هجرة « الادمغة » الى خارج اليمن موضوع معقد وشائك . ومن الصعب استيعابه في أسطر أو صفحات معدودة . والانسان اليمني معتاد على التجوال عبر البحار والمحيطات منذ الوف السنين . وهنالك روابط تاريخية واجتماعية تشد الكثيرين من اليمنيين الى عدة بلدان خليجية. فضلا عن البلدان الاسيوية والافريقية . وهنالك الظروف المعيشية التي عاناها الشعب في أيام الاستعمار البريطاني ، والسياسة التي اعتمدت من جانب المستعمرين وأعوانهم في مجال تشجيع الاجانب على استلام الوظائف والادارات في اليمن وتشجيع المواطن اليمني على الهجرة والتشرد . ويدخل في ذلك أيضا وضع اليمن في اطار « المعادلة » الخليجية ، حيث تكاد تكون اليمن هي البلد الوحيد الذي لا يعتمد على الثروات النفطية وانما يعتمد على امكانياته الخاصة في حقل الانتاج ، ويحاول أن يبدأ من الصفر في ازالة آثار التخلف والسيطرة الاستعمارية ونتائجهما .

ويبدو أن من أهم المشاكل التي تعترض اليوم المشرفين على التخطيط وعلى اليد العاملة ، كيفية العمل على شد المواطن اليمني ولا سيما الكادرات المتخصصة ، الى العمل في البلاد طالما أن بلادهم تحتاج الى جهودهم .

ولقد أدرك المسؤولون أن هذه المشكلة لا تحل بالتمنيات الصادقة وحدها . وانما ترتبط بمجمل عملية البناء . كما ترتبط بمجمل التخطيط لتنمية المناطق وتنمية الامكانيات الذاتية للاسرة اليمنية .

الثورة جسورا وجزرا

« ثم سافرنا في هذا البحر بالريح الطيبة يومين وتغيرت الريح بعد ذلك وصدتنا عن السبيل التي قصدنا ، ودخلت الامواج معنا في المركب ، واشتد الميد بالناس ، ولم نزل في أهوال حتى خرجنا الى مرسى يعرف ب « رأس دوائر » فيما بين عيذاب وسواكن .

« وبعد مسيرة يومين في بر قبائل « البجاه » وصلنا الى سواكن ، وهي جزيرة على نحو ستة أميال من البر . ثم سافرنا من سواكن الى اليمن » .

(الرحالة الشهير ابن بطوطة)

رف من « طيور البحر » يملأ الجو . ومن بين أجنحته راحت الشمس الصباحية تتسرب الينا وتدلنا الى جهة الشرق .

الطريق من عدن في اتجاه الشرق لم يعد مثل الوعورة التي كانت تسيطر عليه في العقود الماضية من السنين .

ويتذكر السائق الذي رافقنا عبر أنحاء اليمن الديمقراطية كيف كان الناس منذ عشر سنوات أو اكثر بقليل ينتظرون أن ينحسر السيل وتبتعد مياه البحر عن الدرب اللولبية المحاذية للشاطىء ، حتى تمر السيارة أو العربة . والرحلة الى المحافظات

الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة في اتجاه الشرق كانت محفوفة بالمخاطر . كان البحر والهواء والمطر والرمال شبه الصحراوية تتحكم بهذه الطرق البدائية من المواصلات . في كل لحظة يتعرض المرء للانزلاق الى البحر . وفي كل لحظة هنالك خطر الضياع وسط عواصف الرمل .

نصل الى أبين وتعود الى الحاضرين قصص أمجاد زنجبار وأسواقها التاريخية الشهيرة . منها كان قدماء اليمنيين يحملون انتاج البخور الى مشارق الارض ومغاربها . وهم يتذكرون ايضا بحارة « الامس القريب » ، في القرن الثامن عشر مثلا ، ومنهم بحار يمني اسمه سعيد بن سالم بن طايع ، وهو من قرية الحامي بحضرموت وكيف كان يكتب قصصا وأشعارا عن رحلته من السيحوت الى « جزيرة زنجبار » . ومن مسقط الى المخا .

وفي أبين تنتشر حولك اراضي « الحاج سيف » ، الاقطاعي الشهير الذي كان يمتلك مزرعة ضخمة وفي داخلها فيللا لسكنه وحولها اكواخ القش للفلاحين المسحوقين . هذه الاراضي معظمها اليوم « مزارع دولة » ، تنتج التنباك والموز وأشجار « البوباي » الباسقة . وفي القسم الاخر تمتد « مزرعة لينين » (حوالي الف فدان) وتعطي مختلف انواع المزروعات وتربي المواشي بكثرة .

ومن زنجبار وتاريخها الثوري العريق ننتقل الى « شقرة » ، بلدة الصيادين ، بلدة البؤس والوسائل البدائية حيث كانوا يصطادون السمك بالديدان الارضية وبالاسماك الصغيرة (المحلو)، وهي اليوم بلدة تعاونية الصيادين العصرية ونشاطاتها الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والصحية ، والتي تنتج ألفي طن سمكا طازجة .

ومن شقرة ننطلق عبر التلال الصغيرة الى « الداخل » . في الماضي كان المسافرون يضطرون الى سلوك الطريق المحاذية للشاطىء . المخاطر الكبيرة جعلت المسؤولين يشقون هذه الطريق « الداخلية » وان كانت تمر عبر مئات الكيلومترات من التلال والجبال والسهول قبل الانحدار مرة أخرى في اتجاه البحر عند اجتياز قسم من المحافظة الرابعة .

لكن هذه الطريق الطويلة والمتعرجة لم تكن ، بدورها ، بعيدة عن المصاعب والمخاطر . وبقيت الامور على هذه الحال حتى مطلع السبعينات ، فهي تمر بين تلال مسننة وصخور معلقة مثل الجدران . لذا فقد اختار الانسان الاماكن المنخفضة مكانا لطريقه فكان يمر ، في معظم الاحيان ، في الوديان أو المنخفضات الواقعة بين تلّتين . ولكن ، يهرب من رؤوس التلال فيقع تحت رحمة السيول . بمجرد أن ينهمر المطر لا يعود هناك مرور للسيارة .

ويتذكر السائق كيف كان يمضي خمسة أيام على الطريق بين عدن والمكلا . مع أن المسافة هي ٦٣٠ كيلومترا . فبعض أقسام الرحلة كان عبارة عن صراع بين الانسان والطبيعة . ولم تكن الثورة قد استطاعت أن تؤمن للانسان منفذا آخر لا يتأثر بالامطار والسيول كما هي الحال اليوم .

ونجتاز مدينة مودية ، وهي مركز المديرية الشرقية من المحافظة الثالثة ، بعد استراحة قصيرة تناولنا خلالها طعام « العقدة » في مطعم شعبي صغير يتداخل مع السوق والباعة والاغنام . والمطعم يتقن هذا النوع من الطعام عند الفطور الصباحي ، وهو يصنعه من اللحم والبطاطا والبصل والبندورة وسوى ذلك من الخضار . وقد وضعت على الحائط رسوم متنوعة معظمها صور دبابات ومدافع .

ونترك مودية بعد المرور على مزرعة الشهيد أحمد صالح ، بمزروعاتها الجديدة وأغنامها ، وأكوام نتاجها من السمسم ، وجهود شبابها النشيط المتلىء بهجة بال ٢٠٦١ شجرة برتقال جديدة والتي بدأت تعطي الثمار ..

الطريق تبدأ بالتعرج ، والى الجانبين يطل من وقت لآخر مبنى صغير المساحة ومرتفع الى حد ما ، ويشير الرفاق : هذه المباني المشرفة على الطريق أو على مجاري المياه كانت مراكز انكليزية ومعسكرات ، وكان الجنود الانكليز يراقبون كل شاردة وواردة خوفا من أية عمليات معادية لهم .

وعند اجتياز بلدة المحفد ، ذات البيوت الترابية عند

الحدود بين المحافظتين الثالثة والرابعة ، تطل طبقة صخرية طويلة عند الجبل ، تشبه الاعمدة الرومانية في بعلبك في كثير من جوانبها . هنا كانت تقيم قبائل اللقموش .

نحن في العوالق السفلى ، المديرية الجنوبية من المحافظة الرابعة .

ثم يبدو ، مثل الحلم المفاجىء ، صخر كبير شاهق دائري عند الجهة العليا ، يختفي لحظة ويعود ، ثم تتمايل الطريق وتبتعد وبعد قليل يعود الصخر الجبار ويبرز أمامنا . ورغم ابتعاد المسافات وتبدل الاشكال نعود ونطل على جانب آخر من هذه « القبة » الصخرية ، الى ان يتعدل شكلها عندما نقترب من الجهة الشرقية منها .

وفي هذه البقاع من الارض تنتشر القرى ذات الطابع التاريخي . ومنها حبان ، وكانت مدينة مهمة تحيط بها الاسوار . الاسوار تهدمت لكن أجزاء منها باقية . وتبرز من البعيد ، قرب الاسوار المتبقية ، منازل عالية مطلية باللون الابيض ، وهي منازل المشايخ وكبار التجار . أما بيوت سائر الاهالي فقريبة من بعضها ومتداخلة وقلما يبرز واحد منها ويتفرد .

لا غرابة ـ يقول أحد الرفاق ـ أن تكون هذه البقعة قد شهدت العديد من الانتفاضات الشعبية منذ الاربعينات . وقد أصبح اسم العوالق السفلى والعوالق العليا مرتبطا بأعمال التمرد والتحركات الاضرابية وثورات الفلاحين والقبائل .

ثم تبدأ الانحدارات التدريجية ، بين الصخور المسننة والمتعرجة والمستطيلة والمستديرة والمثلثة الاطراف ، والتي تنتشر بينها بعض القطع الزراعية وأشجار النخيل وتجمعات الرعيان حول الابار الارتوازية .. ولدى الوصول الى مدينة عزام ، عاصمة السلطنة في السابق ، تعود الحرارة القوية وتلفح الاجسام . وتنتشر الرمال من كل جانب . وتبدو حول البيوت صفوف من الاشواك ومن أغصان الاشجار المرصوفة على الارض بطريقة تصد الرمال عن البيوت الترابية أو الحجرية .

ونتابع المسير وقد سيطرت شمس الظهر على الموقف .

ونمر بين امتدادات صحراوية لنصل من جديد الى البحر . وهنالك نلتقي بالصيادين في « بير علي » . وهي بلدة ذات ماض عريق ، استطاع أهلها أن يحولوا شاطئهم الى موج من الغضب في وجه الاستعمار الانكليزي وقبله البرتغالي . بيوتهم من القش أو من الحجارة البركانية . فلقد تمكنوا من نقل حجارة التلال البركانية الى قريتهم فشيدوا منها بيوتا من اللون الدخاني الذي يقرب من السواد . وهو اللون الذي يرافقنا ، عند مغادرة البلدة ، ولدى الاطلالة على الوادي الذي يفصل بين المحافظة الخامسة والمحافظة الرابعة .

وما أن تتبدد الالوان البركانية حتى يعود الرمل ، وحتى يعود هواء الصحراء . وفجأة ، وفي وسط هذه البقعة المترامية الاطراف ، تقترب منك ألسنة الرمال الطائرة وهي تدور وتتمايل وتأخذ كثافة وتعلو شيئا فشيئا أمام عجلات السيارة . ولا تشعر بنفسك الا وأنت معرّض للتيهان عن الطريق .

وعندما تحدق جيدا تجد لوحة صفراء أو صفراوية تملأ هذه « الدنيا » المحيطة بك من كل جانب .

الى اليمين يطغى لون الكثبان الرملية على لون الموج . والى اليسار ، الرمال تسيطر على لون المنحدر الصخري الذي يقرب من البياض . فيتناهى ، كلما ابتعد النظر ، اللون الاصفر فيستحيل بياضا وضبابا .

في هذه البقعة من الرمال والامواج والغيوم والرياح تضيع الحدود بين الاشياء . كل شيء في هذه الارض دوائر تكبر وتضيع ، وتكاد تشدك في دورانها . في تصارع وتناغم ، وفي عذوبة وقسوة . ثم يحل بينك وبين البحر المزيد من الرمال . ويبتعد البحر وتبقى الرمال . وفي لحظة الضياع ، الضياع عن كل شيء ، تصبح القيادة هي العامل الحاسم . فرامل في غير محلها تؤدي الى التزحلق . اطلاق العنان للسرعة من غير حساب معناه السقوط . والوقوف والمراوحة لا فائدة منهما ، فالرمال تتراكم فوقك وتقفز عنك عجلة التاريخ .

في هذه الحالة ، لا مبرر للقول انني أعرف قيادة

السيارات . فكم من العارفين يسقطون وكم مـن محترفي القيادة تنهـار قيادتهم .

ولا فـائدة من القول أن الطريق من الاسفلت وان الخطر غير وارد . فكم من القـادة يسقطون عندما تكون الطريق سهلة .

ثم ، في خضم هـذا الضياع ، تبدو ملامح مـن الاخضرار عند الافق .

ويقترب اللون الاخضر . الرمـال كلها تجمعت وأقامت جبلا رمليا . والجبل ابتعـد عن الطريق واتخـذ لنفسه مكانـا وتسمَّر في مكـانه .

الرمـال تأخذ مكانها الحقيقي . تفتح الدروب بـين أبناء الوطن ، وتتحـول الى صخرة تنضم الى الصخـور الواقفة في عناد .

وقصة اليمن هي هذه بالذات . كيف نفتح الجسور بـين أبناء الشعب ، وكيف نغلق الابواب على الاعـداء .

انه السؤال الذي طرحته على نفسها الهيئات القيادية للثورة وللبلاد . والطرقـات الجديدة بين المحافظات ليست سوى واحد من أشكال بناء العـلاقة بين الناس .

والطريق التي أخـذتنا من عدن الى المكلا في ساعات محدودة رغم الريـاح والشمس والامواج ، هي واحـدة من أهم ثمـار الثورة في حقل المواصلات .

والذين شـاهدوا عملية بناء الجسور الضخمة على هـذه الطريق ، منذ سنوات ، لـم يصدقوا أن الطريق ستنتهي في مدة معقولة . أحـد هذه الجسور ، واسمه « جسر السلام » ، كلف مـن التضحيات ومن الجهود الشيء الكثير وعمل فيه مئات العمال وخـلال أسابيع كاملة . وكانت الحافرات والجرارات كلما فتتت بعضا من الصخر « اصطدمت » بصعود ينابيع جوفية كبيرة ، حتى أصبح هناك خطر شـديد على العاملين في المشروع . لكـن العمل استمر . وأقيم الجسر .

والجسر لـم يكن وحيدا . جميع الامـاكن التي كان الانسان يضطر فيها لسلوك مجرى السيول قـد استبدلت بجسور حديثة

تتيح له أن يتغلب على قساوة الطبيعة .

والجسور الجديدة سهلت اقـامة العلاقـات بين الناس على أسس جديـدة ، على أنقاض الشرذمة الاقطاعية والعداوات والثأر بين القبائل .

كـان الانكليز يقـدمون الاسلحـة الى كـل مـن القبيلتين المتنازعتين في القرية أو المنطقة . ويشجعونهما على الاقتتال الى أن تنهار القبيلتان أو الى أن تترسخ بينهما العـداوة وتقـام بينهما الاسوار .

وقـد أخبرنا أبناء يافع في المديرية الشمالية من المحـافظة الثالثة كيف كان أبناء قرية معينة لا يمرون على القرية المجـاورة خلال عشرات من السنين ، ولا يتعاملون معها الا بلغة الانتقام أو لـدى الاختلاف على قطعة صغيرة مـن الارض أو دخـول بعض رؤوس المـاعز أو الغنم من قرية الى قرية فيسقط بسبب ذلـك عشرات القتلى .

وفي هذه المنازعـات غالبا مـا كانت تستخدم الحجـارة ، والخناجر ، وأحيانـا السيوف . وكثيرون من أبناء الجيل المتقدم أو المتوسط في العمر لا تزال في أجسامهم آثـار خناجر .

هذا عـدا عن الحواجز ، وحتى الجمارك ، بين اقليم واقليم او بين امـارة وامـارة .

ولقـد أدرك قـادة الثورة ، في حرب التحريـر ، ضرورة اقـامة الجسور بين أبناء البلاد الناقمين على الحكم الاستعماري والذين من مصلحتهم التعاون لتحرير البلاد منه . وأثناء الكفـاح المسلح قـام التنظيم السياسي ـ الجبهة القومية بتوزيع المقاتلين والمهمات على أسـاس وطني عـام ، وليس كل بحسب منطقته أو قبيلته . وهذا أعطى ثمارا طيبة .

وعمل قـادة الثورة ، أثناء الكفاح المسلح وبعـد الاستقلال ، على ربط الجزر اليمنية بالعلاقـات و « الجسور » . ومنها جزيرة سقطرى التي كانت مضرب المثل في العزلة والانقطاع عن العـالم . وهي واحـدة من عـدة جزر قـام بشأنها صراع عنيف واستطاع الثوار أن ينتزعوا اعتراف الاستعمار البريطاني بأنها جزء مـن

أرض اليمن الديمقراطية ، ما عدا جزيرة كوريا موريا التي تشبث بها المستعمرون الانكليز ورفضوا المطلب الوطني بضمها الى البر اليمني .

وحتى العام ١٩٦٧ ظلت سقطرى ونواحيها ذات حياة بدائية . تسيطر على سكانها القلائل أمراض السل والملاريا وسوء التغذية ، لا مياه شرب نظيفة ولا مجال للعيش بشكل معقول . معظم الاطفال يموتون بسبب البؤس وانعدام التطبيب ، والموت غالبا ما يشمل الكبار أيضا . هذا عدا الجفاف الدائم وعدم تمكن الانسان من الاستفادة من ثروات هذه الجزيرة التي عرفها الاقدمون مصدرا لأعظم أنواع العطور والبخور في العالم كله . وفيها من الاشجار النادرة التي كانت حديث أرباب الرحلات التاريخية عبر المحيطات . ومنها الشجرة المسماة « دم الاخوين » . وكان أهل الجزيرة في العصور القديمة يحدثون شقوقا في ساق هذه الشجرة الغريبة بواسطة السكين فتسيل منها « مادة لزجة حمراء اللون تتجمد مكونة فصوصا حمراء داكنة هشة » . كما يسحق الاهالي « دم الاخوين » ويستعملونه كدواء للجراح ويلونون به الاواني الفخارية ، كما يصدرونه الى الخارج فيستعمل كمادة مطهرة للفم واللثة . ويتراوح ارتفاع هذه الاشجار بين ستة وتسعة أمتار .

وحتى العام ١٩٦٧ كان سكان جزيرة سقطرى معروفين ببؤسهم وتجاعيد وجههم وعري جسدهم ، كما يسيرون حفاة الاقدام .

في هذه الجزيرة بادرت قيادة اليمن الديمقراطية الى تشييد المشاريع وشق الطرق وانشاء الوحدات الصحية ومراكز صيد الاسماك ، وأنشئت مدرسة للبدو الرحل ، واعتمدت آليات الحفر الحديثة والاساليب الجديدة في اصطياد الاسماك . وتأسست فيها لجان شعبية ، وفرع لاتحاد نساء اليمن ، وينضم الشباب والاهالي بصورة متزايدة الى التنظيم السياسي الموحد .

وقد قام رئيس الوزراء ، الرفيق علي ناصر ، بزيارة الى سقطرى ومديرية الجزر بصورة عامة ، ودشن العديد من

المشاريع . ولاحظ هناك أن تطورا كبيرا قد حصل خلال السنتين السابقتين . حوالي ٥٥٠ طالبا وطالبة يدرسون في مدارس أبناء البدو الرحل . المرأة تسجل رقما قياسيا من حيث عدد الدارسات في صفوف محو الامية . مبادرات جماهيرية وأشكال نضالية . تعاونية لصيد الاسماك ، وخطة للانتقال بالجزيرة الى مرحلة تاريخية جديدة تؤدي الى القطع كليا مع التخلف والبدائية والجهل والمرض .

هذه المشاريع كانت جسورا تربط هذه الجزيرة بالبر اليمني وبالعالم الخارجي ، وكذلك جزر عبد الكوري وسمحا ودرسة التي كانت معزولة بعضها عن بعض وكانت جماهير كل جزيرة تعيش في عزلة فردية أو عائلية أو قبلية .

والعلاقات الجديدة بين أبناء الوطن الواحد تسهم ، بدورها ، في مد الجسور مع كافة أحرار العالم ومع جميع المناضلين لأجل القضية المشتركة . والثورة اليمنية التي أخرجت الانسان اليمني من الانغلاق والعزلة والتشتت أخرجت اليمن الى العالم الفسيح ، بقضاياه ومشاغله وطموحه الى التجدد والارتقاء .

وفي كل خطوة من خطوات الثورة كان الثوار ينفتحون على التجارب التحررية ويطلعون على حياة البلدان الاخرى ومصاعب الثورات وانتصاراتها . وفي المراكز العسكرية والمخابىء والخنادق كان قادة الثورة يشرحون للشباب والمقاتلين ماذا يحدث في الجزائر وماذا في كوبا وماذا في فيتنام ، وكيف استفاد كل شعب من هذه الشعوب من امكانياته الذاتية ومن دعم الاخرين .

وعندما انتصرت الثورة وبدأت المنجزات ولا سيما بعد الحركة التصحيحية في ٢٢ يونيو ١٩٦٩ ، أخذ قادة التنظيم والدولة يشركون المناضلين والحلفاء في عدة بلدان عربية وأجنبية في المناقشة الديمقراطية الدائرة في اليمن بشأن طرق التطور وآفاق المستقبل .

وهذا حصل أيضا لدى مباشرة الحوار بين فصائل العمل الوطني الثلاثة في اليمن الديمقراطية لتوحيد نشاط هذه الفصائل .

فقد اعتبرت الثورة أن من واجب المناضلين العرب ومن حقهم أن يشاركوا في النقاش بين الفصائل التقدمية اليمنية لأن الحكم التقدمي في اليمن الديمقراطية هو جزء من حركة التحرر العربية والعالمية . وهو جزء من معركة الصمود العربي الحقيقي .

لكن مهمة انشاء الجسور بين البشر في داخل اليمن وخارجه لم تبلغ جميع اهدافها . ويلاحظ المرء بسهولة كيف أن الدول العربية الرجعية ساهمت مع الاستعمار الانكليزي ومع التخلف والقبلية والتقاليد البالية ، في جعل اليمن الديمقراطية تقف عند حدود معينة في الانفتاح وفي بناء الجسور .

يكفي أن نذكر أن المملكة العربية السعودية وسواها من بلدان الخليج سبق ووعدت بمساعدات كبيرة لبناء شبكة طرقات بين محافظات اليمن الديمقراطية . المساعدات لم يصل منها سوى شذرات لا تسمن ولا تغني من جوع . ثم انقطعت . وتبين ان الانقطاع كان مقصودا . فهناك من لا يريد أن تقوم علاقة بين أبناء الشعب اليمني حتى ضمن الجنوب . فكيف بالنسبة الى العلاقة بين الشعب اليمني في شطري البلاد ؟. وكيف بالنسبة الى ايجاد التكامل والتنسيق على صعيد الخليج وعلى الصعيد العربي بحيث توضع الثروات والامكانيات العربية الهائلة في خدمة التنمية المشتركة للوطن العربي وفي خدمة التحرر المشترك والغاء الحواجز الكثيفة والصحارى المخيفة التي ما زالت تفصل بين أبناء الامة ؟.

والذي ينظر الى هذه العملية المستمرة في اليمن الديمقراطي، عملية الغاء الحواجز وبناء الجسور الى الحياة الجديدة والتحرر المشترك ، فانه يستصغر كثيرا تلك الدعوات الى « عزل » اليمن الديمقراطية ، ويستغرب كيف يوافق على هذه الدعوات المشبوهة عدد كبير من الانظمة العربية في الوقت الذي تنفتح فيه الجدران وتلغى الحواجز بين عدة أنظمة عربية والكيان الصهيوني .

لكن الشعب اليمني قد تمرس على بناء الجسور ، الى درجة أن مثل هذه الدعوات لم يعد في امكانها أن تعيده الى القوقعة والانغلاق والعزلة .

الذي سيحصل حتما ، هو المزيد من العزلة لهذه الانظمة بالذات . وقد لا تستطيع انقاذها الجسور الممدودة مع العدو الاسرائيلي ومع الامبريالية الاميركية .

مجتمعات تتحدى الأعاصير
وموانئ جديدة تغير اتجاه الريح

« ان عدن بالنسبة لنا لا تقدر بثمن . فهي تصلح كمخزن للفحم طيلة فصول السنة، ويمكن ان تكون ملتقى عاما للسفن المستخدمة طريق البحر الاحمر ، وقاعدة عسكرية .. »

(حاكم بومباي البريطاني ،
٢٧ فبراير ١٨٣٨)

اذا كان الانسان اليمني قد ورث شيئا عن أسلافه القدامى فانما ورث حب المجابهة مع الطبيعة ومع المصاعب . ومع مرور القرون والازمنة كانت تتراكم لدى اليمنيين معرفة دقيقة في سبر عوالم البحار وفي صناعة « عالم خاص » بكل ما يحتاجه البحر . هذا العالم يبتدىء من صناعة مراكب الصيد والمطايل والاوطاف والزوارق الجلدية ثم القوارب ، مرورا باستعمال ليف النخيل في شد جذوع الرمث بعضها الى بعض .. وصولا الى التعاطي اليومي مع وحوش البحر ومع سمك القرش ، اصطيادا ومعالجة وتجفيفا واستعمالا .

وكما يقول بعض المؤرخين فان « ميناء عدن كان احد تلك الموانىء العربية القديمة التي شهدت بداية نشاط اليمنيين البحري وبداية ارتباط اليمن بشرق افريقيا ، فهو في موقع أمين

حصين ، فالجبال التي تكاد تحيط به من كل الجهات تحميه من العواصف والرياح الموسمية التي تهب في الصيف من الجهة الجنوبية الغربية ، كما تحميه صخرة (الصيرة) من رياح الازيب أيام الشتاء »(1) .

واليمنيون يعرفون ان مدينة عدن عانت الكثير من شجون الطبيعة ، وان الاقدمين اضطروا الى حفر الانفاق الجبارة والاقنية بواسطة الحجر والجص ما بين البحر و « جبل حديد » ، وبعضها كان أكبر من طاقة البشر على ما يروي المختصون ، فقامت الروايات بخصوص عفاريت سليمان وشداد بن عاد واسكندر ذي القرنين ، فينسبون الى هذا او ذاك انه شيد مجاري المياه من لحج الى عدن بواسطة العفاريت . ومنها ما يقال من ان شداد بن عاد خرج من اليمن طالبا اعمال حضرموت ، ولما وصل الى لحج راى جبل « العر » ، وهو أعلى جبال عدن ، فأرسل اليه بعض خدمه فرجعوا وقالوا ان هذا الموضع واد في بطنه شجر وفيه أفاع عظام وهو مشرف على البحر المالح ، فلما سمع كلامهم نزل في لحج وامر بأن تحفر الابار التي يجلب منها الماء العذب الى عدن .. وان عفريتا من عفاريته قام بنقر الباب الذي ينفذ الى عدن ، وعفريتا آخر قام بحفر مجرى الماء العذب من « راس سقطرى » .

واذا كانت الاساطير قد اندمجت بقصة هذه الملحمة البشرية لكثرة ما قدمه الاقدمون من جهود عملاقة ، فان خزانات « الطويلة » ، القديمة قدم « باب عدن » ، تشهد الى اليوم

(1) هذا بعض ما يذكره كتاب « الطواف حول البحر الارتيري » ، ويتناول ، كما تتناول مؤلفات بعض المؤرخين الاخرين ، القوافل التي كانت تأتي الى عدن وكيفية شق الطريق بين الصخور المحدقة بالمدينة وقيام جسر خور مكسر ، وطريق العقبة الذي كان شقه « أسهل كثيرا على اليمنيين القدماء من شق النفقين اللذين يبلغ طولهما معا نحو ميل ، ولكن يبدو أنهم اختاروا النفق لانه يجعل عدن في مأمن من الهجمات البرية .. » - ويراجع في هذا المجال كتاب حسن صالح شهاب « أضواء على تاريخ اليمن البحري » ، الصادر في العام ١٩٧٧ - دار الفارابي ولجنة نشر الكتاب اليمني .

بعظمة تلك الجهود البشرية لايصال سبل الحياة والنمو الى المدينة ، ولاجتياز حواجز الجوع والقلاقل والحروب وما كانت تسببه من عطش وانقطاع في الطرقات .

وقبل أن ندخل في مشاريع عدن المعاصرة نشير الى أن هذه المدينة كانت في تاريخها القديم منفتحة على سائر اقاليم اليمن وعلى البحار والشعوب ، ويقول « ابن المجاور » انه لم يكن لعدن سور لا من ناحية الميناء ولا على الجبال المحيطة بها ، وان أول سور بينها وبين الميناء بني أيام « بني زريع » . وكان سبب بنائه أن التجار وأصحاب السفن بدأوا يهربون البضائع ليلا الى المدينة بعد أن زادت الضرائب ، فأمر حاكم عدن أن يقام سور من الحصن « الاخضر » الى جبل « حقمات » . ولكن هذا السور تهدم بفعل الموج . ثم أقيم سور ثان من القصب .. وقامت بعد ذلك أسوار امتدت الى رؤوس الجبال ، وشيدت بالحجارة والجص ، في عهد الدولة الايوبية .

نورد ذلك لنشير الى أن الجهود الراهنة التي تشرف عليها « الهيئة العليا للموانىء والملاحة » في اليمن الديمقراطية تدور حاليا حول هذه النقطة بالذات ، وهي كيفية ايجاد الحماية من أمواج البحر ورياحه . وهذا له اهميته في توسيع أعمال المرافىء اليمنية ، من جهة ، ومن جهة ثانية في كيفية « فتح » الموانىء على مناطق اليمن الجنوبية بواسطة شبكات حديثة من الطرقات ووسائل الاتصال والنقل .

وان كانت الحركة في ميناء عدن قد انخفضت بفعل اغلاق قناة السويس بعد عدوان ١٩٦٧ ، فان النشاط ما لبث أن ازداد بعد فتح القناة . وقام مشروع لتجديد ميناء عدن ومشروع مواز لانشاء ميناء جديد على مقربة من مدينة المكلا . والمشروعان انجزت معظم مراحلهما .

ولقد اعتمدت في ميناء عدن الوسائل الحديثة في الشحن والتفريغ والتخزين . ومنها رافعات ذات أوزان ثقيلة ورفاصات تقطر السفن لادخالها الى الميناء ، وزوارق ارشاد وزوارق لربط السفن عند الرسو .

والجولة عبر أقسام المرفأ ومنشآته هي جولة في عالم من القضايا المتنوعة .

وهيئة الموانىء والملاحة اليمنية تشمل ثلاث وحدات أساسية ، هي مصلحة الموانىء اليمنية ، وشركة أحواض السفن الوطنية ، وشركة الملاحة الوطنية ، وهذه الاخيرة تتولى أعمال التوكيل والعقود وطلبات السفن ..

وأنشىء مجلس ادارة لهيئة الموانىء يرئسه وزير المواصلات ويضم المدراء العامين للهيئات الثلاث وممثلي النقابات الثلاث في هذه الوحدات ، وسكرتيري منظمات التنظيم السياسي الموحد .

وقد توجهت الانظار الى ميناء عدن بعد توسيع الطريق بين خور مكسر والشيخ عثمان ، وخصوصا بالنظر الى سهولة المعاملات فيه ، وبالنظر الى تكدس السفن في ميناء الحديدة في اليمن الشمالي .

ويقول عبدالله محمد عزيز ، عضو اللجنة المركزية ونائب المدير العام للهيئة العليا للموانىء ، ان التنسيق يجري على قدم وساق بين عدن والمكلا ، وأن الكثيرين يفضلون حاليا استخدام ميناء عدن بالنظر الى ظروفه ، فينقلون البضائع بعدها براً الى المكلا والى سائر أنحاء البلاد .

ويضيف بأن الميناء الجديد الذي يقام قرب المكلا ، واسمه ميناء خلف ، سيخفف الضغط عن عدن ويسهل مجموع البناء الاقتصادي والخطط الموضوعة . سيما وأنه ميناء مجهز بالقدرة على استقبال السفن خلال أشهر الصيف عندما تكون الرياح على أقصى درجاتها .

ويقول أبو بكر الخضر ، كبير المهندسين في مصلحة الموانىء ، ان المهندسين اليمنيين استطاعوا تسيير الامور بدقة واستخدام الالات الحديثة بدون الاستعانة بخبراء أجانب . وهناك فرق للهندسة المدنية تتابع تشييد المنشآت والمخازن والطرقات والمباني وتتولى أعمال المسح والمرابط واختبار الاعماق ، وفرع للهندسة الميكانيكية البحرية (الترميمات والاصلاحات ..) وفرع الكهرباء بما فيها الفنارات الممتدة من آخر باب المندب

الى مقربة من الساحل العربي .

وثمة قسم يتولى أعمال الغطس وينزل ملاحوه الى أكثر من اربعين قدما تحت الماء لاصلاح اي انسداد في المجاري .. وهذه الاعمال لم يكن يقوم بها في السابق سوى الغواصين الانكليز . وفي الستينات كان الهنود يشكلون نسبة كبيرة من الاختصاصيين والبحارة .

ويذكر أبو بكر ، وهو قديم في المصلحة ، الكثير من الكلمات الهندية المستعملة حتى الان بين شغيلة الميناء بالنظر الى اختلاطهم القديم بالهنود . فيقال : « اديني بانيس » ، اي أعطني « باني ايس » ومعناها بالهندية : ماء مثلج . وتستعمل أيضا كلمة « شاباش » ، اي « احسنت ، احسنت » .

كما يعرف البحارة طهي المأكولات الهندية ، مثل « الارز بالكاري » ، ويوضع معه البصل والزيت . كما يتقنون الاغاني الهندية التي كان لها تأثير على الموسيقى اليمنية بصورة عامة .

ونغادر ميناء عدن وذكرياته البارزة ومنها اضراب عمال الميناء سنة ١٩٥٦ رافضين تحميل السفن الانكليزية المشاركة في العدوان على السويس ومقدمين الشهداء في هذا السبيل .

وننتقل الى مشروع حديث للغاية عند شاطىء مدينة المكلا .

انها « منطقة خلف الصناعية » ، الى الجهة الشرقية من المكلا ، في بقعة واقعة بين أمواج البحر وبين الصخور العنيدة الملاصقة تقريبا لهذا الميناء الذي يقام وتقام معه ، دفعة واحدة ، سلسلة من المشاريع والمؤسسات والمصانع . والمشروع يشتمل بصورة أساسية على ما يلي :

ـ ميناء تجاري مع رصيف للاسماك .
ـ محطة كهربائية بقوة ٨٥٠٠ كيلوواط .
ـ مصنع لطحن الاسماك ينتج ٥٠٠ طن يوميا تضاف الى منتجات المصنع القديم وهي ١٥٠ طنا . هذا فضلا عن ثلاجة ضخمة لتبريد السمك ومختبر للاسماك ومصنع للتعليب .

انه المشروع المتكامل الذي يسمى « المشروع متعدد

الاغراض » .

المباني كلها تقوم بتشييدها مؤسسة الانشاءات اليمنية .

وتتولى مؤسسة « ايسيا » الالمانية الغربية أعمال الميناء وترتيباته . ويشرف بعض الفنيين السوفيات على انشاء مصنع التعليب . ويشارك مهندسون لبنانيون في أعمال « دار الهندسة » وهي المؤسسة المشرفة على الجانب الهندسي من المشروع .

معظم الابنية أصبح جاهزا . وكذلك الارصفة . رصيف الاسماك طوله ١٦١ مترا ويتسع لعدة قوارب وعمق المياه فيه خمسة أمتار فقط . اما رصيف البواخر التجارية فعمق مياهه عشرة أمتار .

كانت المياه تغمر كل هذه البقعة التي اصبحت اليوم أرصفة . كان الصخر العالي يبدأ عند انتهاء الموج . مشيدو المشروع حفروا الصخر وردموا الماء ، فأصبحت لديهم هذه البقعة الفسيحة . وأقاموا حواجز صخرية وترابية طويلة في البحر لحماية الميناء الجديد والمؤسسات . ولوحظ انهم لا يأخذون الصخور ذات الاصل البركاني . يكتفون بالصخور القوية لأنها تعمّر أكثر وتقاوم الامواج .

واستخدمت وسائل سريعة في تفجير الصخور وردم البحر . ومنها تفجير كل خمسين عبوة ديناميت دفعة واحدة على عمق عشرة أمتار من الصخر .

وللميناء أهمية كبيرة بالنسبة الى المحافظتين الرابعة والثالثة ، فضلا عن الخامسة والسادسة في اتجاه الشرق . وشبكة الطرقات الجديدة تنتشر حاليا من المكلا في اتجاه مدينة شحر شرقا ، ووادي حضرموت شمالا ، فضلا عن طريق المكلا ـ عدن التي أنجزت بكاملها .

غير أنه لوحظ بعض التأخر في قسم من أعمال الارصفة مما اضطر الى اقامة حاجز حماية مؤقت ريثما ينتهي موسم الرياح ، وذلك لصيانة أعمال بناء حاجز الحماية الاساسي .

وعند انتهاء الميناء الجديد لن يعود هناك مشكلة مع الرياح الصيفية كما هي الحال مع ميناء المكلا في الوقت الحاضر حيث

يتم الاعتماد خلال الصيف على ميناء عدن وحده ، وهذه مشكلة بالنسبة للمحافظتين الخامسة والسادسة على صعيد النقل وأسعار المواد الغذائية وسواها .

وتعتمد وسائل حديثة في ثلاجة الاسماك التي أصبحت جاهزة للعمل ، فتستلم السمك وتفرزه وتصنفه وتحضره في غرف على نوعين : غرف تجميد (١١ طنا يوميا بحرارة أربعين الى خمس وأربعين درجة تحت الصفر) أو غرف تبريد (خمس وعشرون طنا يوميا بحرارة خمس وعشرين درجة تحت الصفر) ، فيذهب السمك المتجمد في معظمه الى التصدير الخارجي ومعظم المبرد يتجه الى الاستهلاك المحلي .

ورتبت الاقسام والالات في المبنى بحيث يسحب الماء من البحر آليا عبر أنابيب خاصة الى أمكنة التنظيف والتبريد ، في حين أن الفضلات والنفايات ترمى بصورة آلية من احدى الغرف الى شاحنات تأخذها الى الطحن أو سواه من الاستعمالات .

وفي الثلاجة « خط » آلي خاص بتصفية السردين ، وكان يفترض قيام ناحية خاصة بتحضير الشروخ والاسماك الضخمة ، لكنه ألغي لأن ثمة مجالا للتحضير في مصانع أخرى .

ويتبع الثلاجة محطة تستلم السمك في مدينة الشحر وترسله الى منطقة خلف الصناعية بواسطة الشاحنات الكبيرة المزودة بالثلاجات .

ومن الثلاجة الى مختبر الاسماك ، والى مصنع تعليب الاسماك الذي يجري تشييده بواسطة الحجارة الصغيرة المنحوتة وسوف ينتج ١٥ مليون علبة في السنة ، ويلحق به مكان لتصنيع العلب الفارغة .

في هذا المصنع ثماني غرف ، بينها أربع للسمك واثنتان للثلج واثنتان للتحضير . وتأتي الصفائح المعدنية جاهزة الى المصنع الذي يقطعها بحسب الاحجام المطلوبة ويلحمها .

لكن تشغيل هذا المصنع ، الذي يحتاج وحده الى ١٦٠٠ كيلوواط ، يرتبط بموعد تشغيل محطة الكهرباء الرئيسية .

في حين أن الثلاجة ، التي تحتاج الى ٤٤٠ كيلوواط في الوقت الحاضر ، قد زودت بمولدات كهربائية مستقلة .

ويعلق المشرفون على المشروع أهمية خاصة على تعليب السردين وتصديره .

المشروع والمدينة الصناعية الجديدة سوف يسهمان في تنمية المنطقة بصورة عامة . وكذلك في حل العديد من الازمات التي لا يزال الانسان مضطرا لمجابهتها في ظروف وعورة المواصلات وقساوة الصخور وصعوبة التعامل مع الرياح والامواج .

من قانون الأسرة الى شجون القات :
كيف تعالج العادات الاجتماعية

« نزل سفير المملكة العربية السعودية في دار الضيافة في صنعاء . وأراد ان يشتري جارية بيضاء من أحد أمراء صنعاء ليقدمها هدية الى سيده الامير ابن سعود ، وجاءني واحد من خدم دار الضيافة ونقل الي الخبر في تكتم شديد ، بل واحضر معه العقد الذي وقعوه ، والثمن الذي اتفق عليه وهو الف وثمانماية ريال ... لكن الصفقة متوقفة على الفحص الطبي الذي ساقوم به .

« واذا كانت الفتاة تكلف هذا المبلغ الكبير فلانها من الجنس الابيض ، أما الجواري الاخريات اللاتي اعرفهن فانهن من أصل افريقي .. »

(من مذكرات الطبيبة الفرنسية كلودي فايان في كتابها « كنت طبيبة في اليمن » ، الذي صدر باللغة العربية ، الطبعة الثالثة في العام ١٩٦٣ ، بيروت ، دار الطليعة) .

يكاد المرء يصاب بذهول عندما يتطلع الى ملامح الطريق الذي اجتازه الشعب اليمني في المجال الاجتماعي . وعلى الرغم

من التعتيم الذي فرض على الحياة الاجتماعية والمآسي التي كانت تحصل في اليمن ، جنوبها وشمالها ، في ظل سيطرة الاقطاع والاستعمار والائمة ، فأخبار هذه المآسي كانت تصل عن طريق الصدفة الى خارج الاسوار .

وليس بعيدا عن ذاكرة اليمنيين ، مشهد القرى والقبائل والعائلات التي تساق مثل الاغنام عندما يحل عليها غضب الامام ، أو غضب المستشار الانكليزي في بقعة معينة من الجنوب .

وليس بعيدا أيضا ، المشهد الذي تصفه الطبيبة الفرنسية كلودي فايان عن حياة أحد البيوت اليمنية ، فتقول :

« كان البيت خاليا من الرجال وما أن أحست النسوة بوصولي حتى لذن بالفرار ولكنهن رجعن بعد قليل .. انهن مخلوقات حزينة مخبولة عجزت عن استخلاص أي شيء منهن .. ويغطي عنقهن وشعرهن خرق ترفع الى ما فوق الانف عند الاحساس باقتراب أحد ، بحيث لا يترك الا ما يسمح للعين بالنظر .. وحول هذه النسوة يحبو أطفال عراة هزيلون أردافهم ملطخة بالاوساخ وعيونهم محاطة بالذباب .. وللاطفال الفقراء فترة سعيدة في حياتهم ، تلك التي تنقضي من حين يتعلمون المشي الى حين يجب عليهم العمل ، فالحرية في هذه السن تمنحهم رونقا يفقدونه في سن الرشد ، والبنات يفقدن حريتهن هذه قبل الاولاد .. »

وكانت تبدو ، في المقابل ، مشاهد القصور وحياة الائمة وكبار الامراء . فتذكر الطبيبة كيف أن الامام « يظل جالسا على الطريقة التركية حتى يستطيع القادم أن يقبِّل باطن قدميه ان كان من طبقة متواضعة .. » وكيف كانت مجالس الامام جافة ، فهم لا يدخنون تنباكا ولا يمضغون قاتا ، ولا يتكلم أحد الا اذا وجِّه اليه الامام الحديث .. وكيف أن الامام شخصيا هو يقرر اذا كان معلم في أحد الاقاليم النائية البعيدة يحتاج الى عشر محابر في مدرسته !..

وحال المرأة كانت هي الاسوأ ، لأسباب كثيرة ، وأضيفت الى التحكم الطبقي والقمع السياسي والاستعماري ضروب أخرى

من التحكم نابعة من التقاليد وبعض المعتقدات الدينية المشوهة والتعاويذ .. ولا نعجب عندما نقرأ في مذكرات لطبيبة أجنبية عن امرأة ملقاة في شوارع مدينة تعز مكبلة بالحديد لأنها خانت زوجها ، لكن العشيق أغضبه أن يرى الجميلة في السلاسل فرجم الزوج بالحجارة وهرب الى الجبل .. وبقيت الزوجة في الشارع مكبلة ، وقد مدت ساقيها وجلست تقشر الفاصولياء بكل هدوء ..

وهذا غيض من فيض ، وتضاف اليه مشاهد النساء اللواتي تحدث لهن صعوبات في المخاض والولادة فلا يكون هنالك طبيب أو أن التقاليد تمنع دخول المرأة الى عيادة طبيب ذكر ، وما الى ذلك .

ويدخل في هذه اللوحة مشهد المرأة التي كانت تضطر للانتقال من أعالي يافع أو من حضرموت ، الى المدن الساحلية أياما كاملة على الدواب بحثا عن دواء أو عيادة .

هذا عدا الامية الشديدة ولا سيما لدى النساء ، واضطرار رب العائلة لتشغيل ابنته أو لتزويجها منذ العاشرة من عمرها الى رجل لا تعرفه ولا تسمع عنه شيئا . وقد يصح وصف حالة المرأة ولا سيما المتزوجة بحالة السجينة الموضوعة في الاقامة الجبرية مع التبليغ عن تحركاتها ومع الملاحقة البوليسية « الضرورية » كما تفعل الحكومات مع المعتقلين السياسيين ، وذلك على حد تعبير جريدة « الثوري » في العام ١٩٧٦ في مقال كتبه صالح حسن ، حيث يذكر كيف أن الرجل يسمي زوجته أحيانا بأسماء غريبة ، مثل « الجماعة » أو « البيت » .. فيقول مثلا أن « البيت في السيارة » ، أو يسميها باسم ابنه أو ابنته ، حتى في الرسائل . وأحيانا يباح تبديل الزوجة مع أولادها ، وبتركها عشر سنوات أحيانا وعليها الصبر تعبيرا عن الاخلاص والحب والوفاء !

وقد يصح القول في معظم الاحيان أن الزوجين يمارسان حقهما في الحياة بصورة سرية ، في المنزل أو خارجه ، في عالم آخر مهدد بالرقابة « البوليسية » للمجتمع وتقاليده .

أو كأنما العملية تتركز في حماية نصف المجتمع من نصفه الاخر . وعندما نشأت دور للسينما أقيمت مقاعد خاصة للمرأة ومقاعد للرجل ، وكذلك في الباصات ..

وكان على الثورة أن تعمل لتحرير المرأة كجزء من عملية تحرير المجتمع . بالممارسة والتوعية والتدابير الاقتصادية والاجتماعية وانماء المناطق ، وكذلك بايجاد قوانين جديدة لحماية العائلة والمرأة والاطفال اسهاما في تحريرهم من التقاليد الاقطاعية والاستغلالية .

على هذا الاساس أصدرت الدولة « قانون الاسرة » ، اي القانون رقم واحد لعام ١٩٧٤ . فجاء قانونا ثوريا وعلميا .

المادة الثانية من القانون ذكرت أن « الزواج عقد بين رجل وامرأة متساويين في الحقوق والواجبات » . وحظر القانون الزيجات القائمة على أساس من الاستغلال والتي يذهب ضحيتها الفتيات الصغيرات أمام اغراءات المادة . فجاء في المادة التاسعة أنه لا يجوز اجراء عقد زواج فيه تفاوت في السن يتجاوز عشرين عاما .

واعتمد القانون قاعدة الزواج من امرأة واحدة والاستثناء هو التعدد ولكن ضمن شروط . وأباح للزوجة حق طلب الانفصال في حالة زواج الرجل من ثانية ، ولم يعد للرجل حق الطلاق الا بعد حكم محكمة وبعد توافر أسباب جدية(1) .

وتحرير الاسرة يرتبط أيضا بتحرير المجتمع من العادات المهترئة المتوارثة . ويكفي أن ننظر الى العلاج الطويل النفس الذي قامت به الدولة تجاه قضية الثأر بين القبائل ، وهو الثأر الذي كان يتنازع القبائل بعضها ببعض ، أو كان صراعا بين أفخاذ

(1) يمكن الاطلاع على الدراسة التي كتبها علي زين أحمد عيدروس في مجلة « الثقافة الجديدة » ، العدد ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ، ١٩٧٧ ، بعنوان « تشريعات اليمن الديمقراطية ، عرض لبعض القوانين » ، وهو يتناول عرضا لقانون تخفيض الاجور ، الصادر العام ١٩٦٨ ، وقضايا الايجارات والمساكن ، وقانون فرض الحراسة على أي مرفق اتخذت ادارته قرارا يؤدي أو قد يؤدي الى الاضرار بالعمال أو الفصل الجماعي . وكذلك قانون الاسرة وقانون الثأر وقانون الخدمة العسكرية .

وتبرز هاتان الناحيتان في مشكلة القات : الاولى ، البديل عن القات في مجال التسلية ، والثانية البديل عنه في تحصيل معيشة هؤلاء الفلاحين والمزارعين .

ويبدو أن المسؤولين في اليمن الديمقراطي اخذوا بعين الاعتبار هاتين الناحيتين ، الى هذه الدرجة أو تلك ، عندما اتخذوا تدابير متتالية بشأن هذه الزراعة وهذه « العادة » .

فقد منع بيع القات وتخزينه في المحافظات والمديريات التي لا علاقة لها بزراعته ، كالمحافظتين الخامسة والسادسة مثلا .

وسمح بهذا الاستهلاك دون قيود في مناطق زراعة القات ، ولا سيما في بعض من المحافظتين الثانية والثالثة .

أما في عدن والمحافظة الاولى فقد سمح بتخزين القات أيام الجمعة ، وأيام الخميس بعد الانتهاء من دوام العمل .

وهذه التدابير التدريجية تتخذ في اطار من المعالجة الاجتماعية والاقتصادية الشاملة .

واذا كان القات قد نسف زراعة اليمن واقتصادياتها عندما حل مكان البن والقطن ، المصدرين شبه الوحيدين للتصدير وللعملة الصعبة ، فان المسألة في الجنوب بقيت محدودة ، لاسباب تاريخية وبالنظر الى تدابير التنظيم السياسي الموحد وحكومة الثورة .

ويبدو ان الجيل الجديد في اليمن الديمقراطية لم يعد يرى في أمر القات مشكلة كبيرة . فالنظرة الان عقلانية . وفي أحيان كثيرة تكون اللقاءات على مضغ القات هي المجال الوحيد لتلاقي الاصحاب والترفيه عن المتاعب والمشاغل . وعندما يدور الحديث عن القات نفسه ، في احدى الجلسات الطويلة على البساط بين العروق الصفيرة الخضراء وزجاجات الماء البارد والمشروب ، فمعظم الحاضرين يعتبر ان القات ليس مسكرا وليس مخدرا وانما هو مفيد جدا للذهن فيعطي صفاء وجدانيا .

وقد عرض الدكتور حسن قاسم ، الاختصاصي في علم النفس الطبي في كلية الطب بجامعة عدن ، دراسة واستمارة تتناول تأثيرات القات على فئات المواطنين واعمارهم ومهنهم ،

ومدى « ادمانهم » وامكانية العدول عن مضغه ، حيث يتبين أن الاكثرية يمكنها الاقلاع عن القات ، كما تبين أن أبرز دوافع مضغه هي ، من حيث الاهمية : الفراغ ، الاجتماع بالاصدقاء ، زيادة النشاط والقدرة على الانتاج .

ويقول بعض العارفين في وصف الحالة الناتجة عن تخزين القات ، انه « لا ينقل آكله الى خيالات مفرحة وانما يبقى مأسورا داخل عقله وتحت أفكار بالغة الشدة تبدو واضحة على آكله » ، على حد تعبير الكاتب اليمني عبدالله الحبشي الذي تناول القات والقهوة في آخر فصلين من كتابه « دراسات في التراث اليمني » ، الصادر حديثا في عدن .

وللدلالة على أن القات ليس مسكرا ، يقول البعض أن الادب والشعر لم يستوحيا شفافية خاصة من خلال القات مشابهة لأشعار الخمر المعروفة في التراث العربي . وذلك لأن النشوة محدودة ، ولأن الساقي غير موجود ، والمعروف أن بعض شعراء الخمرة عند العرب كانوا يتغزلون بالساقي .

غير أن شاعرا اسمه ابراهيم بن صالح الهندي ، وقد توفي سنة ١١٠١هـ ، يصف غلاما وقد اخضرّ بعشب القات فيقول :

« أشبّهُ ثغرُهُ والقات فيه
وقد لانت لرقته القلوبُ
لآلىء قد نَبَتْنَ على عقيق
وبينهما زمرّدة تذوبُ »

وثمة من يعتبر أن في وسع اليمنيين العودة الى العناية بالقهوة وسواها من النتاجات التي اشتهرت بها اليمن عبر الاجيال . سيما وأن تراث هذه المزروعات لا يتنافى مع حاجة العالم المعاصر الاستهلاكية ، وذلك على خلاف القات الذي لا يصدّر ، باعتبار أنه ما من شعب يستهلكه ما عدا أثيوبيا واقاليم قليلة من شبه الجزيرة العربية .

هذا مع العلم بأن القهوة نفسها قد تحدرت من أصل اثيوبي .

ومما يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للشيخ علي ابن عمر الشاذلي : مر الناس أن ينبتوا شجر البن في بيوتهم ليدفع الله تعالى عنهم الفساد والخصام . فقال الشيخ علي : من أين نعرف ذلك الشجر يا رسول الله ؟ فقال : هو بأرض الحبشة . ومد يده فأخذ غصنا مورقا ومثمرا وناوله الى الشيخ .

جولة شائقة بين الأقلام والحناجر والأوتار

الصحافة والثقافة تحملان البندقية والمستقبل

« رددي ايتها الدنيا نشيدي
ردديه واعيدي واعيدي
واذكري في فرحتي كل شهيد
وامنحيه حللا من ضوء عيدي
رددي ايتها الدنيا نشيدي » .

(نشيد يمني)

اليمن ارض الخيرات والطبيعة المتنوعة . واليمن أرض الانسان الباحث عن المستقبل منذ عصور سحيقة في القدم . وهي أرض الصلابة والصمود .. لكنها أيضا ، أرض الفنون والثقافة والفكر .

هذا لا يعني ان المجتمعات اليمنية السابقة لم تكن غارقة في الامية ، وهذا لا يعني ايضا ان القسم الكبير من الشعب لم يكن عاجزا عن دخول المدرسة .

ولكن ، كلما طالت يد اليمني مجالا من مجالات الثقافة ، انطلق اليه وضحى بالغالي والرخيص في سبيله .

وقد يصح ان نختصر مسيرة اليمن الديمقراطية مع الثقافة والصحافة والفنون في العبارة التي قالها الكاتب الروسي الشهير ليون تولستوي : « الفنانون لن يكونوا على ما هم عليه اليوم ،

أي فقط تلك الصفوة المختارة من جزء صغير من الشعب ، بمعنى أبناء الطبقات الفنية أو المقربين منهم، بل كل أولئك الموهوبين من أبناء الشعب بأسره ، الذي يتضح بأنهم مؤهلون وميالون الى ممارسة النشاط الفني . عندئذ سيكون النشاط الفني متاحا للمواطنين كافة » .

والوجه الثاني من العملية ، هو كلام فلاديمير لينين عن تراث تولستوي نفسه حيث يقول ، في العام ١٩١٠ وقبل سبع سنوات من الثورة الروسية : « تولستوي فنان لا تعرفه الا قلة ضئيلة حتى في روسيا . ولكي نجعل مؤلفاته العظيمة متاحة للجميع فعلا ، يلزمنا النضال ضد نظام اجتماعي حكم على الملايين وعشرات الملايين بالعيش في النسيان والعمل الشاق والفاقة ، اننا بحاجة الى انقلاب اشتراكي » .

في اليمن الديمقراطية لا نبالغ اذا قلنا أن عدة وزارات ومؤسسات هي مختبر دائم لهذه العملية المزدوجة ، وقوامها نبش التراث اليمني وتطوير اجمل ما فيه من جهة ، وايجاد الظروف الملائمة لجعل النشاط الفني متاحا للمواطنين كافة من جهة ثانية ، فيصبح المقياس هو الموهبة والعطاء والعمل .

وبالطبع ، تبرز مشكلة النظرة الى التراث الماضي . من ناحية تبيان معالمه الحقيقية ومن حيث استيعاب وتطوير الجوانب الايجابية المفيدة وترك أو نقد الجوانب المظلمة التي تشد الانسان والوطن الى الوراء ، الى القيود والعادات المهترئة .

واذا القينا نظرة على المجموعة الكبيرة من النتاجات التي صدرت في العام ١٩٧٧ برعاية لجنة نشر الكتاب اليمني ووزارة الثقافة ولجنة احتفالات الذكرى العاشرة للاستقلال الوطني ، فاننا ندرك صعوبة المهمة . والمسؤولون يعتبرون أن تنفيق الوحدة الثقافية اليمنية هي مهمة من مهمات تحقيق وحدة الشعب اليمني . كما يعتبرون ان نهوض ثقافة يمنية تقدمية حقا ، في القصة والمسرح والاغنية والسينما والتلفزيون والاذاعة والصحافة ، هو من أصعب ما يواجه الثورة والبلاد . وبالتالي فليس مطلوبا « تجميد » النتاجات الماضية وجعلها تندثر في

انتظار قيام ما هو جديد وثوري « مئة بالمئة » . فهنالك تواصل بين القديم والجديد ، وفي ظروف التعتيم السابق والضعف الثقافي وكبت الحريات وصعوبات عمل المثقفين والفنانين رأت الوزارات والهيئات المختصة أن تصدر وبشكل سريع كل ما امكن جمعه من النتاجات الفنية في مراحل مختلفة من تاريخ البلاد ، واعطاء ذلك بالوقت الحاضر الاولية على المهمة الثانية وهي الفرز والنقد والاختيار .

هذا لا يعني عدم استعمال سلاح النقد . ولا يعني أيضا عدم التركيز على التفريق بين ما هو مفيد وما هو مسيء لتطور البلاد .

ولقد اعتبرت قيادة التنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية ان مهمة ملحة تقوم على احياء التراث اليمني القديم وجمعه وحصره ، ثم غربلته بما يخدم تطوير الحياة الروحية لجماهير الشعب . مع التشديد على جمع التراث الشعبي في ميدان الشعر ، والاستمرار في المؤتمرات التي تنعقد في المحافظات من أجل هذه الغاية ، كما تأمل القيادة أن يمتد الاهتمام بالتراث الى مجال الخرافة والاسطورة والتقاليد الاجتماعية والامثال والرقص ، وغيرها . وكذلك ، الاهتمام بطبع الكتب التاريخية والادبية اليمنية الكلاسيكية ، طباعة شعبية لتكون في متناول القارىء اليمني ، والعمل على ارساء أسس ثقافة يمنية مضيئة مرتبطة بالثقافة العربية التقدمية ، وبالثقافة الاشتراكية العالمية .

واذا كان يطلب من المثقف اليمني الثوري أن يتشبع بكل ما هو مضيء وتقدمي في ثقافة وطنه وعصره ، فالمثقف الثوري يطلب منه في الوقت نفسه أن يتشبع بحب الوطن وثقافة الوطن ويناضل بين صفوف الجماهير ويرفع من مستوى ثقافتها ، كما يطلب منه أن يتخلص من رواسب وأفكار البرجوازية الصغيرة .

وقيادة الثورة والبلاد لا تنطلق من العدم في هذه المهمة . فما من بقعة يمنية وما من فئة من فئات الشعب اليمني المنتجة والشعبية الا ولها قصص غنية في مجال استخدام الكلمة والفن

سلاحا في معارك التحرير والبناء .

واذا نظرنا الى الصحافة ودورها في الثورة ، فانه يتضح أن عشرات ومئات من الطلبة والمثقفين والمقاتلين كانوا يتحولون بفعل التجارب القاسية الى صحافيين ومرشدين لمسيرة النضال بواسطة نشرات علنية وسرية تطبع بأشكال بدائية أحيانا لتصل الى الناس نابعة من اعماق الانسان اليمني وثورته .

واثناء الثورة المسلحة كانت هنالك نشرات سرية مطبوعة على الدكتيلو أو مسحوبة على الستنسيل ، في كل مكان من اليمن المقاتلة .

« المقاومة الشعبية » في المعلا ، « الحارس » في التواهي ، « المقاومة » في الشيخ عثمان ، « التلال الملتهبة » في كريتر ، « الثوري » في عدن ، « الشرارة » في حضرموت ، « المجاهد » في الضالع ، « لسان الكادح » في لحج ، « الكادح » في ابين ..

وكانت الصحافة والمجلات الوطنية قد لعبت الدور الكبير في فترة ما قبل الكفاح المسلح . ولا شك أن جريدتي « الامل » و « المصير » كانتا من الادوات التعبوية البالغة التأثير .

وقبل ذلك حملت جريدة « الأيام » بعض الاراء الوطنية رغم ارتباطها بالسياسة البريطانية . وقد انتهت باعلان تأييدها للجبهة القومية .

وكانت جريدة « الامل » ، جريدة التيار الماركسي ، قد صدرت في منتصف عام ١٩٦٥ بصفتها جريدة علنية مؤيدة لحركة التحرير ورافعة مشعل الثورة ، وخاضت في مناقشات سياسية وفكرية مع المدافعين عن المخططات المعادية ، ومع القوى السياسية التقليدية التي كانت لها مواقع مهمة في الحركة الوطنية والنقابية . كل ما نشر على صفحات « الامل » من مقالات وتعليقات وأخبار وأدب وقصص وشعر كان مكرسا للدفاع عن الثورة وتعبئة الجماهير حولها ومقارعة خصومها والتصدي لمشاريع تزييف الارادة الشعبية .

يومها وجهت للصحيفة رسائل غير رسمية من عناصر قيادية في جبهة التحرير تطالبها بالكف عن تأييد الجبهة القومية

وتحذرها من مغبة استمرارها في هذا الموقف . وعندما فشل هذا الاسلوب من الضغط تلقت الجريدة انذارا نهائيا رسميا عن طريق البرق ، انتهى بعبارة « وقد أعذر من أنذر » . فكان من « الامل » أن نشرت برقية الانذار في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ ديسمبر ١٩٦٦ ، مع رد مطول دافعت فيه عن الجبهة القومية وحقها في الانسحاب من جبهة التحرير .

ونشرت الجريدة في نفس العدد وفي العدد التالي رسائل وبيانات تأييد لقرارات المؤتمر الثالث للجبهة القومية والقاضية بالانسحاب من جبهة التحرير .

ثم نفذت جبهة التحرير انذارها فقامت في ٣ يناير ١٩٦٧ باحراق المطبعة التي تطبع « الامل » في الشيخ عثمان ، وأعلنت ذلك من اذاعة « تعز » ، كما وجهت انذارا آخر الى جميع المطابع في عدن بعدم طباعة « الامل »(1) .

والشيء نفسه حصل مع جريدة « المصير » التي استمرت علنية وأغلقت بالقوة قبيل الاستقلال .

وفي بداية الكفاح المسلح كان هناك نشرة مركزية للجبهة القومية اسمها « النصر او الموت » ، تطبع في القاهرة وتوزع في الداخل ، وكانت نشرة شهرية في ١٢ صفحة تعتمد طباعة الاوفست ، وشعارها بندقية وعلم الجبهة القومية .

---

(1) وقد وردت تفاصيل وافية عن النشاط الصحافي والايديولوجي والجبهوي للاتحاد الشعبي الديمقراطي ـ رفاق الشهيد السلفي ـ وذلك في التقرير السياسي الذي قدمته اللجنة المركزية للاتحاد الى المؤتمر الثاني الذي عقد بين ١٨ و ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٧٥ . ويشتمل التقرير أيضا على تفاصيل الحوار الجبهوي بين فصائل العمل الوطني ، وبرامج التنظيم الماركسي تحت شعار « من أجل يمن ديمقراطي موحد » ، فضلا عن نشاط منظمته الشبابية التي تحول اسمها منذ العام ١٩٦٦ من « المنظمة المتحدة للشباب اليمني » الى « منظمة السلفي للشبيبة اليمنية الديمقراطية » تكريما وتخليدا لقائدها الذي استشهد في ذلك العام وهو الرفيق عبدالله عبدالمجيد السلفي . كما يحتوي التقرير على اقتراحات مهمة بشأن الطبقة العاملة والانجازات الثورية ووحدة اليمن ، وبرامج ثقافية من بينها تشجيع مبادرات الكادحين الثقافية وتطوير التعليم .

وعندما تقرر انفصال الجبهة القومية عن جبهة التحرير بدأت نشرات مختلفة تطبع بصورة سرية أو علنية ، في التواهي والمعلا والشيخ عثمان وكريتر وفي المحافظات الاخرى ، الى أن صدرت في آخر سنة ١٩٦٦ نشرة « الشرارة » لتكون هي النشرة المركزية للجبهة القومية . الا انه صدر منها عددان فقط . ثم صدرت باسم « الثوري » .

اول عدد من « الثوري » أشرف عليه عبدالله الخامري وجعفر علي عوض وعبدالله شرف ، وعبدالواسع قاسم . وبعد الاستقلال أصبحت « الثوري » ناطقة رسمية باسم الجبهة القومية .

على أن عبدالله الاشطل ، مندوب اليمن الديمقراطية في الامم المتحدة حاليا ، بادر الى اصدار « الشرارة » في المكلا ، اصرارا على عدم آلغاء اسم « الشرارة » وتأكيدا منه على خط الجناح اليساري .

وقد قال لنا عبدالله شرف ان جريدة « ١٤ أكتوبر » صدرت بعد ذلك ، في ١٩ يناير ١٩٦٨ ، كجريدة شبه رسمية وشبه تقليدية ، بالنظر الى ضغط الجناح اليميني في الجبهة القومية والضغوط المعاكسة . وتأسست في الوقت نفسه « مؤسسة ١٤ أكتوبر » لتشرف على العمل الصحافي وانتاج الكتب وتقيم العلاقات المتعلقة بالنشر . وكان رئيس تحرير جريدة « ١٤ أكتوبر » هو عبدالباري باسم الذي استشهد في ما بعد في حادث الطائرة الذي أودى بعدد من الديبلوماسيين اليمنيين .

وتحولت جريدة « الثوري » الى صحيفة أسبوعية ، وبقيت « ١٤ أكتوبر » تصدر يوميا .

عبر هذه الصحف برز ، كما يقول عبدالله شرف ، الصراع بين اليمين واليسار . كانت « ١٤ أكتوبر » مقتنعة بقحطان الشعبي وخطه و « رسمياته » . بينما كانت « الثوري » تتصدى للخط اليميني بمقالات صريحة ومباشرة مثل « العيون الزرق » ، و « طفح الكيل » ، الخ .

وتكررت مع « الثوري » أساليب القمع التي كانت سائدة

قبل الاستقلال . فشكلت محكمة خاصة لمحاكمة هيئة التحرير ، فحوكمت بحضور أعضاء من اللجنة المركزية وتقرر ابعاد هيئة التحرير وتجميد أعضائها من عضوية التنظيم السياسي . وكان ذلك بعد ثلاثة أعداد فقط من صدور « الثوري » ، في يناير ١٩٦٨ .

عندها قامت ردود فعل سياسية وحزبية للقرار . ويضيف عبدالله شرف ، وهو حاليا رئيس تحرير « ١٤ أكتوبر » ، أنه لم تعد القضية هي محاكمة افتتاحية لجريدة معينة ، بل هي محاكمة الثورة والخط التقدمي . وكان قحطان الشعبي يركز على نشرات وكتيبات خاصة كما يستخدم الاذاعة والتلفزيون بكثافة في تمجيد خطواته وكيل المدائح لجماعته . آنذاك أجرينا مقابلة مع عبدالفتاح اسماعيل في « ١٤ أكتوبر » بصفته وزيرا للاعلام والثقافة ، حول مهام الاعلام الوطني ، وقد أثارت المقابلة جدلا عنيفا مع الرئيس قحطان الشعبي وكان ذلك من جملة أسباب عديدة جعلت عبدالفتاح يستقيل من وزارة الاعلام .

كما أن جهاز الموظفين في وزارة الاعلام كان في معظمه باقيا من عهد الاستعمار . فاتخذ عبدالفتاح اسماعيل قرارات تطهير في وزارته ، فاعترض رئيس الجمهورية . فازدادت حدة الصراع . وحل مكان الوزير عبدالفتاح اسماعيل شخص من جماعة قحطان اسمه عبدالله عقبة .

وكلام عبدالله شرف عن قحطان الشعبي يبدو قريبا جدا من المشاهد والتصرفات التي رأيناها مع سالم ربيع علي بعد ذلك بسنوات عديدة . فهي تتناول الامراض الثلاثة المشتركة بين قحطان و « ربيع » ، وهي : رفض القيادة الجماعية ، والتشبث بجهاز المناصرين التقليديين أو القبليين ، والقفز فوق المهمات الكفيلة بايجاد جهاز دولة منسجم وعصري وثوري فعلا .

الصراع الاعلامي والثقافي كان على كل حال مرآة للصراع الدائر بشأن مصير الثورة وتوجهات ما بعد الاستقلال . على أن الصحافة لعبت دورا أقوى من دور الاذاعة والتلفزيون في

سنة ١٩٦٧ ــ ١٩٦٩ في مجال الصراع مع اليمين وذلك لسببين : التقاليد الكفاحية للصحافة ، وكون معظم المتواجدين في صحف ما بعد الاستقلال هم من العناصر التقدمية أو من الشباب الجدد ، في حين أن العناصر القديمة والتقليدية كان لها نفوذها المهيمن على صعيد الاذاعة والتلفزيون وكان قحطان يعطي هذه العناصر نفوذا مميزا ، خصوصا لأنه كان يحب كثيرا الظهور على الشاشة الصغيرة .

وبعد حركة ٢٢ يونيو التصحيحية تولى عبدالله الخامري وزارة الاعلام وبدأت عملية التخطيط الاعلامي والاستفادة من العناصر الجيدة والطاقات الاعلامية والفنية والادبية في هيئات الاعلام وتطهير المؤسسات من العناصر الفاسدة . وعقدت الاتفاقيات مع الدول الاشتراكية وعدة دول عربية وأجنبية في مجال التنسيق واعداد الكادرات الجديدة .

هذا الاصلاح ادى الى انطلاقة ترتدي أهمية خاصة بالنظر الى وجود التباعد بين أنحاء المحافظات والمديريات وضرورة تطوير الاجهزة الاعلامية لتكون رابطا أساسيا بين المواطنين ، ومن جهة ثانية من حيث أهمية تعميم المبادرات واشراك الشعب في المناقشة الديمقراطية على صفحات الصحف وفي الاذاعة والتلفزيون والمسرح والندوات ، وهناك على صعيد ثالث أهمية أجهزة الاعلام في نشر الاغاني والفنون الشعبية الوطنية والتقدمية الصادرة في اليمن وفي الوطن العربي كله ، وقد أصبحت اغاني واناشيد « المحضار » مثلا جزءا من الحياة اليومية بفضل انتشار أجهزة الاعلام . وهناك ، على صعيد رابع ، الدور الذي تقوم به هذه الهيئات بالنسبة الى مجابهة الحرب النفسية والاعلامية التي تشنها أجهزة الاعلام والمخابرات الرجعية والصهيونية والاميركية ضد اليمن الديمقراطية .

وقد قال لنا وزير الاعلام ومسؤولو الوزارة أن تدابير مهمة يجري التفكير بتنفيذها لأجل توسيع انتشار الصحف وتوسيع اطار وقوة البث الاذاعي بحيث تشمل مجموع أراضي الوطن والدول المجاورة على الاقل . وهناك برامج لتحسين

الطباعة والمستوى الفني والاداري للصحف والنشرات والمطبوعات، ولا سيما جريدة « ١٤ أكتوبر » التي أصبحت سلاحا يوميا للمواطنين ورابطا يوميا بين القطاعات والفعاليات والمبادرات ، وان كانت لا تزال امكانياتها محدودة . وثمة برنامج لتحسين وتطوير جرائد المناطق والاذاعات المحلية التي تستقطب في بعض المناطق عددا وافرا من أصحاب الطاقات الفنية والاعلامية ومن الشباب المتحمسين .

اذن ، العملية تستمر بنجاح نسبي ، وقوامها وضع جميع الطاقات في خدمة تحرر الشعب وتحسين مستواه وجعله يشترك على وجه ديمقراطي في تقرير وتنفيذ مهمات الحاضر والمستقبل . هذا الاشتراك يتم ، بالممارسة اليومية ، بالكلمة ، بالمسرحية ، بالكتاب ، بالشريط أو الفيلم ، كما يتم باطلاق الحملات والمبادرات ذات الصفة العربية والعالمية . والمسرح لم يظل بعيدا عن الساحة النضالية ، وقد أصبح المسرح الوطني ، التابع لوزارة الثقافة والسياحة ، محطاً لآمال كثيرة وان كان حتى الان طري العود . وهو سيكمل تقاليد المسارح الشعبية ومسارح المناطق التي قامت منذ الاربعينات .

واليمن الديمقراطي هو في هذه الايام أرض لأوسع المبادرات في هذه الحقول مجتمعة . واذا كانت الصحافة قد نزلت المعترك منذ أيام الاستعمار البريطاني فالشعر نزل أيضا ، والرقص الشعبي تحول هو بالذات في بعض المناطق الى سلاح للثورة . كما دخلت القصة والقصة القصيرة المعترك ، معبرة عن اعماق مشاكل الشعب اليمني ومآسيه التاريخية والاجتماعية ، وعن احاسيس الاجيال الجديدة وتطلعاتها .

واذا ذكرنا شعراء وفنانين لاقوا الاضطهاد وتحولوا الى شعلات للنضال الوطني ، أمثال محمد محمود الزبيري ، وهو شاعر من صنعاء قاد حركة مسلحة ضد الامام يحيى في الاربعينات تحت شعار « الامامة الدستورية » والحريات الاقتصادية ، فاننا نذكر أيضا كيف كانت سلطات الاستعمار تلاحق في أعالي الجبال وعند أقاصي الشواطىء كل انشودة وكل أغنية فيها شيء من

الاصالة ومن الروح اليمنية النابعة من صميم الواقع المتفجر .

في كل مدينة او منطقة تزورها تجد ان شبابا من شبابها حاولوا أن يقدموا شيئا فنيا فقمعوا او لوحقوا او لم تتح لهم الامكانيات بسبب الظروف القمعية والتقاليد المتخلفة .

المغني محمد سعد عبدالله ، مثلا ، من أبناء المحافظة الاولى ، كان مناضلا ضد الاستعمار وكان ينشر أغنياته الوطنية أو الاغنيات ذات الحس الانساني ، بصورة تقرب من العمل السري ضد الاستعمار . وكان الشاعر الذي يضع كلمات اغنياته مجهولا في معظم الاحيان .

وبرز شعراء وملحنون وفنانون آخرون ، امثال أحمد قاسم ، ممن اتخذت اغنياتهم طابعا عربيا شاملا . احمد قاسم هو من الشمال . وهو مطرب ذو شعبية كبيرة في الجنوب ، درس الموسيقى في المعهد العالي للموسيقى في مصر ، ثم تابع دراسته العليا في فرنسا .

وبرزت أشعار الشعراء اليمنيين على المسرح وفي التلفزيون ، بفضل جهود الملحنين الهواة والمحترفين . سواء كانت من ابيات الشعر الحديث ، أم كانت تعتمد اسلوب الخمسينات .

وانتشرت على الصعيد الشعبي اشعار فخري عبدالرحمن ، وزكي بركات ، وعبدالرحيم سلام ، وعبدالله سلام ناجي ، وفريد بركات ، وعبدالعزيز المقالح من الشمال . والمواطنون يستسيغون هذا النوع أو ذاك الا انهم يستمعون باهتمام الى مجمل الشعراء الناجحين ومنهم الشعراء الذين اسسوا المدارس الادبية والشعرية قبل الثورة واستمروا في عملهم من دون شعور بالملل . وقد امتزج الشعر بالارجوزة في عدة فترات ماضية من التراث اليمني . وامتزج بالقصص البدوية الحلوة في أماكن عديدة . كما تحول الى اشكال مسرحية حديثة ومنها بوادر المسرح الغنائي على يد « المحضار » .

وقد لا نتمكن من ذكر العديد من المؤلفات التي لحنت . الا أننا نذكر ، مثلا ، أوبريت « الشموع العشر » ، التي قدمها الشاعر والاديب حسين أبو بكر المحضار في الذكرى العاشرة للاستقلال

الوطني على مسرح معرض المعارض ، كما نذكر قصيدة فريد بركات « الوصية » ، التي لحنت واصبحت بمثابة نشيد للثورة اليمنية ، وهي تتحدث عن الشهيد السلفي .

أوبريت « الشموع العشر » أحدثت ارتياحا على الصعيدين الشعبي والفني ، بالنظر الى ربطها بين الاسلوب الجماهيري وبين النكهة الفنية العالية .

والمسرحية تبدأ عندما تطلق « اليمن » نداءها الى الجيل الجديد .

ايا ولاد .. مَنْ هذا المنادي ؟
صوت مؤثر في الفؤادِ .
انا الام التي أفنيت زادي
وانتم وينكم عني بعادي ؟

فيرد الكورس :
على رغم العدا تحيا بلادي .

فتقول اليمن :
انا يَمن الحضارات القديمة
انا درّة في الدنيا يتيمة
انا من قمت انا ما عرف هزيمة(٢)
قهرت الظلم وقهرت الاعادي

الكورس : على رغم العدا تحيا بلادي .

ثم تردد « اليمن » لوحات وامثلة من تاريخها الطويل ، عن مآثر مدينة سبأ وعن مدينة معين وعن حضارة حمير وهمدان ، وغيرها وغيرها ، وصولا الى صمودها بوجه الاستعمار البريطاني عندما مد يده الخبيثة ، وعن دور السلاطين الذين لم يساعدوها في استعادة شرفها .. الى أن تطلق كلمات الممثلين قصة الثورة :

« بدأنا من جبل ردفان الاعلى
وقد رجّع صداها في المعلا
وفي لودر.وعرمة والمكلا
وفي سيحوت عند ابن زياد » .

(٢) اي انني من يوم قمت الى الدنيا لم انهزم .

وينطلق صوت المجموع ، ويردد صداه الجيل الجديد في اليمن كله :

« سمعنا صوتك الداوي سمعنا
وبعد النصر لعندك رجعنا
وهذا القايد التنظيم معنا
في الثورة له الدور القيادي » .

وقد كانت لنا جلسة طويلة ولطيفة مع المحضار ، في مدينته « الشحر » ، في المحافظة الخامسة . وكانت لنا جولة ، من خلال احاديثه واغانيه ، مع جانب مدهش من جوانب الحضارة العريقة التي تتمتع بها اليمن ولا سيما في المحافظة الخامسة .

والجولة مزيج من الواقع والاسطورة . سيما ونحن في مدينة الشحر التي قاومت الغزاة وقراصنة البحر منذ القرون الوسطى ، والتي يحكي صيادوها كما يحكي تمثال الحرية في ساحتها الرئيسية قصة شهدائها الذين قاوموا البرتغاليين .

يقول المحضار عن نفسه انه كان هاويا للشعر والغناء منذ الثانية عشرة من عمره . وبصفته طفلا كان في امكانه الدخول الى اماكن الحريم ، والاصغاء الى النساء وهن ينشدن . وكان رجل يقولون له سعيد مرجان يدخل على النساء لأنه أعمى ، وينشد بعض الاغنيات .

كان « المحضار » يصغي فيشعر بأن اغنيات هؤلاء النسوة تصدر من اعماق نفسه بالذات . وصار احيانا يقول شعرا ويغني في المجالس . ولم يكن يعرف ان ما يقوله هو شعر .

وهو يقول أن الاغاني البدوية القديمة على نوعين ، نوع منها قروي منتشر بين العمال والفلاحين ايضا ، والنوع الثاني مقتصر على البادية . وكانت هناك أغاني « الدان الحضرمي » ، ورقصات شعبية ولا سيما « الشبواني » و « العدة » ، وهما رقصتان خاصتان بالرجال ، ورقصة أخرى اسمها « الدحيفة » تدخل فيها المراة أيضا ، وهي متنوعة وتشمل عدة صفوف من الراقصين وراقصة أو اثنتين بصورة افرادية . وبرزت

رقصة « الهبيش » الشبيهة بالدبكة اللبنانية . ويتداخل الشعر مع هذه الرقصات ، فيجتمع الصيادون المنهمكون في قصص البحر ويغني مطرب او اثنان ، ثم ينشد شاعر او أكثر بعض الاشعار . بعدها تغني المجموعة « المقسوم » ، فيقول كل فريق شطرا من البيت لمدة نصف ساعة ثم يستأنف الغناء والرقص .

بعض الاغنيات والايقاعات كانت تنشد للمطر وللسماء ، وللخيرات الوفيرة في شباك الصيادين . وعندما يجدون ان البحر لا صيد فيه يقيمون رقصة اسمها « سوبان ، سوبان » .

و « سوبان » هو اله البحر . ينشدون له حتى يعطيهم الخيرات ويمنع عنهم العواصف الخطرة . فيرقصون ويحملون بأيديهم المجاذيف . وتجتمع البلدة كلها للتفرج وللرقص مع الصيادين الذين يبتهلون للاله .

هذه الاحتفالات طرا عليها بعض التبدل بعد الاسلام . اصبحوا بعد الرقص والانشاد يتوجهون لزيارة أضرحة الاولياء . لكن كلمة « سوبان » بقيت في الاغاني والرقصات . وعندما يبنى بيت ويوضع الجسر في السقف ، فمعنى ذلك إنه يجب أن تذبح اغنام استكمالا للقرابين . ودرجت عادة ذبح الغنم أمام العروسة بعد مراسم العرس ، فيقال : « لازم ما تدخل سدة الدرج الا بعد الذبح » . فيأخذون دما من الذبيحة ويضعونه في ورقة من شجر « السدر » ويمسحون به رأس العروسة وأذنها .

ويضيف المحضار أن الشعراء في البادية كانوا يلقون التكريم حتى عند خصومهم . وكان أحد الشعراء يحول هزائم باديته الى نصر سياسي . ومع بداية الثورة بدأت الاغاني والرقصات تتحول . الخير والازدهار لم يعودا يأتيان من اله البحر وانما سيأتيان حتما من فوهة البندقية .

ويصل الشاعر الى وصف سهراته مع أبناء البادية فهناك تبدو الامور أكثر قربا الى العفوية . والنساء يرحبن به سواء كنا سافرات أو شبه متعجبات أو متحجبات . كما يرقصن معه ، وهو يقول ان المراة البدوية اكثر تحررا من المراة في المدينة أو القرية . فقد حررها العمل . تقوم في الصباح الباكر وترتب

اوضاع الاغنام وترسل زوجها الى شغله وأولادها الى الرعي ..
حياة العائلة البدوية كلها حركة وهي قليلة القيود . والتزمّت الديني عندهم اقل . لكن بعض التقاليد السيئة تشدهم حتى الان .

وفي الحديث عن المرأة فالمحضار يشكو من قلة صاحبات الاصوات الجيدة في الغناء ، ويقول أن البنت اذا غنت فغالبا ما تقول لها أمها : اسكتي .. بكرا بيقولوا عنك كذا وكذا ..

لكن المحضار متفائل في الاجراءات والمبادرات التي يقوم بها اتحاد الموسيقيين من جهة ، ووزارة التربية ومعهد البحوث التربوية من جهة ثانية ، في اطلاق المزيد من المواهب المكبوتة الضائعة . ومنها التفتيش عن المدرسين الذين عندهم ميول موسيقية واجراء دورة موسيقية تأهيلية لهم خلال الصيف ليبدأوا التدريس الموسيقي في المدارس شتاء .

ونترك المحضار وقصصه اللحوة وتجاربه القيمة ، وخصوصا تجربته في اختيار الفرق الفنية من الجيل الجديد ، ونتوجه الى مركز يحتل اهمية طليعية في تنمية المواهب الموسيقية والفنية . نلتقي بمدير المعهد الموسيقي ، الفنان جميل غانم ، ونطلع على جهود المعهد الذي يعمل في اطار وزارة الثقافة ، والذي أصبحت الدول العربية مدركة لأعمال فرقته الفنية .

فلقد انشأت وزارة الثقافة ومعهد الفنون الجميلة فرقة موسيقية تقوم بنشاطات متعددة . أفرادها كان بعضهم يعزف « بالسليقة » ، وعندما افتتح معهد الفنون الجميلة في العام ١٩٧٤ دخله حوالي خمسين تلميذا ، وقام بالتدريس فيه تسعة مدرسين سوفيات وأربعة مصريين وثلاثة يمنيين .

ويدرس حاليا في المعهد أعضاء فرقة وزارة الثقافة للرقص الشعبي . وهناك فرع للمسرح ، وفرقة مستقلة للمسرح .

ويحاول المسؤولون عن المعهد أن يستفيدوا من التراث الموسيقي والفني ويطوروا الحس الموسيقي لدى الشبيبة ولدى الاطفال ، عن طريق اسهامهم في تقديم المشورة والاختصاصيين الى وزارة التربية بالنسبة الى تدريس الموسيقى في المدارس .

ويقوم تنسيق بين الهيئات المسؤولة وبين المنظمات الجماهيرية

ولا سيما اتحاد الشباب الديمقراطي (اشيد) الذي أسس في العام ١٩٧٦ « جمعية الادباء الشباب » . ويقول مؤسسو الجمعية ان آفاقا رحبة تفتح أمام هذه الجمعية ، بدعم من اتحاد الشباب الديمقراطي الذي ركز في المؤتمر الثاني على الاهتمام بمواهب الشباب وابداعاتهم . ومن أعضاء الجمفية ، الشاعر الشاب شوقي شفيق ، وهو من العناصر التي يؤمل منها الكثير اذا استمرت على هذا التطور المطرد .

والاتجاه حاليا يقضي بالحفاظ على الالات الموسيقية الشعبية من جهة ، والاهتمام بالتطور العصري للالات والتكنيك من جهة ثانية .

ويتذكر الفنان خليل محمد خليل ، وهو أول من أوجد اغنية عدنية مستقلة ، كيف أن الاغنية الشعبية تأثرت من جهة بأغاني الاقاليم التي اعتمدت أحيانا على التكرار وعلى الاندماج بالقصيدة فيغلب الطابع الشعري على الموسيقى ، كما تأثرت بالغناء الهندي والاغاني الافلام المصرية . واعتمدت الاغاني الشعبية ، حتى الخمسينات ، على العود السمعاني أو المزمار . اما اغاني الصيادين وأغاني النجارين في عدن ، فكانت في الماضي ذات اصالة « بحرية » ممزوجة بنفحة هندية . ويتذكر خليل محمد خليل تلك المواويل التي كان النوتية ينشدونها ، ومنها :

« يا مركب الميل
أبو دقلين(٣)
يا ريتني كنت ربانا
بدور بك البر والبحرين
خايف عليك تنسانا » .

ويلتقي البحارة والتجار في ميناء عدن وميناء المكلا . وتأتي معهم اغانيهم وتتلاقى .

ومن هذه الاغاني الشعبية ما هو وافد من اقاليم اليمن ومناطقها . ومنها هذه الاغنية اليافعية حيث يبرز اسم الفنان يحيى عمر :

---

(٣) أي : أبو صاريتين

يحيى عمر قال : بالله يـا هنود
قولولنا بنت من دي الهندية
هي من الهند وللا من سنود(٤)
تفهم رطين العرب بالهندية(٥) .

وعندما تتلاقى اللغات واللهجات والتقاليد والفنون ، كـان ينشأ في عـدن لون جديد ، يمني ، يـأخذ شيئا من لحج وشيئا من يافع وشيئا من الحضارمة .. ويستفيد أيضا مـن المواويل البحرية وأغـاني الصيادين .

وكمـا وجدنـا في « الشحر » مـن تناغم وتصارع بـين الصيادين واله البحر ، وجدنـا منه في حياة صيادي عدن أمثلة على شيء من السحر والاسطورة .

كان الصيادون في « السد » يقيمون حفلات ارضاء لهـذا الاله الذي كانوا يتصورونه حوتـا كبيرا ، فيذهبون في مواسـم معينة الى البحر ويرمون اليه مـا لديهـم من تمر ومـن لحوم الكبش ، فيأخـذ الحوت هذه « القرابين » ويأكلها ويرحل عنهم تاركا لهم حرية الاصطياد بهدوء . ويقيم عندها الصيادون حلقات الرقص داخل السفينة ويعزفون على الطبل والمزمار وسط تصفيق البحـارة .

وحوت « العنبر » هو حوت كبير ، اشـد بأسا مـن سمك القرش ، وتقترب هذه الحيتان من السواحل في أيـام معينة من السنة . ولا يرحل خطرها الا لـدى القاء بعض الاغنام حية في البحر بمثابة ضحايـا .

التقاليد تتغـير . لكـن اصالـة الشعب وارتباطه بالعمل والكـدح ، لـم يتغيرا . وتحولت أشعـار رواد الشعر اليمني المعـاصر الى أمواج من الالحان الممزوجة بالثورة .

الشاعر لطفي جعفر أمـان ، الذي توفي في السبعينات عـن أربع وأربعين عاما فقط ، بـرز بصفته زعيم تيار رومانسي فـي اليمن . وهو يتحـدث عن الوطـن العربي في ديوانـه « ليل الى

(٤) أي : بلاد السند .
(٥) رطين العرب ، معناها اللهجة أو اللغة العربية المحكية .

متى ؟ » وعن اليمن وآلامها وآمـالها في الديـوانين « كانت لنا أيـام » و « الـدرب الاخر » . ويتحسس أعمـاق القضية الفلسطينية في ديوانه « اليكم يـا أخوتي » .

وتحفل قصائد ادريس حنبلة بالقيم الوطنية والدفـاع عن الوطن ضد الاستعمـار . ولـه قصائـد عاطفية مع مسحة مـن التصوف .

وقـد برز أيضا محمـد سعيد جرادة ، في أشعـار وطنية واجتمـاعية مختلفة . وهناك شعراء معـاصرون ممن اعتمـدوا الاسلوب الحديث قـد أصبحت لهـم شهرة واسعة فضلا عـن دورهم في المجـال الثقافي والسياسي . ومنهم زكي بركات وفريد بركات ، وذو يزن ، وعبدالرحمن فخري . وهم يطورون الكثير من الجوانب المضيئة لـدى شعراء اليمن الكبار الذين تجسـدت في أبياتهم وحـدة اليمن ووحدة الانسانية المنتصرة على أعدائها ، ولا سيما « البردوني » ، وهو من الشمال ، وقـد أصبحت أشعاره في العالم العربي كله ، ولا سيمـا ديوانـه « لعيني أم بلقيس » والديوان الاخر « مدينة الغـد » .

وقد كتب الشاعر البارز عبدالعزيز المقالح عـن البردوني في كتابه « الشعر اليمني » ، ونـال درجة ماجستير في القاهرة بعـد أطروحة مهمة قدمها . ثم طرد من القاهرة كما هو معلوم .

ومـن شواطىء الجنوب الى الجلسـات الفنية الحلوة فـي الشمال ، حيث يصف هذا المطلع الشعبي اليمني جلسة القـات (المقيال ، ومعناها المجلس الـذي يجتمع فيه الاصدقـاء لمضغ القات) ، فيقول :

« بالله عني يـا شمس لا تغيبي
تانـزيد المقيـال أنـا وحبيبي »

وفي الشمال لا بد من ذكر الشاعر الحديث حسن اللوزي ، والشاعر عبدالرحيم سلام ، وكذلك الشاعر عبدالله سلام نـاجي وهو أقرب الى أسلوب الاعمـدة الشعرية .

ولـم يقتصر نشاط فنانـي اليمن وأدبـائها على اليمن . يكفي أن نذكر المشاركة اليمنية في احياء العديد من المهرجانـات

والمناسبات المهمة في جميع أنحاء العالم ، وكان آخرها المهرجان العالمي للشباب والطلاب الذي عقد في هافانا في صيف ١٩٧٨ .
كما نذكر أن بعثة من وزارة الثقافة والسياحة في اليمن الديمقراطية قد أجرت مسحا ميدانيا للفنون الشعبية والموسيقى في جميع أنحاء دولة الامارات العربية المتحدة ، بدعوة من وزارة الثقافة والاعلام فيها . وساعدت بعثة في بعث التراث الموسيقي والفني الموحد في دولة الامارات ، وفي تأسيس فرقة للفنون الشعبية تمثل مجموع الامارات .

وبالطبع ، فأحاديث الشعراء والفنانين لا تنتهي . وآمال الاجيال الجديدة ومواهبها هي أيضا من غير حدود . وتزداد حاجة الشعب اليمني الى الاصوات الجذابة والجريئة والى الالحان والكتابات والاعمال المسرحية المتجددة ، تزداد حاجته ايضا الى الرقصات الشعبية والاناشيد ، فكلها أسلحة في بناء صرح المستقبل الجميل والمتجدد ، وكلها أسلحة في مطاردة « الحيتان الكبيرة » التي تحيط اليوم باليمن الديمقراطية من أكثر من جانب .

الفارق هو أن الصيادين والكادحين والشباب لم يعودوا مضطرين ، بعد تجاربهم وانتصاراتهم الكبيرة ، الى القاء الاغنام في البحر ترضية للحوت ـ الاله ـ . أصبحوا يوجهون اليه بنادقهم وخناجرهم القوية .

انه التغيير الذي صنعته وتصنعه الثورة . انه « الانقلاب الاشتراكي » الذي تحدث عنه لينين والذي من دونه ما كان بامكان الشعب بجماهيره المسحوقة أن يعيش ويعمل ويتذوق الفنون ويقرأ التاريخ .

انه التغيير الثوري ، السياسي ـ الاقتصادي ـ الاجتماعي ، الذي يفتح الطريق أمام الموهوبين من أبناء الشعب بأسره ، فيكون الفن والادب والصحافة والفكر ملكا للمواطنين كافة ، على حد تعبير ليون تولستوي .

تعالوا معنا الى حضرموت في زيارة تستغرق عشرة آلاف سنة

« هبّ النسيمُ فبثّ كالحيرانِ
شوقا الى الاهلين والجيرانِ
ما مصر ما بغداد ما طبرية
كمدينة قد حفها نهرانِ
خدد لها شامٌ وحب مشرق
والتعكر السامي الرفيع يمانِ »

(الشاعر اليمني عبدالله بن يعلى ، ممتدحا مدينة « جبلة » بعد أن بنى فيها المكرم بن علي الصليحي ، زوج الملكة أروى ، « دار العز » ، في أيام الامبراطورية الرومانية) .

كان حلما تاريخيا أن نزور حضرموت . حضرموت الحالية ، المقتصرة على المسافة من المصينعة الى ميفع ، وحضرموت التاريخية وكان قوامها المنطقة الممتدة من ميفع حتى عمان ، والتي يقال أن أعرق حضارة في العالم على الاطلاق كانت فيها ، ولا سيما في مملكة السبأ ومدينة شبام ومدينة تريم فضلا عن شبوة .
حضرموت التي تشع ، بتاريخها الماثل أمامنا وذكرياتها الممتدة من مدينة المكلا عند الشاطىء الى حدود الربع الخالي ..
وحضرموت التي روى الامام العالم القزويني عن أحد رجالها انه

« وجدنا بها فخارا فيه سنبلة حنطة وامتلأ الظرف منها ، وزناها كانت منا ، وكل حبة منها كبيضة دجاجة » !

حضرموت التي ذكر في كتب الاقدمين أن بها القصر المشيد الذي ذكره الله في القرآن الكريم ، بناه رجل اسمه صد" ابن عاد عندما رأى ما نزل بقوم « عاد » من الريح العقيم ، فشيد قصرا لا يكون للريح عليه سلطان من شدة أحكامه ، وانتقل اليه هو وأهله وكان له من القوة ما كان ، يأخذ الشجرة فيقلعها بعروقها من الارض !..

حضرموت التي كانت قوافلها ، قوافل سبأ الشهيرة ، تمخر اقاصي المشرق والمغرب قبل سقوط الامبراطورية المصرية حوالي منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، فتتردد القوافل على أسواق أشور وبابل وآسيا الصغرى وأعالي الحجاز ، وكانت تنتقل الى عدن ومنها الى أسواق الشام فتلتقي بطرق فرعية آتية من الاسواق الداخلية ومن عواصم الجنوب العربي ثم تتفرع الطرقات الى البصرة وغزة وفلسطين ، بعد أن تعرج الطريق على أماكن المياه حيث ينزل التجار وتستريح قوافلهم بعض الوقت ، وتنتشر معهم الاشعار والاخبار .. ومعظم هذه الطرقات شقوها في الصخر ، ومنها طريق بين وادي بيحان وحريب طولها حوالي ثلاثة اميال وكانت جوانبها التي يزيد علوها في بعض الاماكن عن الف قدم ، تنحني في انحناءات خطرة على غرار شرفات .. وتوضع لها جدران واطئة للوقاية من الجهة الخارجية . أما عرض الممر فيتراوح ما بين خمسة عشر واثني عشر قدما ، وقد عبدت طريق القوافل هذه بقطع من الحجارة الصغيرة ، بعضها على شكل درجات في الاماكن الشديدة الانحدار(1) .

ويقول المؤرخون أن الطرقات والانفاق شقت بابسط الادوات البدائية . وقد عثر على نقش بالمسند يتحدث عن

(1) يراجع كتاب « أضواء على تاريخ اليمن البحري » ، المذكور آنفا ، وكذلك كتاب قديم اسمه « كنوز مدينة بلقيس » ، وقد عرب مؤخرا . ويمكن أيضا قراءة كتاب الافغاني « أسواق العرب في الجاهلية والاسلام » وكتاب الدكتور جواد علي « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » ، وغيرها من الكتابات القديمة والجديدة .

الممر المذكور ، وكانت القوافل التجارية تستقبل بالطبول والتصفيق لدى عودتها الى قريش أو الى الموانىء العربية . وكان السبئيون يتاجرون بالبخور والطيوب وهي تضاهي الذهب في قيمتها آنذاك .

وتقع شبوة ، وهي جزء من حضرموت القديمة ، في المحافظة الرابعة حاليا . أما ميفع والشحر فهما في المحافظة الخامسة ، عند الشاطىء ، وهنالك العواصم الحضرمية الاخرى ولا سيما تريم وشبام ، فهي تقع في وادي حضرموت بالذات ، على مسافة من مدينة سيون العريقة وهي العاصمة الحالية لهذا الوادي اذا صح التعبير .

وقبل أن نصعد في الطريق اللولبية الوعرة عبر التلال الشاهقة التي توصلنا الى « الوادي » ، نتجول في مدينة المكلا النابضة بالحيوية والمتجمعة حول نفسها والمتداخلة مع امواج البحر ، نتجول بين أبنيتها القديمة العالية ومآذنها الجميلة ، وبين اهلها الذين يتجمعون منذ الخامسة بعد الظهر في الشارعين الرئيسيين للمدينة في جو شعبي قلما وجدناه في مدينة عربية أخرى . وندخل الى أحد هذه الابنية العالية ، المشيدة من الطين الترابي ، ونلتقي في جلسة « عربية » مع الاستاذ محمد عبدالقادر بامطرف . ويحملنا المؤرخ الشهير الى عوالم التراث الحضرمي ، والى الصراعات التي حفلت بها هذه المنطقة في القرن الماضي والقرن الحالي ولا سيما بين سلطنة « القعيطي » وسلطنة « الكثير » ، وكيف جاء عوض بن عمر ، وهو من أهم سلاطين القعيطي ، وصنع قصره الشهير المطل على المدينة ، ثم امتد حكمه الى الساحل . وقد جاء القعيطيون من يافع وسكنوا في اللحروم واشتهروا بالهجرة أيام الحروب الاسلامية ، ولا سيما الى الهند وحيدر آباد . وارتبطت بهذه الهجرات ثقافة المنطقة وتقاليدها ، كما أن الصراع المحلي انتقل الى الهند حتى أن أحد أولاد القعيطي ذهب مرة الى الهند وحيدر آباد وحشد حوالي ألفي مقاتل من الجالية العربية وحاول القيام بانقلاب على النظام الهندي وذلك في منتصف القرن التاسع عشر ! أما

سلاطين « الكتير » فأولهم هو منصور بن عمر الكتيري وكان حاكم شبام وهو مولود من أم أندونيسية وكان يريد ابادة جماعة يافع فأقام تحالفا دفاعيا ضدهم .

ويضيف الاستاذ بامطرف ان سلاطين القعيطي عاشوا على نمط هندي في ملابسهم وتقاليدهم وجمعوا في قصر المكلا أجمل التحف والتزيينات .. لكنهم لم ينشروا الافكار الهندية بين الناس لانها لا تفيدهم ولأن فيها نزوعا الى الخير والتصوف .

وفي سنة ١٩٤٠ أقام الانكليز « جيش البادية الحضرمي » لفض النزاع بين القبائل البدوية ، ولأجل الهاء العناصر الشابة والناقمة حتى لا تفكر بالثورة على الاقطاع وعلى الوجود الاستعماري .

وكانت قد عقدت مع الانكليز معاهدة استشارة ، وأبقي على السلطانين ، القعيطي والكثيري ، وكانت نصائح « حكومة جلالة الملكة » تسمع في كل شيء . والقصر الكبير الموجود حتى الان في داخل المدينة كان مقرا للسلطان ومركزا للدوائر الرسمية حيث كان القرار الحقيقي للمستشارين الانكليز .

الشروط التي كان السلاطين يضعونها على الانكليز كانت « غير مكلفة » . ومنها ، مثلا ، القبول بابنه الفلاني وليس بابنه من زوجة أخرى ، ولياً للعهد .

ولكن ، يضيف بامطرف ، كانت هناك في المنطقة قوى كبيرة ناقمة لا يحيط بها لا الانكليز ولا السلاطين . وقامت حركة سياسية متأرجحة أحيانا بين استخدام المجابهة المباشرة وبين التعامل « الواقعي » مع السلطة المبعثرة .

وكان ثمة صحف تتكلم بصراحة ، ومنها « الطليعة » والى حد ما ، « الراي العام » ، وجريدة « الجماهير » التي حرر فيها عدد من الشباب البعثيين بأقلامهم الجريئة .

أما الحركة الادبية والاجتماعية فكانت قوية في المنطقة ، وفي بلاد الهجرة . وفي سنة ١٩٠٥ بدات « حركة الارشاد » في جاوا حيث كان يسكن كثير من العلويين . ولعبت هذه الحركة دورا في المناقشات المرتبطة بالطوائف وبالهجرة والاحوال

الشخصية ، وهذه أمور بالغة الاهمية في منطقتنا التي كانت ولا تزال تتعامل يوميا مع قضية الهجرة .

وكانت تقاليد العلويين ترفض ، مثلا زواج علوي من هندية . وقامت حادثة شهيرة في سنغافورة عندما عقد مثل هذا الزواج فوافق أهل الفتاة لكن العلويين رفضوا وقالوا : حتى لو توفرت وحدة الدين ، فيجب أن تتوفر كفاءة في النسب . واستعانوا بالزعامات وطرحوا القضية على المحاكم ففسخ عقد الزواج .

وفي جاوا أخذ الناس يتساءلون ويقولون : الاسلام ساوى بين البشر بما في ذلك في الزواج ، ولا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى ، فلماذا نفرق أو نرفض الزواج ؟

فيجيب العلويون المتعصبون : أيش معنى التقوى ؟ التقوى سبب ونسب !

وصادف ان جاء الشيخ احمد السركتي ، وهو من السودان وقد أحضره العلويون من الحجاز للتعليم في مدارسهم في جاوا . كان جالسا في أحد المجالس فسئل عن حادثة سنغافورة فقال : لا يوجد شيء اسمه كفاءة في النسب . الكفاءة تكون في الدين فقط .

فطرد من عمله . فاحتضنته جماعة « الارشاد » . وانشأوا مدرسة « ارشاد العباد » . والف الشيخ أحمد العديد من الكتب فألف العلويون كتبا تحتوي على حجج معاكسة .

ويضيف المؤرخ ان عدة مراتب قد فرضها العلويون للحفاظ على التشبث بتقاليدهم التي يقولون انها تقاليد اهل بيت النبي .

فرجال الدين عندهم على مراتب . فيلبس العمامة السوداء العالم الذي ليس من الاسياد أي من اهل البيت . والبيضاء اذا كان لم يصبح عالما . والصفراء اذا كان من سدنة دون أن يكون سيدا ، الخ .

ومن الدلائل على ارتفاع المستوى الثقافي والنضالي في المنطقة ، ان السلاطين المحليين اضطروا سنة ١٩٦٥ ، مع بدايات النضال الوطني المسلح ، لاصدار قانون يطلق الحريات العامة

والحقوق السياسية ، وذلك في مسعى لامتصاص النقمة الشعبية ووقف الانتفاضات التي كانت تلوح في الافق .

كان الحكام يعتبرون ان المواطنين في هذه المحافظة أو السلطنة يجب أن يكونوا « ملتزمين » بالنظام لأنهم متعلمون ويعرفون الهجرة ويتقنون الزراعة والتجارة ! ويبدو أن الاستعمار كان يخطط لاعطاء هذه المحافظة الخامسة بعض « المميزات » ، ومنها السيطرة عليها بشكل غير مباشر من خلال اعلانها دولة منفصلة .

ويقول مسؤولو التنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية في المحافظة الخامسة : نحن استفدنا من مبادرة الحكام الى السماح بالحريات السياسية والنقابية ، فقمنا بتشكيل نقابات عمالية وهيئات طلابية ، وحزب أسميناه « حزب الشعب الاشتراكي العربي » ، كما استفدنا من الصحف لطرح المسائل الوطنية والاجتماعية ، وعقدنا مؤتمرات شعبية قررت جميعها اعتبار الجبهة القومية الممثل السياسي الوحيد لشعبنا .

ثم شكلنا جبهة من الحزب الاشتراكي والنقابات ومنظمة الادباء والكتاب واتحاد الطلبة ، لتنسيق الاعمال ولدعم الجبهة القومية والثورة الشعبية . ورفض المصريون التعامل معنا وتقديم السلاح لنا في المحافظة ، خصوصا بعد انفصال الجبهة القومية عن جبهة التحرير على الصعيد الوطني في آخر سنة ١٩٦٦ . وتابعنا العمل السياسي والاستعداد العسكري الواسع الى ان نضجت الظروف المحلية والوطنية وقررنا اسقاط المنطقة ، وأيدتنا قوى كبيرة من الجيش الحضرمي ، وكان فيه عدد وافر من الجنود والضباط الوطنيين والشرفاء ، وعندما كان السلطان وعائلته في السعودية وعادوا بالباخرة لتعزيز سيطرتهم عندها رفضنا نزولهم وقلنا أن البلد أصبح بتصرف الجبهة القومية .

لكننا ـ يضيف الرفاق المسؤولون في التنظيم ـ قررنا بعد مناقشة ألا نعتقل السلاطين ، وأن نتركهم يسافرون الى غير رجعة . فقد رأينا أن اعتقالهم قد يؤدي الى حرب أهلية في المحافظة ، في الوقت الذي كانت قوتنا العسكرية محدودة . وقد ساعد اسقاط المنطقة بدون اراقة دماء ، في العمل الشعبي

والسياسي اللاحق . وشكلت « اللجنة الشعبية العليا » من الجبهة القومية وضباط من جيش البادية وجيش النظام والشرطة . وكان أغلبهم أعضاء في التنظيم السياسي ـ الجبهة القومية . وكان بيننا اتجاه يميني غير موافق على القيام بتغييرات وعلى تطهير وضرب أجهزة القمع والرموز البريطانية .

لكن الاتجاه الثوري الجذري فرض نفسه تدريجيا ، بعد أن أسهم في ذلك العمل الشعبي من جهة ، والقراءات السياسية والنظرية من جهة ثانية . وأنزلنا الى قواعد التنظيم السياسي الافكار والتجارب الثورية العالمية وضرورة نسف الاجهزة المتوارثة عن عهد الاستعمار ، وكتبنا مناقشات كثيرة في جريدة « الشرارة » . واستطعنا ، كجناح تقدمي ، السيطرة على الموقف والهيمنة على كل المستويات الحزبية والشعبية ، وذلك قبل أن تكون قد نضجت على الصعيد المركزي والوطني امكانيات انتصار الجناح الجذري من الجبهة القومية على جناح قحطان الشعبي في الحركة التصحيحية سنة ١٩٦٩ . وفور اعلان الحركة التصحيحية عبأ التنظيم السياسي مجموعات مسلحة لاحباط أي محاولة لردة يمينية عندنا في الخامسة ، وكنّا قد اشتركنا في انتفاضة ١٤ مايو سنة ١٩٦٨ وخضنا معارك مسلحة في الجبال عندما سيطر اليمين على البلاد ، والعناصر الثورية التي بدأت تخرج من السجن عادت الى نشاطها ، بشكل سري أو شبه علني ، وقد استفدنا قبيل الانقلاب الرجعي في ٢٠ مارس ١٩٦٨ وبعده ، من الوقت فقمنا بعملية تثقيف واسعة في السجن وخارجه فرسخنا التقاليد اللينينية ودرسنا الماركسية دراسة معمقة . وعملنا بشكل واسع في أوساط العمال والحرفيين . وهذا ساعد في تقبل الاصلاحات والتأميمات التي تقررت بعد حركة ٢٢ يونيو . ودفعنا الكوادر الى وادي حضرموت للقيام بنشاط سياسي في صفوف الفلاحين ودفعهم الى التحرك والانتفاضة . والملكيات الكبيرة كانت سائدة ، ونادرا ما نجد فلاحا يعمل في الارض ويملكها . أحيانا يكون شريكا في ربع أو عشر المحصول فقط وليس في ملكية الارض . فسارعنا ، بدعم

من السلطة التقدمية المنتصرة ، الى تشجيع الفلاحين على الانتفاضة المسلحة وحوّلنا الارض كلها الى ملكية تعاونية ، ووسائل الانتاج أيضا . أما الاراضي الجديدة التي نستصلحها فتكون مزارع دولة .

ويضيف الرفاق : كنا نتحدث الى الفلاحين ونقنعهم بالوقائع ، بأفضليات العمل الجماعي والتخلص من سيطرة المالكين . وكنا نحدثهم عن التجارب التاريخية في الاسلام ، ونعطي أمثلة من الاحاديث الدينية ومن المضمون الايجابي للاسلام وتعاليمه .

وفي البداية كان الفلاح يقول لنا اذا اقتنع بانتزاع الارض : حسنا ، ولكن ليس لدينا بنادق . قلنا : خذوا أسلحة الاقطاعيين . يجيبون : نحتاج الى سلاح حتى نأخذها . فنعطيهم سلاحا . ثم يتبين أن أجهزة الشرطة مؤيدة للاقطاعي رغم وجود حكم تقدمي . فكنا نختار عناصر جيدة من الشرطة ونرسلها لدعم الفلاحين ضد الاقطاعي . وهذا يعطي ثقة بأن الدولة معهم أو هي في قرارها السياسي العام مؤيدة لهم .

ثم يشكو الفلاحون من المسؤول الاداري . فنضطر أيضا لاتخاذ اجراءات بالنسبة الى الادارة .

لكن الانتفاضة الفلاحية نجحت . واعتقل كبار الاقطاعيين .

وأصبح الفلاحون يحبون الارض لأنهم انتزعوها بنشاطهم وتضحياتهم . وصاروا هم السلطة داخل القرى والسهول . ونفس الشيء ينطبق على الصيادين وعلى العمال . فقد نفذوا تدابير التأميم بانتفاضة واعية ، وشعروا بأن الحكم لم يعد للتجار بل هو للفقراء .

كما ترسخت ارادة الارتباط بين ابناء المنطقة وبين سائر أبناء اليمن الديمقراطية . وعمقت فيهم الجبهة القومية الانتماء الى اليمن الواحد .

وعلى الرغم من الصعوبات ومن تدخل المرتزقة السعوديين مرارا عند حدود محافظتنا ، فقد استطعنا بناء خطة متكاملة تنفيذا لمقررات التنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية ،

واستطعنا أيضا أن نربط المهاجرين والمواطنين الوافدين من البلدان الخليجية بواقع بلدهم وحاجات بناء اليمن الجديدة .

.. ويرافقنا بعض الاخوان المسؤولين في المحافظة عبر الطريق الوعرة والمقفرة والمعقدة الى وادي حضرموت . المسافة تستغرق في العادة سبع أو ثماني ساعات بالسيارة من نوع « اللانه » الجيد . نسير منذ الصباح وقبل أن تداهمنا أشعة الشمس الحارقة . نتجه شمالا في فسحة لمدة نصف ساعة أو اكثر ، ثم تبدأ عمليات القفز والتعرج والدوران حول الاثلام العميقة أو على جوانب المطبات العويصة ، ونصل الى نقطة هي الاكثر عمقا ثم نبدأ بالصعود مع بداية بزوغ أشعة الشمس . ويتراءى أمامنا طريق مشقوق في الصخور العامودية يذكرنا بالممرات الشهيرة التي حفرها رجال مملكة سبأ منذ ألوف السنين لمرور قوافلهم .

ثم نستمع الى هدير محركات وجنازير ، فنسأل ماذا يحدث في هذه البقعة النائية .. ثم نطل عند أحد المرتفعات الصغيرة فنجد عددا كبيرا من الجرارات الضخمة ومن حافرات الصخور ، وسواها من معدات « الصدام » مع الطبيعة .

هؤلاء الرجال وآلياتهم لم يسلكوا الطريق اللولبية التي سلكناها في ما قطعناه من رحلتنا الطويلة الى « الوادي » . لقد فتحوا طريقا جديدة ، ليس من النوع الذي يتبع تعرجات الوديان وتخبطات البقع الصحراوية والصخرية المتداخلة . لقد اختاروا خطوطا شبه مستقيمة وأحدثوا الطريق التي يريدون .

وهم واثقون من أنهم سوف يكملون الطريق الى وادي حضرموت حتى يختصروا على مسافري المستقبل كل هذا العناء الذي نبذله نحن اليوم .

نترك الرجال والاليات والغبار ونكمل تسلق القمم ، وكلما وصلنا الى جانب من المرتفعات الصخرية نظرنا الى الوراء فبانت لنا خيوط الطريق اللولبية التي اجتزناها .

ونمر على بعض مرابع البدو في طريقنا فيقدمون لنا الماء ، فكلما اتجهت الشمس نحو الضحى اشتدت حاجتنا الى الماء .

ونكمل السير .

ثم تبدو بعد مسافات طويلة ، أشجار النخيل وتبدو معها نباتات برية ، وتصبح الطريق شبه أفقية وتتراءى ، من اليمين ومن اليسار ، ملامح سلسلتين من الجبال لا أول لهما ولا آخر .

ونمر عند بوابة قديمة كانت مركز حدود بين السلطنات في الماضي . النقطة اسمها « ساه » . يشير السائق الى البوابة ، وينفض الغبار ويقول : يمكننا ان نستريح دقيقتين ، فلقد وصلنا تقريبا .

قلت له : ماذا تعني كلمة « تقريبا » ؟

يجيب : ما زال امامنا فقط ستون ميلا .

تطلعنا الى السماء واذا الشمس تتحول الى غضب مشتعل ، ونظرنا حولنا واذا ببعض الجرارات الزراعية عليها عمال يلبسون « الفوطة » على وسطهم ويضعون على رؤوسهم أي شيء يقيهم حرارة الشمس . في حين يشرب البعض شيئا من الشاي على مقربة .

ونكمل السير . وترافقنا الريح الصحراوية بعد أن تستوي الطريق . وتبرز أكثر فأكثر الى الجهتين ، تفاصيل الهضبتين الصخريتين اللتين سوف تستمران معنا ، في تقطع وامتداد ، الى آخر الحدود الشرقية الشمالية ، وحتى الى « سلطنة » مسقط وعمان .

اننا في داخل وادي حضرموت . اننا في طريقنا الى سيون .

وما هي الا دقائق ، حتى يبدو الجديد المتدفق من هذه الارض ذات التراث التاريخي العريق .

فالبقع الخضراء المنتشرة في اماكن متعددة من هذه اللوحة الرملية ، هي مشاريع زراعية رفيعة المستوى تشرف عليها التعاونيات .

ثم نصل ، أخيرا ، الى سيون .

« انها مدينة حديثة » ـ يقول أحد الاخوان .

ويتابع : عمرها فقط حوالي ٢٠٠٠ سنة .

ويستدرك مرة أخرى : ولكن مدينة سيون ازدهرت من جديد وبشكل مدهش خلال هذه السنوات الماضية .

وبالفعل ، فانك تشعر وكأنما في حلم عندما تجد في هذه المدينة انسجاما كبيرا بين تراث بالغ الاهمية وبين عصرنة تحاول أن تتخطى حدود المناخ الجاف والريح الصحراوية . كما تحاول أن تتخطى البؤس والفقر اللذين امتزجا مع الحضارة أو لحقا بها خلال عهود كالحة . فحضرموت هي أيضا ، من الوجهة التاريخية ، ارض العبيد والتفاوت المذهل .

والى جانب القصور القديمة ومنها قصر السلطان ومركز الادارة ، يبدو امامك مشهد الحدائق الجديدة التي أقامتها حكومة الثورة ، وشارع فسيح تتفرع عنه المداخل الصغيرة اللولبية المنتشرة بين الابنية البالغة القدم والمبنية من الطين .

وكان يربط بين شقق الابنية القديمة جسور فوقية عند حدود الطبقة الثامنة أو التاسعة . وهذه دلالة أخرى على روح التعاون والتلاقي بين الاقدمين . وهي الروح التي يغذيها اليوم المسؤولون الحزبيون والاداريون في المنطقة ويعطونها امتدادات عربية وعالمية . وشوارع سيون تحمل أسماء الثورات التحررية والشعارات الوطنية والقومية : شارع الجزائر ، شارع الحرية ، شارع الديمقراطية ، الخ .

وفوق الشارع الرئيسي لافتات واقواس . نقرأ :

« لنناضل من أجل الدفاع عن الثورة وتنفيذ الخطة الخمسية وبناء الحزب الطليعي » .

« اقض على أميتك، لتصنع مستقبلك ومستقبل شعبك » ..

وترتفع عند مقر التنظيم السياسي الموحد ومقر المديرية ، اعلام ولافتات وشعارات كلها تبين أن هذه البقعة لم تعد منزوية عن العالم ، وان مدينة سيون ، التي شهدت بعض الانقطاعات عن الحياة المزدهرة فلم يذكرها الهمذاني مثلا ، هذه المدينة التي شهدت تحولات وغزوات تاريخية طويلة سوف تنطلق الى المستقبل بدون انقطاعات ، وبدون تخبط وانتقائية .

المجمعات السكنية الجديدة ، المشاريع الزراعية المبرمجة ،

الزراعات والمنتجات التي لا نجدها في أي مكان من البلاد ، والتخطيط السياحي والفندقي رغم صعوبة المواصلات من عدن والمكلا الى هذه البقعة من « الوادي » ، كلها تشدك الى المستقبل وتجعلك تنسى بشكل كامل مصاعب الطريق اللولبية الموصلة الى هنا من المكلا .

ويبدو امامك في وسط هذا المناخ شبه الصحراوي ، فندق عصري هو أجمل وأهم فندق في اليمن الديمقراطية على الاطلاق ، وربما على صعيد أوسع من اليمن الديمقراطية . خدمة حديثة ، وسائل راحة وماء باردة ومسابح ونزهات .. كلها في داخل الفندق .

ونترك المدينة ونتجول عبر الوادي الذي يتعرج ويتسع قليلا ثم يعود الى عرضه الطبيعي ، المتراوح بين كيلومترين وثلاثة ، على طول ٣٦٠ ميلا ، على علو ٦٠٠ ـ ٧٠٠ متر عن سطح البحر . بين الدرجتين ١٥ و ١٧ شمال خط الاستواء ، وبين الدرجتين ٤٩ و ٥٠ شرقي غرينتش .

وتمتثل أمامنا ، بين القرى والمزارع والامتدادات الصحراوية ، آثار ألوف السنين من التاريخ . قبر النبي هود ، أول نبي عربي وكان ينتمي الى بني عاد ويقال انهم أقدم أمم التاريخ وقد ذكرتهم الكتب السماوية . ثم اندثرت هذه الحضارة وتركز الاهتمام على شبام وتريم ولا سيما في حوالي العام ٢٠٠٠ قبل الميلاد .

والمشهد لدى الدخول الى شبام يبدو مهيبا حقا . ابنية من الفن المعماري القديم ، كلها زخرفات وكلها فنون في غاية الاتقان من أول المدينة حتى آخر بيت فيها . لا شيء عاديا في هذه المدينة . لا مدخلها (وهو المدخل الوحيد والمخرج الوحيد من المدينة المشيدة قرب الصخور العالية المجانبة للوادي) ولا ناطحات السحاب التي قال عنها المؤلف الالماني هانز هلفرتز انها أقدم وافضل من ناطحات السحاب في نيويورك لأنها مصنوعة من الطين بينما نيويورك مبنية بعد اكتشاف المواد والوسائل الحديثة . فأطلق هذا المؤلف لقب « شيكاغو الصحراء » على

مدينة شبام وألف كتابا بهذا العنوان .

ويقال أن من أوائل الوافدين من الغرب الى شبام ، اثنين من المبشرين من الدانمارك فقدما الى المدينة قبل خمسماية سنة ، فطلب منهما أبناء المدينة اعلان الاسلام أو دفع الجزية ، فرفضا . وقد أجبرهما الاهالي على السير بدون جزمة ، رغم حرارة الارض .

ويعلق صديقنا الدكتور أحمد السقاف ، نائب مدير الثقافة في المديرية وقد كان معنا في هذه الجولة اللطيفة ، فيقول : ان المسألة لم تكن انتقاما من المبشرين لمجرد أنهما غير مسلمين . كانت موقفا ضد الغرب و « حضارته » الاستعبادية في نظر أبناء شبام .

والاستاذ السقاف عنده خبرة واطلاع عميقان بالنسبة الى التراث اليمني . وعنده رغبة جامحة في ان يضع الاجيال الجديدة في أجواء الفهم المتكامل لتاريخ اليمن وتاريخ العرب . يتطلع الى جوانب « الوادي » واذا بكل شبر من الارض يعطيه ايحاء بقصة عذبة أو بملحمة من الملاحم الاسطورية القديمة أو المتوسطة العهد أو الحديثة في الزمن . وهو يساهم بشكل أساسي في اللجان المكلفة بجمع التراث واحيائه . ويعتبر أن المؤسسات الغربية سحبت الكثير الكثير من آثار اليمن وكنوزها الى متاحف أوروبا ، وان على الحكومة أن تعمل بنشاط لاستعادة هذه الكنوز القديمة .

ونتابع جولتنا في الخمسماية بناية الملتفة الى بعضها بعضا في مدينة شبام . والمدينة شبه جزيرة ، بسبب الصخور وأيضا بسبب جداول المياه . وهذا من أسباب الاعتماد على الابنية العالية . وكان أن حصر الاهالي الدخول الى المدينة ببوابة واحدة كبيرة وذلك لصد قوافل الغزاة بسهولة .

النقوش على الابنية تمثل الحضارات المتتالية عبر الزمن . وندخل الى أحد المباني فنلاحظ أن الطابق الاول قد استخدم للحيوانات ، والثاني لرب الاسرة مع حجرة للاستقبال . أما الثالث فللنساء وما بعده للاولاد والشباب ، الذين يصعدون الدرج بسهولة . وكلما تزوج واحد من أبناء الاسرة يعطونه

طابقا .

ويلاحظ ان كل عهد كان يحرص ، خلال القرون الماضية ، على تجديد البناء الذي يتهدم كليا أو جزئيا مع الحفاظ على طابعه الاصلي واضافة بعض الاشكال الفنية الجديدة .

ومن غرائب شبام أن المآذن أقل ارتفاعا من الابنية السكنية . على أن مسجد هارون الرشيد يبرز بمهابة ، وقد بناه هارون الرشيد بالذات . وبقيت الجدران نفسها طوال الالف سنة الماضية . أما المنبر فعمره حوالي ثمانماية سنة وعليه كتابات بالخط الكوفي القديم .

ونغادر شبام وتشدنا الوان النخيل والمزارع الجديدة وعرائش العنب ، ويقول لنا الاستاذ السقاف أن رحلتنا الى تريم ستكون سهلة مع أننا سوف ندور حول الهضبة الصخرية العالية التي تمثل أمامنا . سنبقى في السهل ونسلك الطريق الحديثة ، أما في الماضي فكانت قوافل الجمال تصعد الجبل المسنن لتنزل الى تريم . وكذلك حاول ان يفعل الغزاة . ويذكر أن القائد تالب السبئي جاء ذات مرة من صنعاء على رأس حملة عسكرية الى تريم واستولى على ٢٠٠ عريشة و ٥٠ مصنعا لصناعة الخمر . ويذكر أيضا ان امرأ القيس قد تجول مرارا وتغزل بكروم العنب والخمور والفتيات الجميلات في هذه المنطقة .

ويذكر ، طالما نحن في الطريق الى تريم ، أن معن بن زائدة جاء ذات مرة من بغداد في حملة كبيرة واضطهد أهالي تريم وفرض عليهم اللباس الاسود بشكل اجباري . فانتقم منه أبناء تريم بعد سنين طويلة فأرسلوا عاملا ليشتغل في خراسان حيث يقوم قصر معن بن زائدة ، فظل هذا العامل يفتش عن طريقة لدخول القصر ثم دخله بحجة الشغل فقتل سيد القصر .

سور قديم وبوابة رئيسية ، و ... أهلا بكم في تريم . أهلا بكم في العاصمة الحضرمية وقصورها وكتاباتها ، وخصوصا : في مكتبتها العملاقة .

وهنا أيضا ، ناطحات السحاب القديمة ، مع اتساع هذه المرة بين الابنية ، ومع لوحات من الاخضرار حتى الافق .

فكلما توسع الوادي تحسنت التربة وهطلت الامطار بوفرة أكثر . بينما في الاماكن « الضيقة » ينحسر المطر وتسوء التربة .

لم نتمكن من احصاء عدد المساجد في هذه المدينة . يقال انها ٣٦٠ مسجدا ، وهناك تأكيد بأن العدد ليس أقل من المئتين في كل حال . وأضخمها مسجد « جامع المحضار » ، ارتفاعه ١٧٥ قدما ومبني من الطين المطعّم بالتبن ، ثم مطلي بالكلس . وقد شيده المهندسون المعماريون اليمنيون بدون استخدام « الزاوية » . وذلك منذ نحو ثمانين سنة .

وفي هذه المدينة حمل المغتربون معهم فنونا معمارية متعددة من البلدان التي عاشوا فيها .

ونصل الى « مكتبة الاحقاف » . والاحقاف هي المنطقة التي أنزل فيها قوم عاد . والكلمة تعني : الكثبان من الرمال الصحراوية .

أمامنا مكتبة في غاية التنوع ، أدبا وتاريخا وتصوفا ولغة وتراجم ونحوا ودواين وخطوطا ومجلات قديمة . كان هنالك مجموعة مكتبات مبعثرة قبل الثورة ، فجمعت كلها في هذه البناية وعين لها أمين وجهاز اداري . واستخدمت طرق حديثة في جمع المخطوطات (٣٠٠٠ مخطوطة كتاب معظمها نادر وذو أهمية حضارية وعالمية ويعود بعضها الى آلاف السنين) ، كما بالنسبة المطبوعات (٦٠٠٠ كتاب ، ذات قيمة نادرة أيضا) . وهناك مئات الكتب الجديدة في فرع اضافي .

وقد اشتهر أبناء تريم بنسخ المخطوطات بريشتهم أو قلمهم منذ القديم . وكان فيها تاريخيا عدد من المعاهد والمدارس ، يأتيها طلاب من اقاصي افريقيا وانحاء الشرق والغرب . لكن العهود الاستعمارية والغزوات بعثرت الكثير من التراث والتقاليد العلمية . فعملت حكومة الثورة على اعادة جمع الاشياء الاثرية والنتاجات التراثية . وقد اختير هذا المكان لجمع المكتبة فيه لأن الجو الناشف لا يؤدي الى تلف الكتب والمخطوطات .

هذه المكتبة زارها الشهيد كمال جنبلاط قائد الحركة الوطنية اللبنانية لدى زيارته الى اليمن ، فمكث ساعات بين

رفوفها وصفحاتها وأعجب بما تحتويه .

ونعود الى سيون ، حيث كانت لنا جلسة مفيدة وظريفة مع عدد من الكتّاب والشعراء الحضارمة . واحد منهم هو الزعيم عبدالقادر جواد . سمي ب « الزعيم » منذ أكثر من أربعين سنة ، لأن السلطة كانت تخافه بسبب حرصه على جمع الادباء والشباب في منزله والتداول في الادب والشعر . لم يكن « يشتغل » بالسياسة لكن السلطة اعتبرت أن له قوة خارقة وتأثيرا في المثقفين وفي الجمهور . فاعتقلته مرات كثيرة بدون سبب ، وهدمت داره ذات يوم وهو في السجن .

الثاني هو الاستاذ حسن بن عبدالرحمن عبيدالله ، وقد كتب ملحمة عنوانها « دولة العرب » . والثالث هو الاستاذ أحمد بن صافي . وهو أيضا شاعر له قصائد وطنية في القضايا اليمنية والعربية . والثلاثة تربطهم صداقة قديمة ، وقد اعتادوا على هذه السهرات والمساجلات استمرارا للنشاط الادبي الزاخر الذي أطلقته وتابعته الاندية والجمعيات والمدارس . وكان أدباء من سيون يكتبون في جرائد مصرية وخليجية خلال عدة عقود من السنين ، في جو من النشاط الواعي من أجل الوحدة العربية ومن أجل التراث العربي .

وعندما وقع الغزو الصهيوني لفلسطين شعر هؤلاء الادباء كما شعرت النوادي أن ارتباطا وثيقا يجمع بين خروج الانكليز من عدن وبين تحرير فلسطين .

وعندما أعلن الامام أنه يريد الاسهام عسكريا في تحرير فلسطين أبرق له عبدالقادر جواد قائلا : أنا أريد التطوع في الجيش الذاهب الى فلسطين . فأجابه الامام في برقية عاجلة : « فيهما فجاهد » . ومعنى ذلك أنه لسنا بحاجة اليك والى أحد وان ندائي كان من قبيل الدعاية فقط لا غير .

ويضيف الادباء أن الانكليز جعلوا حكومة المكلا تضرب حصارا على حضرموت وتمنع عنها الواردات ، كما تمنع عنها أموال المغتربين في سنغافورة ، وذلك لأن بعض أهالي « الوادي » أبرقوا ذات مرة تأييدا لوحدة اليمن في اطار السلطنة العثمانية وتحت

سيطرة الامام .

كان هذا سنة ١٩١٨ ــ ١٩٢٠ . وفي تلك الفترة بدأ نجم العثمانيين يأفل بسبب هزيمة تركيا ، فاعتبر ذلك « هزيمة لدعاة الوحدة » . وتقيد الامام بمعاهدات مع الانكليز مفادها انه هو الحاكم الروحي أما النفوذ العملي فلحكومة صاحبة الجلالة .

.. ويضحك الحاضرون . ويتذكرون كيف أن أبناء المنطقة اقتنعوا تدريجيا بأن تحررهم لا يكون الا بالتحرر الشامل من كامل الاعداء وكامل الاسياد . وفي الحرب العالمية الثانية اخذت النوادي والسهرات الشعرية تتحول الى مراكز للنقمة ولبلورة الخط التقدمي والثوري .

وتحولت جرائد « الزهرة » و « النهضة » و « التعاضد » الى منابر للاصلاح .. ووضع عدة شعراء أناشيد تدرّس في المدارس رغم الممانعة الانكليزية ، وبعضها أناشيد مكرسة لدعم الشعب الفلسطيني ولطرح قضية الوحدة العربية . ولمع من خلال الصحف علي أحمد باكثير وذهب الى القاهرة وقدم عشرات المسرحيات . وكذلك عبدالله أحمد بن يحيى ، وصالح بن علي الحامد .

ونشط « النادي العلمي » و « نادي القلم » ، وايضا « نادي الشباب » ، ابتداء من العام ١٩٤٧ ، حيث برز كثير من الاقلام التي أصبحت هي أقلام الجبهة القومية ومرآة كفاحها اللاحق . أما في الساحل ، ولا سيما المكلا ، فالاندية الرياضية كانت هي المنبع الاهم للكوادر والتنظيمات الثورية . ففي الساحل يحتل النشاط الرياضي ولا سيما في كرة القدم دورا بارزا ويستقطب الجمهور كله ، أما في حضرموت « الجبلية » فالجمهور كان أكثر تحفظا ، اذا صح التعبير والهجرة الكثيفة كانت تعيق امكانيات الرياضة الشعبية ، ولم تنشط الرياضة الا مع الاستقلال وهي اليوم في أوجها .

وكان « نادي الشباب » يقوم بتوزيع منشورات سرية قبيل الثورة وأثناء الكفاح المسلح . وباسمه نزلت التظاهرات في المدن . وباسمه عقد مؤتمر سنة ١٩٦٥ استنكارا للمشاريع

المشبوهة ولدور السلاطين . فطاردت السلطة أعضاء المؤتمر ومنعتهم من عقده في تريم فعقدوه في مسجد في « البدع » .

وبعد الاستقلال أخذت الاندية تطمح الى أكثر من ذلك ، فتطلق المبادرات والنشاطات الشعبية وتغني المواهب ، وتشجع الشباب على الانخراط في الميليشيا وعلى الدفاع عن الوطن والثورة . وقسم بارز من هذا النشاط يتولاه اتحاد الشباب الديمقراطي ـ اشيد ـ واتحاد نساء اليمن ، فضلا عن النشاط المكثف والمتنوع الذي تبذله النقابات العمالية واتحاد الفلاحين .

هذه اللقطات والمقارنات التاريخية والراهنة ليست هي مجموع الحياة السياسية والثقافية في المنطقة . وليست هي مجموع ما أعطته هذه المحافظة الخامسة الى اليمن الواحد والى الامة العربية ولا سيما الشعب الفلسطيني . ولكنها أمثلة معبرة ، وتدل على أن هؤلاء اليمنيين الشجعان ، الخبراء في تشييد الحضارات وفي الدفاع عنها ، انما هم خبراء أيضا في تعزيز الروابط مع القوى التحررية في الوطن العربي كله ، حتى عندما كانت حواجز الاقطاعات والانكليز ترغمهم على الانكفاء والعيش في ما يشبه السجن .

وإذا كان الغزو الصهيوني لفلسطين والمد التحرري والناصري على الصعيد العربي وتطور أوضاع الخليج والهجرة ، هي العوامل الكبرى التي أطلقت في الحضرميين روافد جديدة من الحماس القومي ومن الانشغال بمصير اليمن ومصير العرب ، فان في هذا الشعب اليمني اصالة عميقة عبر التاريخ وترتسم معانيها في كل بقعة من بقاع اليمن وهي تعطي ثمارها .

هذه المعاني لاحظها الشهيد كمال جنبلاط لدى زيارته الى اليمن الديمقراطية ولدى تجواله في حياة وتقاليد شعبها ، واطلاعه على برامجها وحيوية شبابها ، وعندما عقد حلقات الرقص مع الحضرميين وتداول معهم في الارتباط الحضاري بين أبناء الامة العربية .

عندها سألته ، بعد عودته من اليمن عن شعوره فقال : « يا عمي ، ما عندهم نفط ، وصامدين » .

وصمود الارض اليمنية كان ماثلا أمامنا في انحاء وادي حضرموت كما في انحاء المحافظات الاخرى .

وترتسم أمامنا ، في طريق العودة من سيون وشبام وتريم ، معالم مدينة اسمها « الغرفة » . اليمنيون المطلعون على التاريخ الحديث يسمونها « المدينة الباسلة » . في سنة ١٩٣٦ قصفها الطيران الانكليزي انتقاما من شعبها الصامد . فقاد حاكم المدينة ، عبيد صالح عبدات ، حركة وطنية أشرك فيها جميع أبناء المدينة . واستبسلت المدينة وحفرت الخنادق وتحولت الى قلعة . وعاود الانكليز الكرّة مرارا ففشلوا في تركيعها . الى أن دخلوها في سنة ١٩٤٨ بعد استعمال الدبابات الحديثة والطيران والمشاة دفعة واحدة وبعد تنسيق وتخطيط طويلين .

وبقيت حتى فترة طويلة عبارات السخرية بالمستعمرين التي كتبها زعيم المدينة وشبابها وشيوخها على الجدران . الجدران المتهدمة والباقية .

اليمن الديمقراطية وحقيقة الاسلام

« الايمان يمان والحكمة يمانية » .

(قرآن كريم)

انهم كفرة . نظام ملحد .. نظام معاد للتقاليد الاسلامية . يجب تحرير الجنوب من الماركسيين . خوف عربي على اليمن بسبب الالحاد .. وغيرها وغيرها من الاقوال نسمعها يوميا وسنسمعها اكثر ، كلما خطت جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية خطوة جديدة في اتجاه ترسيخ الانجازات الداخلية ودعم الصمود العربي .

ولا نبالغ اذا قلنا أن شبكات واجهزة متعددة الاطراف تنفق عليها عدة دول عربية وغربية ملايين من الدولارات في الاسبوع ، بل في اليوم ، تحت عنوان الدفاع عن الاسلام ضد الاشتراكية وضد « الخطر السوفياتي » .

والحملة ليست بجديدة . ولقد استخدمت الرجعية شعارات اسلامية مزيفة اثناء كفاحها المستميت ضد الثورة . والخليجيون يروون قصصا تقشعر لها الابدان عن الممارسات التي جرت في عهود مختلفة ضد الجماهير الاسلامية باسم الاسلام . ومنها تفاصيل الحياة اليومية للعديد من الائمة المتوجين ملوكا على اليمن باسم الله وباسم الاسلام . وما لم

تذكره مؤلفات الزوار الاجانب ولا سيما الطبيبة التي تحدثنا عن كتابها « كنت طبيبة في اليمن » ، يذكره المتقدمون في السن وحتى متوسطو الاعمار عندما يروون ما حصل ويحصل في قصور بعض السلاطين القدامى والجدد من النوع الذي يتشبث بالقول انه سيد المسلمين ووصي على الشريعة .

وليست بعيدة عن ذاكرة أبناء الخليج ، صفوف العبيد في قصور وزنزانات سعيد بن تيمور ، في سلطنة عمان ، ولا عاداته المفضلة وهي تعذيب العبيد الذين يخدمون ، وجعلهم يسيرون مقوصي الظهور من كثرة التعذيب والاحمال .

وليست بعيدة أيضا ، قصص الامراء الذين يفتشون في أقاصي أوروبا وأميركا عن أفضل أساليب المجون فيغدقون أموال الجماهير الاسلامية بالملايين على القمار وعلى الفواني .

وصحافة الغرب وأجهزته التلفزيونية حافلة حتى يومنا هذا بالصور والمشاهد التي لا ترفع رأس العرب ولا رأس المسلمين .

ولقد كان المجتمع اليمني قبيل الاسلام حافلا بالمآسي والتحكم العبودي . مع أنه لم يكن نظاما للعبودية بالمعنى « الكلاسيكي » بالنظر الى كونه نوعا من « النظام الاسيوي » المعتمد أساسا على أنظمة الري وعلى الاكتفاء الذاتي للقرية أو القبيلة ، في ملكية قبلية أو مشاعية تكون فيها الدولة هي المسيطرة فعلا على الارض ومشاريعها المائية وعلى تعب الكادحين ومن بينهم العبيد .

ويقول بعض المؤرخين والعلماء أن المجتمع اليمني القديم قد عرف العبودية لكنه لم يكن نظاما عبوديا . من جهة لأن العبيد لم يكونوا هم القوة الرئيسية المنتجة ، ومن جهة ثانية لأن ضعف الاراضي الزراعية جعل الملك الحقيقي للدولة . ومن جهة ثالثة لأن الملكية الزراعية لم تتوسع الى الدرجة التي تتيح امكانيات التطور من المشاعية البدائية الى نظام العبودية المتكامل كما في الامبراطورية الرومانية ، فكان التطور في اليمن « آسيويا » : مجتمع استغلالي وطبقي ولكن من دون ملكية خاصة للارض

(فللدولة الريع والضرائب وحق التفرير وصيانة الملكيات وشن الحروب ..) ، وهو بالتالي مرحلة بين المشاعية وبين الملكية الخاصة ، يتركز فيه النهب ، الداخلي والخارجي ، على الضرائب والحروب والسخرة[1] ..

واذا كان اليمنيون قد ذهبوا الى النبي منذ بداية الدعوة الاسلامية معلنين اسلامهم ، باسم المناطق أو القبائل ، فلم يكن ذلك دليلا على ايمان الزعماء الذاهبين الى الرسول ، بضرورة الخلاص من التحكم العبودي أو غير العبودي بالفئات المنتجة . فلقد استخدمت البرجوازية اليمنية وأسياد التجارة جميع الوسائل لخدمة مصالحها وخدمة العروش والممالك والخلافة المتوارثة .

حتى أن ضروبا « خاصة » من التعسف القبلي والطائفي والتعصب شبه العنصري قد اضيفت الى هذه المآسي باسم الاسلام أو باسم الانتماء الى سلالة النبي مثلا . وهذا ما زاد في الطين بلة .

واذا كان المجال لا يتسع لايضاح مراحل الصراع الديني والطائفي الذي ألمحنا اليه في أماكن مختلفة من هذا الكتاب ، فانه لا بد من ذكر بعض المفارقات المرتبطة بالحياة اليمنية المعاصرة .

في اليمن الديمقراطية اقتنعت الاغلبية الساحقة من رجال الدين بالاجراءات التي اتخذتها السلطة بعد الاستقلال وخصوصا بعد الاستقلال وخصوصا بعد حركة ١٩٦٩ التصحيحية . وقد تبين بالمناقشة الهادئة وبالممارسة ، أنه لا بد من ايجاد دولة عصرية على أسس علمانية ، تعطي « ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ، وتضع حدودا تمنع التحكم السياسي والاقتصادي والروحي

---

(١) وقد عرض الاستاذان زكي بركات ومصطفى عبدالرحيم الاراء والمناقشات البارزة بشأن أسلوب الانتاج في المجتمع اليمني القديم ، في دراسة بمجلة « الثقافة الجديدة » ، آذار (ابريل) ١٩٧٦ انطلاقا من الشرح الماركسي لمقومات أسلوب الانتاج الاسيوي ورسالة أنجلس الى ماركس حيث يقول فيها أن « المفتاح الحقيقي للشرق هو عدم وجود الملكية الخاصة للارض » . وانطلاقا من أن المجتمع اليمني القديم هو من ناحية العبودية اقرب الى العهود السالفة في الولايات المتحدة منه الى عهود الرومان مثلا .

بالمواطنين .

وفي الواقع فاننا شعرنا في اليمن الديمقراطية بوجود ايمان ديني حقيقي ، بعيد عن المصالح المادية ، وقد أصبح الايمان علاقة بين الانسان وربه ، لا علاقة تحكم بالاخرين .

وعلى سبيل المثال ، فقانون الاسرة الذي تحدثنا عنه آنفا ، جاء يزيل عن كاهل المرأة والرجل على السواء قيودا من التحكم نابعة من تقاليد الاقطاع ومن شريعة الغاب ، وليس من الاسس الدينية ومن شريعة الاسلام .

وفي شهر ابريل سنة ١٩٧٨ عرض عبدالفتاح اسماعيل في اجتماع مع رجال الدين وأئمة المساجد عددا وافرا من القضايا التي تشكل ردودا على آراء ومطالب وشائعات مطروحة للتداول ، بعضها من منطلق حسن النية وبعضها الاخر ضمن النشاط التآمري ضد اليمن الديمقراطية .

« المهم هو الحرص على جوهر الدين » ــ قال الامين العام للتنظيم السياسي الموحد في حديثه مع رجال الدين ــ فموقف فموقف الاسلام واضح . وخاصة في ما يتصل بالعمل وموقفه من العمل ، وتقديره للذين يأكلون لقمة عيشهم من عرق جبينهم ، وكذا فان موقف الاسلام واضح من الزواج والمهور . نحن عندما أصدرنا قانون الاسرة وألغينا تعدد الزوجات ، قال البعض ان هذا القانون جاء مخالفا لما ورد في الشريعة الاسلامية ، وقال أن للمسلم الحق في أن ينكح ما طاب له من النساء مثنى وثلاثا ورباعا . ولكنهم لم يتذكروا قول القرآن « وان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ، وهذا يعني أن الانسان كبشر ، أن الانسان كعواطف ، لا يمكن أن يكون له عدد من القلوب وعدد من العواطف يوزعها على عدد من الزوجات . ونحن في تقديرنا أن هذا القانون ينسجم مع جوهر الاسلام وهذا القانون جاء ليخدم جماهير شعبنا ، جاء ليعيد للنساء الاعتبار ، وليرسي أسسا صحيحة العلاقات الزوجية والاسرية .

وتحدث عبدالفتاح اسماعيل عن الصراع الطبقي وارتباط الاسلام في أعماقه بمقاومة الظلم والغاء استغلال الانسان لأخيه

الانسان ، وقال أن في الدول الاسلامية اليوم من يموت تخمة ومن يموت جوعا .

ويصل الى نقطة « حرجة » ، هي علاقة هذه القضايا بالحزب الطليعي . فيقول : القوى المعادية لشعبنا وثورتنا ، هذه القوى التي تخشى التنظيم وتخشى قيام الحزب ، تقول أن الاسلام يقول « من تحزّب خان » وأن الحزبية مروق وخروج عن الاسلام . يقولون هذا باسم الاسلام ، في الوقت الذي يعترف فيه الاسلام بالحزبية . يقول القرآن « الا أن حزب الله هم الغالبون » .

وهذا يعني أن للنبي محمد واصحابه حزبا ، مع فارق الزمن وتطور المجتمعات ، وكان حزب النبي مؤلفا من الجياع والفقراء والعبيد والمضطهدين الذين آمنوا وقدموا حياتهم رخيصة في سبيل انتصار أهداف الاسلام الحقيقية .

مثال آخر ، يتناول مسألة الارض . النبي محمد قال ان من أحيا قطعة ارض ميتة فهي له . وهذا ينسجم مع الشعار الذي يقول « الارض لمن يفلحها » . ليس هناك خلاف في جوهر المعنى .

علماء الدين والائمة طرحوا على الامين العام جملة من الملاحظات ، بعضها يتعلق بالمعونات التي يرسلها بعض المهاجرين للمساجد ، فوعدهم بتقديم التسهيلات لوصول هذه المساعدات للاوقاف ، على أن تنظم هذه العملية عبر أجهزة الدولة المختصة حتى تكون منظمة ومفيدة .

كما طرحت بعض أمور الاهتمام بالمساجد وادخال بعض التحسينات عليها .

وفي الواقع فالمسؤولون في اليمن الديمقراطية يأخذون هذه الامور بمرونة . وقد ردوا بشكل ملائم على الضغوط السعودية المباشرة وغير المباشرة ضد السلطة التقدمية تحت ستار الدين ، وحققت العلاقات بين السلطة ورجال الدين تحسنا وتفاهما كبيرين . مع أن الضغوط تستمر ، وتشارك فيها أيضا القاهرة وتل أبيب . ومن غرائب الصدف أن تطلق الاجهزة الصهيونية

حملات للدفاع عن المصالح الاسلامية وعن المساجد ، ويجري ذلك بعد المجازر الصهيونية ضد المسلمين وضد المسجد الاقصى . وتأتي التكملة المنطقية لهذه الحملة في ما تبثه الاجهزة الايرانية من حرص على مسلمي اليمن الجنوبية في الوقت الذي تنهمر فيه مدافع ورشاشات الشاه على رجال الدين وعلى الجماهير الاسلامية .

وفي الواقع فبعض الاوساط الخليجية يستغل ظاهرة الهجرة ويضغط على بعض المغتربين حتى يحصروا تبرعاتهم وأموالهم في المساعدات لبناء مساجد جديدة . خصوصا في المدن التي تحتوي أصلا على عشرات المساجد ، وحيث يقول رجال الدين بالذات انه في مدينة تريم وغيرها يوجد جامع بين الجامع والجامع .

ويلاحظ أن الحملة ضد اليمن الديمقراطية أخذت تثير الاستغراب والسخرية لدى رجال الدين في اليمن . وكثيرا ما نسمعهم يقولون انه بدلا من « معاقبة » اليمن الديمقراطية لأنها تريد أن تبني حزبا طليعيا « ملحدا » ، فيجب في البداية معاقبة أنور السادات لأنه أعلن انضمامه عمليا الى حزب مناحيم بيغن صاحب المجازر الشهيرة ضد العرب والمسلمين .

ويعيد رجال الدين الى الاذهان تلك الحادثة المعبرة عندما سأل الرسول « معاذا بن جبل » عند عودته من اليمن عما شاهد فيها فقال : « يا رسول الله رأيت رجالا باليمن يسجد بضهم لبعض أفلا نسجد لك ؟ » .

ويأبى الرسول أن يصدق أن في البشر من يعبد البشر . وهو في اطار دعوته الى خلق يمن جديد لا ينهك فيه الرقاب الانحناء ، قد أمر « عمران بن حزم » ، عامله على اليمن ، « أن ينهي ، اذا كان بين الناس هيج عن الدعاء الى القبائل والعشائر وليكن دعاؤهم الى الله وحده لا شريك له .. » .

وهم يعيدون الى الاذهان أيضا كيف أن النبي ساند الكادحين الخاضعين للقسوة والمرارة ، « المجدولين على الارض

المدفوعين على أبواب السلطان والذين يموت الواحد منهم وفي صدره ألف حاجة لم يقضها »(٢) .

(٢) يمكن مراجعة ما أورده الدكتور جعفر ظفاري في « الحركات الشعبية في التاريخ اليمني » ، حيث يورد تفاصيل عن أسباب ذهاب مختلف الطبقات اليمنية الى الرسول ، كل منهم لغايته أو لاهداف طبقته ، كما يتحدث عن « الخوارج » التي استمرت أربعة قرون منذ النصف الاول من القرن الهجري الاول ، وعن ثورة بشامة ضد الجوع والظلم . ويضيف أن ثورة بشامة أول ثورة شعبية في تاريخ العرب الاسلامي .

تطورات اليمن الواحد
بين اغتيال الحمدي واعدام سالم ربيع

« الدرب أفاع والرحلة زيف
التذكرة الاولى ثعبان
والتذكرة الاخرى تمساح
فلنقرأ أقدام النهر تذاكرها
ولنتوقف حتى يتفجر ماء الفجر من الصخرة
ومن الجمع الحاشد يولد انسان » .

(عبدالعزيز المقالح)

التطورات بين شطري اليمن بعد محاولة سالم ربيع علي الانقلابية كانت محور اهتمام الرأي العام العربي . والمطلعون على حقيقة الاحداث لم يفاجئهم ما اتخذته حكومة اليمن الشمالية من مواقف . لا على صعيد الحملات الاعلامية ولا من حيث التدابير العسكرية والسياسية .

والاهم من ذلك ، التطور الذي كان قد حصل في قلب صنعاء ، وهو الذي يدلنا على حقيقة وأعماق ما حصل من تطور بالنسبة الى الحدود ، التي اصطنعها الاستعمار وتريد السعودية وحكومة صنعاء تثبيتها ، مع الجنوب .

والتطور نابع من طبيعة النظام السياسي والاجتماعي في اليمن الشمالي . ومن العلاقة التي تربط بين القوى المعنية بالنشاط المادي للشعب اليمني .

وهنالك تقارير ديبلوماسية وصحافية تفيد بأن اغتيال الرئيس اليمني الشمالي المقدم الغشمي كان ضمن خطة تقضي بضرب عصفورين بحجر واحد : ضرب الحكم في اليمن الجنوبية ، وابعاد الغشمي في صنعاء تمهيدا لمجيء القوى « النافذة » الى الحكم وتصفية الحركة الوطنية والديمقراطية في اليمن الشمالية .

وتشير هذه التقارير الى أن تفاصيل هذا المخطط ، الموضوع بعناية في الدوائر المعروفة ، قد أبلغت الى عبدالله بن حسين الاحمر ، الذي اعتبر الرجل القوي ، وهو موال للسعودية بصورة كاملة وكان موعودا ولا زال برئاسة مجلس الشعب التأسيسي التي أسندت الى القاضي عبدالكريم العرشي . وقد وصل صنعاء ، في عهد الغشمي ، المقدم مجاهد أبو شوارب ، نسيب الشيخ عبدالله الاحمر ، واشترط حصول الاحمر على رئاسة الاركان العامة وعدد من المناصب القيادية لبعض مساعديه ، في مقابل القبول بالقاضي العرشي رئيسا لمجلس الشعب .

وكان الشيخ عبدالله قد أبعد في العام ١٩٧٤ على يد الحمدي والغشمي .

لكن جهود أبو شوارب أصيبت بانتكاسة لأن الغشمي رفض اسناد المنصب الثاني في الجيش الى رجل قبلي لم يدخل مدرسة عسكرية في حياته رغم مراسه في محاربة الحكم الجمهوري الوطني لمدة ثماني سنوات ، ثم أن الغشمي لا يريد منافسا له في القوات المسلحة اليمنية .

ووصلت الى المملكة العربية السعودية تفاصيل هذا الفشل ، مرفقة بالاتجاه الى ضرورة القيام بعمل معين ضد اليمن الديمقراطية لأن التطورات الجارية فيها تهدد ، على حد التعبير السعودي ، تقاليد المنطقة ومصالح القوى البترولية .

وهكذا ، وضعت الخطة ، وقوامها قتل الغشمي واتهام « جماعة عبدالفتاح اسماعيل » واستغلال الفرصة لتنفيذ مجيء القوى القبلية بشكل مباشر الى السلطة في الشمال .

وتؤكد هذه التقارير أن المبادرة في الشمال كانت بيد الرائد علي عبدالله صالح ، قائد لواء تعز والمشارك الفعال في اغتيال

الحمدي ، الذي توجه فورا الى صنعاء وأرغم القاضي عبدالكريم العرشي على ادخاله في مجلس الرئاسة المؤقت بعد ترقيته الى رتبة مقدم . وكان ذلك بناء لتعليمات من السعودية . وعلي عبدالله صالح هو زوج شقيقة المقدم الغشمي . وبعد ذلك بدأ التنافس على رئاسة الجمهورية . جميع الذين أشيع خبر ترشيحهم يدورون في الفلك السعودي ، الا أن أشدهم بأسا كان علي عبدالله صالح الذي أعطى الرياض وعودا كافية بتنفيذ كل طلباتها. وعندما أعطي الضوء الاخضر بدأ يستدعي « المسترئسين » كلا على حدة طالبا اليهم التنحي عن طريقه . وجمع تواقيع ثلثي أعضاء مجلس الشعب التأسيسي لانتخابه رئيسا للجمهورية ، ولهذا الغرض دفعت السعودية مبالغ كبيرة من أجل الوصول بهذا الضابط الى رئاسة الجمهورية .

ودون أي تحديد مسبق لموعد جلسة الانتخاب اجتمع مجلس الشعب التأسيسي فجأة في عشرين تموز ١٩٧٨ وبصورة سريعة ، وانتخب المقدم علي عبدالله صالح رئيسا الجمهورية بأكثرية ٧٦ صوتا وامتناع عضو واحد عن التصويت ، فيما تغيّب ١٩ عضوا عن الجلسة ، اضافة الى ثلاثة أعضاء متوفين .

وبعد الانتخاب بيوم واحد وصلت الى صنعاء بعثة عسكرية سعودية على طائرة خاصة أحيط خبر وصولها بكتمان شديد وأنزلت في فيلا بعيدة عن وسط العاصمة ، وتحمل التعليمات الواجب تنفيذها لدعم الحكم الجديد في طريق المواجهة مع عدن بعدما سقط سالم ربيع .

أحد أعضاء هذه البعثة التقاه ديبلوماسي عربي صدفة واستوضحه عن الموقف بين صنعاء واليمن الديمقراطية فأجاب : « بهمة الشباب هنا سنتمكن من سحق حكام عدن » . فأجابه الديبلوماسي : اذن ستحاربون حتى آخر جندي يمني !.. فضحك العسكري السعودي واستدرك قائلا : لم أقصد ذلك . وان أولى ثمار جهود هذه البعثة ستكون اعادة عبدالله الاحمر الى الواجهة القيادية بعدما رجع الى صنعاء فور مقتل الغشمي(١) .

(١) مجلة « الكفاح العربي » ، ٣١ تموز (يوليو) ـ ٧ آب (أغسطس) ١٩٧٨ .

والمعروف ان الرائد صالح كان قد اشتهر في صنعاء مثلما اشتهر في تعز بأميته السياسية وبعنفه ونزوعه القبلي الشديد . وكان قد تركز عليه الاهتمام فور اغتيال المقدم الحمدي . ومن ذلك الوقت بدأ يصعد الى درجات عالية من التأثير .

ومنذ اغتيال الحمدي جرت تصفيات كثيرة في الجيش وأعيدت مجموعة كبيرة من الضباط المسرحين . لكن نقاشا حادا كان يجري في الجيش بشأن جدوى التوتير مع الجنوب . وكان البعض من الضباط يود حصر أعمال التصعيد في اطار معين حتى لا تعطي نتائج معاكسة .

وهذا التطور كله يزيد في أصابع الاتهام الموجهة الى الاوساط السعودية بالنسبة الى اغتيال الحمدي بالذات . وقد بات واضحا أن اغتياله تم ضمن لعبة مدبرة ، وأن الشخص الذي أحضر الفتاتين الفرنسيتين هو تاجر اسمه شاهر عبدالحق ، ويملك طائرة خاصة تابعة للمخابرات السعودية .

وكانت حملة من الاعتقالات والاغتيالات قد قامت بعد اغتيال الحمدي ، في شتى محافظات اليمن الشمالي . وبالطبع ، فان اختلافات كبيرة نشأت ضمن الحكم ، بين فريق قبلي وفريق آخر ، وبين مجموعة من التكنوقراط ومجموعة من العسكر .. لكن الاتجاه الاقوى كان هو الاتجاه المتمثل في قائد لواء تعز ، وفي مدير المخابرات محمد خميس الذي شارك في تدبير اغتيال الحمدي .

وعلى كل حال فالاغتيالات والاعتقالات التي جرت قد شارك فيها خبراء من خارج اليمن ، وقيل على لسان أحد المقربين من مجلس القيادة في صنعاء أن اغتيال الحمدي تم بحضور الملحق العسكري السعودي صالح الدهيان والملحق العسكري الاميركي . وجرى التركيز على العناصر الوطنية في الجيش وقوى الامن . وغالبا ما بدأت تشاهد جثث في الشوارع بسبب أو بدون سبب . كما يتم ، باسم جهاز الامن الوطني ، شراء أناس من مختلف المهن وبمبالغ شهرية كبيرة حتى يتولوا مراقبة الوطنيين والوشاية عليهم .

ويبدو أن الرشوة ازدادت بالنظر الى صعوبات الوضع الاقتصادي ، فتأتي هذه الرشوة لتعطي كسبا معينا للسعودية في أوساط الباحثين عن لقمة العيش أو عن مدخول مالي معقول . ومن دلائل سوء الحالة المعيشية انه كان في الماضي يمكن شراء مقدار من القات بمبلغ زهيد نسبيا ، لكن الاسعار ارتفعت بشكل شاهق بسبب العمولات المختلفة . هذا عدا عن البطالة والمشاكل الاجتماعية الاخرى .

وقامت مشاكل كثيرة بين السلطة والمواطنين ، زادت في اقتناع الاوساط السعودية بضرورة الاتيان بجماعتها القبليين مباشرة الى السلطة .

كما اشتد الاعتماد على قبيلة « حاشد » التي يتزعم بعضها الشيخ عبدالله حسين الاحمر ، مع أن بعض هذه القبيلة كان يتردد في التعامل في السعودية . والتركيز المتزايد على هذه القبيلة كان يهدف ، بين ما يهدف اليه ، الى الرد على عدة قبائل معادية ومنها قبائل بقيت في قتال دائم مع السعودية رغم قربها من حدودها .

وقد انشأت شركة سويسرية فيلما كاملا عن « مملكة عبدالله حسين الاحمر » . الفيلم عرضه التلفزيون الياباني ، وقد علم أن تصويره كان بايعاز من الشيخ عبدالله نفسه .

الفيلم يصور الواقع المتخلف ، وأوضاع القبيلة ونشاطها وقوتها الضخمة ، ويبرز عبدالله حسين الاحمر كبطل وقائد .

وقد روى لنا بعض المواطنين الشماليين كيف كان الشيخ عبدالله يقعد على ديوان مرتفع جدا ، وما من أحد يقدم اليه شكواه أو قضيته مواجهة ، وانما يركع تحت الطاولة (الديوان) الذي يجلس فوقه الشيخ في ملاصقة الحائط ، فيعوض شكواه راكعا .

ويقول العارفون أن الرهان الرسمي على القبائل وحدها قد سقط . وقد اعتمدت سلطة الرئيس الحمدي على نوع من التوازن، وبعدها بدأ الاعتماد بشكل أساسي على التدخل الخارجي، باعتبار أن ولاء القبائل ليس دائما مضمونا . وقد وصلت أخبار

بـأن الولايات المتحدة طلبت من اليمن الشمالي اعطاءها قاعـدة في ميناء الحديدة بحجة مواجهة «القاعدة السوفياتية » في عدن .

وارتبط ذلـك بتكوين مجموعات خاصة داخل الجيش لا تتبع في ولائها مباشرة الى رئيس الجمهورية ، ولا الى القبائل . وقـد لعب علي عبدالله صالح ، وهو من قبيلة « سنحان » قرب صنعاء ، دورا بـارزا في تكوينها . واستفاد من وجوده في قيادة لواء تعز ، ومن تدابيره القمعية بعـد التمرد الذي قـام به عبدالله عبدالعالم ، فأغلق أبواب مـدينة تعز وفرض أحكامـا عسكرية ، وسيطر الخوف على المدينة وهجرها كثيرون من سكانها الى القرى الجنوبية .

وبدا نشاطه في اتجـاه الحكم . ووصل .

وكان التغلغل الاميركي قـد اشتد في اليمن الشمالي منذ عدة سنوات ، وكان من ابرز اهدافه (ومن أهداف السعودية أيضا) منع كل محاولة لايجـاد حوار جدي مع الجنوب لتكوين ارضية مقبولة للتنسيق او لوحـدة الشعب اليمني . وهذا مـن أبـرز الاسباب التي جعلت من « الضروري » قتل الرئيس الحمـدي الذي كان قـد أجرى محادثـات مع اليمن الديمقراطية ونشأت لجـان مشتركة وحصل تفاهم على الاستمرار في الجهود لتخفيف العداء والانسجام مع الرغبة الشعبية في التقارب .

والتغلغل الاميركي في اليمن الشمالية متنوع جـدا . بعضه على شكل « فرق السلام » التي تنفذ مشاريع قيل أنها اجتماعية . وهناك أيضا المبشرون الاميركيون تحت ستار ديني ، ولا سيما في جبلة حيث اقاموا مستشفى يعمل في ظروف مشبوهة . وهناك والتخطيط » الذي يتولى اعـداد الموظفين وترقيتهم .. كما استلم أيضا « النقطة الـرابعة » والعديـد مـن الشركات والمؤسسات الاحتكـارية .

ومن جهتهم ، فالبريطـانيون امسكوا بـ « معهـد الادارة الالمـان الغربيون « الجهاز المركزي للامن الوطني » الـذي يدرب رجال المخابرات .. هذا فضلا عن الخبراء الايرانيين في الجيش . وكذلـك فالخبراء السعوديون نـاشطون ، وقـد أحضروا أربع

مقـاتلات فـانتوم « ف ـ ٥ » مـع طيارين سعوديـين وقصفوا « التربة » ، قرب تعز ، بحجة ضرب التمرد .

ويزيد في خطورة هذا النشاط ، أنه يترافق مع عدة مشاريع مشبوهة تضغط الجهات الاميركية والصهيونية لتنفيذها في منطقة الخليج . منها مثلا مشروع « أمن البحر الاحمر » ، وهو يقضي بفرض سيطـرة رجعية ومراكز عسكريـة أميركية بالبحر الاحمر بحجة الوقوف بوجه الخطر السوفياتي .

والمسؤولون في اليمن الديمقراطية يردون على ذلك بالقول ان الشعوب المطلة على البحـر الاحمـر هي التي يجب أن تتولى بنفسها ، كل في اطـار حدوده الاقليمية ، حماية البحر الاحمر ليبقى فعلا بحيرة أمن وسلام لشعوب هذه المنطقة . وهم يطرحون مبدأ حرية الملاحة في كل المضائق والخلجان بما في ذلـك مضيق بـاب المندب .

والمعروف ان خططـا متعددة قـد باشرت باعدادها الجهات المرتبطة بالحكم المصري والمخابرات الصهيونية ، وتقضي بتنفيـذ عمليات معينة لاحتلال بـاب المندب وجزيرة بريم الاستراتيجية .

ويقال في الاوسـاط الغربية أن السيطرة على هـذه البقعة ذات الاهمية الكبيرة بالنسبة الى النضال العربي ضد اسرائيل ، كانت أحـد بنود اتفاقية سيناء الثانية الموقعة بين أنور السادات والحكومة الصهيونية . فلقد اصرت اسرائيل على أن تستلم هذا الموقع وتحوله من منطلق لقـوى الصمود المعـادية لها الى منطلق للتحرك الاسرائيلي والساداتي والاميركي في المنطقة .

واشتدت حاجة الاميركيين والصهاينة الى مثل هذا التحرك بعـد أن رسـخ النظام التقدمي في اليمن الديمقراطية اقـدامه وانتصر على عـدة محاولات مشبوهة في الداخل والخارج .

ويزيد في ازعـاج القوى المعـادية لليمن ، أن السلطة فـي اليمن الديمقراطية اعتبرت قضية الوحـدة اليمنية قضية مصير ومستقبل بالنسبة الى الشعب اليمني . وقـد أعلن الرفيق علي نـاصر محمد ، رئيس مجلس الرئـاسة ورئيس مجلس الوزراء بعـد أيام من فشل محاولة سـالم ربيع علي الانقلابية ، انه مهما

تكن العراقيل والمصاعب التي يخلقها بين الحين والاخر أعداء الشعب اليمني من الذين لا يروقهم أن يروا اليمن موحدة وقوية ومزدهرة ، فاننا سنبذل كل الجهود بالاعتماد على شعبنا اليمني وقواه الشريفة لتحقيق الوحدة .

وأضاف : ونعتقد أن الخطوات التي أقدم عليها أشقاؤنا في صنعاء بقطع الاتصالات والمواصلات البرية والجوية والبحرية بين الشعب اليمني في الشطرين لا تساعد على تحقيق الوحدة .

وما قاله علي ناصر محمد تأتي تكملته العملية في بيان أصدره مجلس الرئاسة ويضع الاسس التي يرى أن يرتكز عليها الحوار مع الاشقاء في الشمال . وبينها سحب الحشود على الحدود وفتح الحدود واعادة الاتصالات ووقف الحملات الاعلامية والبدء بممارسة لجان الوحدة مهماتها ، وتبادل النشاط الاقتصادي والتجاري بين الشطرين .

وأعلنت اللجنة المركزية للتنظيم السياسي الموحد ـ الجبهة القومية ، في بيان لها في الثلاثين من تموز ١٩٧٨ انه « سيكون بمقدورنا التصدي بحزم وقوة الى أي اعتداء ، مهما كانت القوى التي تقف وراءه ، وأن الحرب في حال اندلاعها لن تنحصر نيرانها وأبعادها في حدود اليمن شمالا وجنوبا ، وانما ستمتد لتشمل المنطقة كلها » .

وليست هذه هي المرة الاولى التي ينبه فيها قادة اليمن الديمقراطية الى خطورة الاقتتال وخطورة التفرقة بين شطري اليمن . وليست هذه المرة الاولى التي تصر فيها اليمن الديمقراطية على قضية الوحدة رغم الضغوط ورغم مظاهر التفرقة .

وأثناء الاجتماعات التي عقدت في العام ١٩٧٢ بين وفدين من الشمال والجنوب تقدم وفد اليمن الديمقراطية في اجتماع ٢١ أكتوبر بالجامعة العربية بمشروع متكامل بشأن أسس أولية للوحدة اليمنية .

المشروع يقضي ببناء دولة اليمن الموحدة « المواكبة لمسيرة الامة العربية » ، على أساس قوانين حديثة ومتطورة ومؤسسات اقتصادية وسياسية واجتماعية متحضرة . وجاء في المشروع انه

« اذا كان اقتطاع عسير ونجران وجيزان وجزر الطير وحانش الصغرى والكبرى وكوريا موريا وغيرها من ضمن الاسباب التي تعرقل مسيرة الوحدة ، خاصة والحكم السعودي يتدخل بصورة مستمرة في شؤون اليمن منذ عام ١٩٦٢ ، الا أن هذه العقبات والعراقيل التي تشكل الخطر الرئيسي على الوحدة ستزول اذا ما تكاثفت جهود حكومتي الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، ومن حيث المبدأ لا بد من توحيد أراضي اليمن كلها من عسير حتى المحافظة السادسة من جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في دولة واحدة أساسها الحرية والعدالة لتكون سندا للامة العربية في نضالها من أجل انهاء الاحتلال الصهيوني لفلسطين وتصفية القواعد الامبريالية والاستثمار الاحتكاري البغيض لخيرات ومقدرات العرب » .

وجاء في المشروع أنه لا بد من الاستفادة من الدروس التي عانت منها الامة العربية من جراء الانفصال في عام ١٩٦١ ، والتي كانت سببا مهما من أسباب هزيمة العرب في حزيران عام ١٩٦٧ . ونحن ندرك أن الطريق الواقعي الذي يوصل الى الوحدة هو البدء بتصفية هذه العراقيل ، وبالعمل المشترك من أجل التقارب على نطاق الاقتصاد والتشريعات ومناهج التعليم ، وغيرها ، في برنامج زمني محدد .

وفي مواد المشروع بنود تقضي بتشكيل « المجلس اليمني الاعلى » من رئيسي وأعضاء المجلس الجمهوري ومجلس الرئاسة ويجتمع مرة كل ثلاثة أشهر ما عدا الاجتماعات الاستثنائية ، في احدى العاصمتين بالتناوب أو في أي مكان آخر .

يبحث المجلس الاعلى في توحيد سياسة الحكومتين وازالة العقبات وتكوين مجالس فرعية تقدم مقترحاتها وتوصياتها الى المجلس الاعلى . وتتشكل لجنة دستورية من ممثلي السلطتين مهمتها اعداد مشروع دستور للدولة اليمنية الموحدة .. وهناك بنود بشأن مبادىء السياسة الاقتصادية والخارجية ، والسياسة العسكرية والامن والتشريع الموحد والقانون الموحد للجنسية ، والحريات العامة ، والتشريع الجنائي والمدني ، والتعليم والثقافة

وكان من أبرز ما تحقق في الاتصالات اللاحقة ، أن لجنة مشتركة توصلت الى اعداد كتاب موحد في « التاريخ اليمني الموحد » ، وذلك للصفين الخامس والسادس .

طبع خمسماية الف نسخة من كتاب كل من الصفين . وكان الرئيس الحمدي محبذا للفكرة ومتحمسا لها . فتوحيد النظرة الى التاريخ وتوحيد الرؤية اليمنية لدى الجيل الجديد يسهم اسهاما كبيرا في مسيرة الوحدة .

والكتاب ـ كما يقول أعضاء اللجنة المشتركة ـ كان ثمرة نقاش طويل بين مندوبي الشطرين ، وقد تحاشى الجنوبيون أية كلمات أو مصطلحات من النوع الذي يثير حساسية معينة .

غير أن الصحف والاذاعة وبعض ائمة المساجد في اليمن الشمالي شنوا هجوما كبيرا على الكتاب الموحد . وهاجموا بعنف شديد ، وزير التربية في اليمن الشمالي الدكتور عبدالكريم الارياني وهو عنصر ليبرالي ومتخرج من الولايات المتحدة الاميركية ، لأنه شجع هذه الخطوة وأسهم فيها .

وقد بلغ الهجوم واتهام الوزير بالتواطؤ مع « المخربين » و « الملحدين » ، الى درجة جعلت الوزير يفر من البلاد خوفا من قتله .

وبتوجيه وضغط من السعودية جمدت حكومة اليمن الشمالي كتاب « التاريخ اليمني الموحد » . أما في الجنوب فالكتاب يدرّس اليوم في المدارس . فالسلطة مقتنعة بأن الجيل الجديد يجب تربينه بروح من العمل الوحدوي ، ويجب أن يطلع على تاريخ بلاده الواحد ، وان يسهم في بناء هذه الوحدة .

وهي مقتنعة ، مثلما أحرار اليمن جميعا مقتنعون ، بأنه ما من قوة على سطح الارض قادرة على تجميد الكتاب الحقيقي ، كتاب التاريخ الموحد ، الذي يكتبه المناضلون بدمائهم وبعطائهم الدائب .

من المحتويات

طبع على مطابع شركة تكنوبرس الحديثة ــ بيروت

تشرين الاول - ١٩٧٨ -